

كتاب الذاكرين



ألا بذكر الله تطمئن القلوب
الأمانة العامة للمجلس القومي للذكر والذاكرين

الشيخ عبد القادر الجيلاني
حياته و آثاره

للأستاذ الدكتور
شوقي بشير عبد المجيد

إصدارة رقم (١٠)

وزارة الإرشاد والأوقاف
المجلس القومي للذكر والذاكرين
الأمانة العامة

الشيخ عبد القادر الجيلاني

حياته وآثاره

تأليف: الأستاذ الدكتور
شوقي بشير عبد المجيد

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة كتب الذاكرين

اسم الكتاب: الشيخ عبد القادر الجيلاني حياته وآثاره
اسم المؤلف: الأستاذ الدكتور: شوقي بشير عبد المجيد
الناشر: المجلس القومي للذكر والذاكرين الأمانة العامة
الطبعة الثانية بالرقم ٩٧٢٨٢

طبع بدمشق ـ سوريا
ذو القعدة ١٤٢٨هـ
نوفمبر ٢٠٠٧

استهلال الناشر

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ﷺ؛

إن رفعة الله تعالى لأمة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ مقرونة في كتابه العزيز بالإيمان والعلم ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾، كما أن تقواه وخشيته وهدايته تعالى مربوطة بالعلم والتعلم ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، والعلم المأخوذ من مصادره الشرعية هو أساس تدين المسلم ومرجعيته والعلماء العاملون هم ورثة الأنبياء المبلغين عن الله تعالى، فالعلم والمعرفة هما السبيلان لصراط الله المستقيم وبهما وصل الواصلون وعرف العارفون وبنيت الحضارات الإنسانية وحضارة الإسلام على وجه الخصوص وبالعلم عرف الناس الخالق ووحدوه ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وأعملوا عقولهم التي هي موضع الخطاب القرآني لهم ليتدبروا معانيه ويفقهوا مراميه.

أما منهج السادة الصوفية فقد تأسس على العلم ومرجعياته الشرعية، على عكس ما يسعى أن يروج خصومه الذين يستغلون جهالاتهم أو جهالات بعض منتسبي التصوف ليدمغوا المنهج نفسه بأنه نصير الجهالة والبدع الضالة، ولكن أهل الإنصاف والأمانة العلمية والتجرد للحقيقة يعلمون أن سادة المذهب الصوفي وآبائه المؤسسين وأئمته الكبار ألزموا أنفسهم ومدرستهم بالعلم سبيلاً للتعرف على الله والتزام دينه وشرعه والتقيد بذلك فألفوا مؤلفاتهم وقالوا مقولاتهم الموجهة على هدي ذلك.

إن الأمة تعرف أعلام علمائها من السادة الصوفية الذين مثلت مؤلفاتهم مراجع للفكر والفقه الإسلامي كله من لدن أهل الصفة في مسجد رسول الله ﷺ الذين هم أهل انقطاع للعلم والجهاد بل إن المتصوفة ينسبون سلسلة مذهبهم إلى رسول الله ﷺ مدينة العلم وإلى سيدنا الإمام علي كرم الله وجهه باب مدينة العلم، ثم إلى السادة أهل الرجعى إلى الله من لدن الأئمة الحسن البصري والمحاسبي والجنيد وعبد القادر الجيلاني والشبلي والغزالي والشاذلي والبدوي وأحمد التيجاني والنقشبندي والنورسي وقائمة طويلة من سادة الأمة وأعلامها هم أهل الاجتهاد والفتوى والتأليف المكون للمكتبة الإسلامية عبر كل العصور، ولم يعرف المسلمون في معظم أنحاء العالم

الإسلامي وعبر كل الحقب قادة أو أئمة للهدى والتنوير مثل أهل التصوف في مساجدهم وخلاويهم وكتاتيبهم ومدارسهم.

أما الحال في بلادنا (السودان) على وجه الخصوص فإن مدارس حفظ القرآن الكريم ومعاهد العلم ومواقع تعليم اللغة العربية قراءة وكتابة كلها مرتبطة في السودان بمؤسسة (المسيد) التي انطلق منها المتصوفة بمنهجهم المتميز في الدعوة إلى الله تعليماً وإطعاماً وإيواءً وقبلةً للمعوزين والمحتاجين فكانوا بذلك موقع ثقة الناس ومرجعياتهم في أمور الدين عامة.

إن حقيقة الحقائق في هذا الشأن أن مشايخ التصوف السابقين واللاحقين منهم قد اهتموا بالعلم تأليفاً وتدريساً، حتى أن أشعارهم وأشعار المادحين في مسايدهم كانت هي منبع المعارف ومصدر المعلومات لعامة الناس ولا ينكر إلا مكابر أثرها العظيم في تبسيط أساسيات العقيدة والسيرة والفقه وقدموا ذلك في قالب فني جذاب ومؤثر ومناسب مع المجتمع الذي تفشى فيه الأمية ويقل فيه المتعلمون، ولقد أحسن وصدق وأنصف شيخ شعراء السودان في القرن العشرين الأستاذ عبد الله الشيخ البشير حينما قال عن المادح السوداني:

(معلم) الشعب جلّ قدراً مهيّئ الفن للفقير

ورغماً عن حقيقة ارتباط التصوف بالعلم في أصوله الأولى إلا أن إهمالاً وهجراناً للعلم قد حدث في زماننا هذا حتى اختلطت عند بعض الناس حقيقة علاقة التصوف بالإسلام بسبب هذا الإهمال وفرق كبير بين أصل الشيء وبين إهماله في مرحلة لاحقة.

غير أن المحدثين والخلف من أئمة التصوف في السودان هم أهل علم وتأليف وفتوح ولهم في ذلك مواهب باهرة واجتهادات غاية في العمق والشمول ولكن ثقافة الشفاهية التي سادت الحياة السودانية حرمت أهل السودان بل والأمة المسلمة كلها من التعرف والتمتع بالتوثيق لاجتهادات ومؤلفات وإبداعات علماء السودان من المتصوفة فالناس لا يكادون يعرفون كثيراً عن مراجع العلم الشرعي بعد مختصر خليل الشهير.

ولكن جولة عابرة في كل بيت ومسيد صوفي في السودان تجعلك في حالة من الانبهار والدهشة مقرونة بالأسى والحزن ووخز الضمير إذ أنك ستجد مئات المخطوطات والمؤلفات التي يجمع أهل العلم أنها يمكن أن تشكل إثراء كبيراً للمكتبة الإسلامية العالمية لو وجدت حظها من الطباعة والنشر والتحقيق والترجمة.

إن في بلادنا كنوزاً من المعرفة في كافة ضروبها طواها النسيان وفيها أعلاماً من العلماء لو قدمناهم للدنيا لكانوا مصدر فخر لنا ولها، ولأعادوا التعريف بالسودان على عكس ما هو مشاع عنه عند لدى البعض في مجال الإنتاج العلمي، إن استعراضاً سريعاً لرموز الفكر الصوفي ومؤلفاتهم تغنينا عن الإفاضة في ذلك وهل تخطئ العين علماء ومراجع أمثال الشيخ أحمد الطيب البشير والشيخ إدريس ود الأرباب والشيخ قريب الله والشيخ الفاتح الشيخ قريب الله والأستاذ عبد المحمود الشيخ نور الدائم وابنه الشيخ ألجيلي وحفيده الحجة الفريد الشيخ عبد المحمود الحفيان والشيخ مجذوب مدثر الحجاز والشيخ ود بدر والشيخ الكباشي والشيخ المجذوب والشيخ أبو العزائم والشيخ أحمد البدوي والشيخ البرعي والشيخ الصابونابي وليس انتهاء بالشيخ عوض الله صالح أو الشيخ عبد الجبار المبارك... إلخ.

أما أفذاذ شعراء ومادحي السودان فقائمتهم تطول من لدن حاج العاقب وحاج الماحي والشيخ صالح وود أبو شريعة وود سعد وقدورة وود حاجة وحياتي وأبو كساوي والشيخ هاشم وقائمة تطول من سادتنا المتصوفة الذين عددنا منهم ولن نستطيع أن نعددهم. لو أننا أتحنا هذه المعارف لطالبي العلم ودارسيه لكان ذلك فتحاً ونصراً جديداً للإسلام وللعلم وللسودان.

ها نحن نعقد العزم في المجلس القومي للذكر والذاكرين على السعي لنشر تراث العلم الذي أنتجه المسيد السوداني عبر برامج إصدارية هي:

١. سلسلة كتاب الذاكرين

٢. سلسلة رسائل الذاكرين

٣. سلسلة سماع الذاكرين (كاسيت، إنتاج إذاعي وتلفزيوني، CDs).

وقد كانت البداية بنشر ست رسائل في ذكرى المولد النبوي الشريف ١٤٢٨هـ وهاهي المجموعة الثانية من إصدارات كتاب ورسائل وسماع الذاكرين بين يدي القارئ الكريم.

إنها بدايات الطريق الذي نسأل الله أن يعيننا فيه أن نبرز للدنيا بعض معالمه منارات تهدي السالكين وتفتح فيه الأبواب للجميع نشراً لدعوة الله وامتثالاً لأول أمره

تعالى لأهل الأرض ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

هذا وبالله التوفيق وهو الهادي إلى صراطه الحميد..

وصلى الله وسلم على سيد العلماء رحمة الله لعباده سيدنا محمد وآله وصحبه ومن والاه.

عثمان البشير الكباشي

الأمين العام

مقدمة

الحمد لله، نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ، وبعد:

فهذا كتاب عن الشيخ عبد القادر الجيلاني، والذي دعاني لكتابته هو أهمية دراسة حياة هذا الشيخ حتى يتم تصحيح بعض الأخطاء التي توارثها منكرو التصوف جملة والذين لا يحبون الخوض في مسائله، والأخطاء التي توارثها محبو الشيخ ومريدوه في فهمهم للمسائل الفرعية من الفقه الأكبر (التوحيد) وتصحيح بعض الممارسات العملية التي لم تعرف عن الشيخ الجيلاني، رحمه الله.

ولقد بان لي من خلال اطلاعي على فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية بصفة عامة، والمجلد العاشر بصفة خاصة، أن ابن تيمية الذي يعتمد عليه معظم المنكرين للتصوف لا يقف مع هؤلاء الذين شملوا بالنكير سائر ما يقع في طريق القوم من غير تفصيل ولا مع المطلقين الأحكام العامة على القادرية أو الجيلانية، ولا مع الذين والوا وعادوا بالانتساب إلى الجيلاني أو غيره، وبيّن في فتاويه أنه لا يجوز امتحان الناس بما لم يأمر به الله ولا رسوله مثل امتحانهم بالأسماء الباطلة التي لا يجوز التسمي بها أو الأسماء التي قد يسوغ التسمي بها كانتساب الناس إلى شيخ كالقادري أو العدوي ـ عدي بن مسافر الأموي ـ ولا يجوز أن نفرق بين الأمة بهذه الأسماء أو غيرها، قال ابن تيمية: (والله تعالى قد سمانا في القرآن المسلمين المؤمنين، عباد الله، فلا نعدل عن الأسماء التي سمانا الله بها إلى أسماء أحدثها قوم وسموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان، بل الأسماء التي قد يسوغ التسمي بها مثل انتساب الناس إلى إمام كالحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، أو إلى الشيخ كالقادري ـ عبد القادر ـ والعدوي ونحوهم، أو مثل الانتساب إلى القبائل كالقيسي، أو إلى الأمصار كالشامي

والعراقي والمصري، لا يجوز لأحد أن يمتحن الناس بها، ولا يوالي بهذه الأسماء ولا يعادي عليها، بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم ـ من أي طائفة كان...).

وقد شرح شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاويه كلمات من فتوح الغيب للشيخ عبد القادر في أكثر من مائة صفحة، وأثنى عليه، واستخدم عبارات بعد ذكر اسمه تدل على مكانته عند علماء المسلمين منها على سبيل المثال: رضي الله عنه، رحمه الله، قدس الله سره، قدس الله روحه، وهكذا.

وبين ابن تيمية في أكثر من موضع[1] أن الجيلاني يدعو إلى طريقة السابقين المقربين، ولا يقف عند طريقة الأبرار أصحاب اليمين، وأن الجيلاني من أعظم مشايخ زمانه أمراً بالتزام الشرع، قال ابن تيمية: (... والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهي، وتقديمه على الذوق والقدر، ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية، فإن الخطأ في الإرادة من حيث هي إرادة إنما يقع من هذه الجهة، فهو يأمر السالك أن لا تكون له إرادة من جهة هواه أصلاً، بل يريد ما يريد الرب عزّ وجلّ) وقال ابن تيمية ـ أيضاً ـ (وأما أئمة الصوفية والمشايخ المشهورون من القدماء مثل الجنيد بن محمد وأتباعه، ومثل الشيخ عبد القادر وأمثاله، فهؤلاء من أعظم الناس لزوماً للأمر والنهي وتوصية باتباع ذلك، وتحذيراً من المشي مع القدر كما مشى أصحابهم أولئك، وهذا هو الفرق الثاني الذي تكلم فيه الجنيد مع أصحابه، والشيخ عبد القادر كلامه كله يدور على اتباع المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور، ولا يثبت طريقة تخالف ذلك أصلاً لا هو ولا عامة المشايخ المقبولين عند المسلمين، ويحذر من ملاحظة القدر المحض بدون اتباع الأمر والنهي كما أصاب أولئك الصوفية الذين شهدوا القدر وتوحيد الربوبية، وغابوا عن الفرق الإلهي الديني الشرعي المحمدي الذي يفرق بين محبوب الحق ومكروهه ويثبت أن لا إله إلا هو)، وقال ابن تيمية عن الجيلاني وشيخه حماد الدباس: (فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة ـ رضي الله عنهم ـ بأن لا يريد السالك مراداً قط، وأنه لا يريد مع إرادة الله عزّ وجلّ سواها، بل يجري فعله فيه، فيكون هو مراد الحق، إنما قصدوا به فيما لم يعلم العبد أمر الله

(١) انظر الفتاوى لابن تيمية ط. الرياض ١٣٨١هـ.
جـ ١٠ ص ٥٢٠ و٤٨٨، جـ ٨ ص٣٦٩، جـ١ ص٤٧٠.

ورسوله فيه، فأما ما علم أن الله أمر به فعليه أن يريده ويعمل به، وقد صرحوا بذلك في غير موضع، وإن كان غيرهم من الغالطين يرى القيام بالإرادة الخلقية هو الكمال، وهو الفناء في توحيد الربوبية)، فالجيلاني لم يكن من أولئك الغالطين الذين اكتفوا بتوحيد الربوبية بل كان من أهل الفناء الكامل المحمدي الديني الشرعي والذي هو توحيد الألوهية وقد اقتضت طبيعة هذا الكتاب وهو الكتاب الأول[1] عن الشيخ الجيلاني أن يكون في أربعة فصول، تسبقها مقدمة، وتقفوها خاتمة وفهارس، أما المقدمة فقد اشتملت على أسباب الكتابة في هذا الموضوع واختباره وتبويب الكتاب، وقد جاء الفصل الأول تحت عنوان (الشيخ عبد القادر الجيلاني، حياته وآثاره) وقد جعلته في المباحث التالية:

١ـ اسمه ونسبه وألقابه.

٢ـ ولادته ووفاته.

٣ـ والد الجيلاني وأمه وإخوانه وأولاده.

٤ـ شيوخ الجيلاني.

٥ـ تلاميذ الجيلاني.

٦ـ عبادة الجيلاني.

٧ـ علم الجيلاني ومصنفاته.

وجاء الفصل الثاني تحت عنوان: (كرامات الشيخ عبد القادر الجيلاني وشطحاته).

وقد جعلته في المباحث التالية:

١ـ كرامات الشيخ عبد القادر الجيلاني.

٢ـ شطحات الجيلاني.

وأما الفصل الثالث فقد جاء تحت عنوان: (التوحيد عند الجيلاني) وتتضمن المباحث التالية:

١ـ المبحث الأول: توحيد الألوهية وتضمن هذا المبحث المطالب التالية:

---

(١) الكتاب الثاني سيصدر قريباً إن شاء الله، وفيه الحديث عن الفرق عند الجيلاني والمقامات والأحوال الإيمانية.

(أ) الإقرار بالشهادتين.

(ب) معرفة الله وتوحيد الأسماء والصفات.

٢ـ المبحث الثاني الإيمان بالقضاء والقدر واحتوى على عدد من المطالب والمسائل.

واشتمل الفصل الرابع على المباحث التالية:

المبحث الأول: المتصوف والصوفي

المبحث الثاني: في الإرادة والمريد والمراد

المبحث الثالث: الكشف والذوق والخواطر.

المبحث الرابع: الفناء عند الجيلاني

ولا يفوتني في هذه المقدمة أن أكرر شكري للأستاذ الدكتور عبد الوهاب أحمد عميد كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الإمارات العربية المتحدة والأستاذ الدكتور أحمد محمد أحمد الجلي رئيس قسم الدراسات الإسلامية بالكلية لتشجيعهما الدائم على البحث العلمي.

وأشكر أيضاً الأستاذ كمال عبيد مدير إدارة الدعوة الذي وجدت في مجلته المحكمة مجالاً لنشر بحوثي، وفي مركزه مجالاً للعمل الخالص لوجه الله الكريم.

كما أشكر أستاذي الأستاذ الدكتور عامر حسن صبري الأستاذ بجامعة الإمارات، فقد وجدت في مكتبته العامرة وبحوثه وكتبه المحققة ما أعانني على تجميع مادة هذا الكتاب وغيره.

هذا هو جهدي المتواضع، وهو جهد قد أكون وفقت فيه، وقد تكون فيه أخطاء، فكل جهد وكسب بشري عرضة للخطأ والصواب والمراجعة في زمنه والأزمان التالية، فإن وفقت فالحمد لله وإن أخطأت فأسأل الله أن يغفر لي وأن يوفقني لما يحبه ويرضاه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. شوقي بشير عبد المجيد

العين أول أغسطس ٢٠٠٠م

الفصل الأول

الشيخ عبد القادر الجيلاني

- حياته وآثاره -

(٤٧١هـ - ٥٦١هـ)

بقلم

دكتور شوقي بشير عبد المجيد

جامعة الإمارات العربية المتحدة

الشيخ عبد القادر الجيلاني، حياته وآثاره(١)
(٤٧١هـ - ٥٦١هـ) (١٠٧٨م - ١١١٦م)

(١) انظر في ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلاني الكتب الآتية:
١ـ الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٠٨ـ ١٤٤.
٢ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، تحقيق إحسان عباس ط. دار الثقافة ٢: ٣٧٣.
٣ـ الأعلام للزركلي ط٧ دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٦ م٤: ٤٧.
٤ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط بيروت المكتب التجاري بلا تاريخ ٤/ ١٩٨ـ ٢٠٢.
٥ـ مدخل إلى التصوف، للتفتازاني، ط دار الثقافة القاهرة ١٩٧٦م ص٢٢، ١٤٦، ٢٨٦، ٢٨٧ـ ٢٠٩.
٦ـ فتوح الغيب للجيلاني ط دار الألباب، سوريا، ط٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م المقدمة ص٧.
٧ـ الفتح الرباني والفيض الرحماني للجيلاني، ط دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٠هـ من ص٥ إلى ص٨.
٨ـ نقد ابن تيمية للتصوف، للدكتور شوقي بشير، الناشر دار الفكر، الخرطوم، ١٩٨٧م ص١٢٦، ١٢٧.
٩ـ مقدمة المحقق فرج توفيق لكتاب الغنية لطالبي طريق الحق عزّ وجلّ، الناشر مكتبة الشرق ببغداد، بدون تاريخ ص٧ إلى ص٢٤.
١٠ـ هامش كتاب الاستقامة لابن تيمية، تحقيق الدكتور رشاد سالم ١/ ٨٥، ٨٦.
١١ـ البداية والنهاية لابن كثير ١٢/ ٢٥٢.
١٢ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ، صفحات ٦٦٢، ٨٧٩، ١٢٤٠، ١٧٣٨، ٢٠٥٣.
١٣ـ روضات الجنان للخوانساري ٤٤١ـ ٤٤٣.
١٤ـ مرآة الجنان لليافعي ٣/ ٣٤٧ـ ٣٦٦.
١٥ـ الكواكب الدرية للمناوي جـ ٢ ص٧٩ـ ٨٨.
١٦ـ هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ١/ ٥٩٦.

المبحث الأول
اسمه ونسبه

هو محيي الدين، أبو محمد، عبد القادر بن أبي صالح موسى الملقب بجنكي دوست، بن عبد الله، بن موسى الجون[١]، بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن[٢] بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين (وهو سبط أبي عبد الله الصومعي، من جلة مشايخ جيلان[٣]، وأمه أم الخير بنت أبي عبد الله، وأخوه الشيخ

(١) تكتفي بعض المصادر بذكر اسمه هكذا: أبو محمد، محيي الدين، عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي. قال ابن الأثير في الكامل: (هو عبد القادر بن أبي صالح، أبو محمد، الجيلي).
وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء عند ترجمته له: (عبد القادر بن أبي عبد الله بن جنكي دوست الجيلي)، وقال الزركلي في الأعلام: (عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد، محيي الدين، الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي)، وجاء نسبه في كتاب فتوح الغيب، ط. دار الألباب هكذا: (هو أبو محمد، محيي الدين، عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني الصديقي، ابن أبي صالح موسى جنكي دوست بن الإمام عبد الله بن الإمام يحيى الزاهد، بن الإمام محمد، بن الإمام داود بن الإمام عبد الله، بن الإمام موسى الجون، ابن الإمام عبد الله المحض، بن الإمام الحسن المثنى بن الإمام أمير المؤمنين سيدنا الحسن السبط، بن الإمام الهمام أسد الله الغالب فخر بني غالب، أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنهم أجمعين) ص٧.

(٢) جاء في فوات الوفيات أن نسب الشيخ عبد القادر ينتهي إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما، وليس إلى الحسن.
انظر: فوات الوفيات ٢: ٣٧٣.
وقال الدكتور سعيد بن مسفر بن مفرح القحطاني في كتابه (الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية) (ص٢٧): (وبالرغم من ورود ما يوحي بعدم صحة نسبته إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما في الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب حيث يقول: (وبعض الناس ينكر نسبته إلى علي بن أبي طالب). إلا أننا لن نطيل الحديث حول هذه القضية).

(٣) ويقال لها أيضاً كيلان وجيل، وهي بلاد متفرقة من وراء طبرستان، وجاء في القاموس الإسلامي جـ١ ص٦٦٧.

أبو أحمد عبد الله أصغر منه سناً، نشأ في العلم والخير ومات بجيلان، وعمته الصالحة أم عائشة استسقى بها أهل جيلان فلم يسقوا، فكنست رحبة بيتها وقالت: يا رب كنست رحبة بيتي فرش أنت، فمطروا كأفواه القرب)[(١)].

ألقاب الجيلاني:

أما الألقاب التي أطلقت على الجيلاني فكثيرة، منها الإمام، والإمام الرباني، وشيخ الإسلام، وأطلق عليه الصوفية ألقاباً كثيرة منها القطب[(٢)] والغوث والباز الأشهب[(٣)]، ولقب أيضاً بمجمع الفريقين وموضح الطريقتين، وكريم الجدين، ومعلم العراقين[(٤)]، وشيخ العصر، وقدوة العارفين، وسلطان المشايخ وسيد أهل الطريقة[(٥)].

= جيلان: (إقليم فارسي (إيراني) يقع في الجنوب الغربي لبحر قزوين، ويرويه نهر يعرف بهذا الاسم، وتقع بالقرب من مصبه مدينتا رشت وبهلوي، اشتق اسم جيلان من الجيالي بمعنى الوحل لكثرة المستنقعات التي تغمر الإقليم، تردد اسم جيلان في كثير من الأحداث التاريخية التي جرت في الإقليم، النسبة إليها جيلاني أو كيلاني، وهو لقب كثير من المشاهير. تقرأ GILAN.

(١) شذرات الذهب ٤: ١٩٩.

(٢) القطب: قال ابن الحاج في المدخل: (القطب واحد، وصفته أن الله تعالى يديره في الآفاق الأربعة من أركان الدنيا كدوران الفلك في أفق السماء، وقد سترت أحوال الغوث وهو القطب عن العامة والخاصة غيرة من الله عليه). وذهب قوم من الصوفية أن مرتبة القطبانية ثقيلة جداً قل أن يقيم فيها أحد أكثر من ثلاثة أيام، وقال آخرون: هي كغيرها من الولايات يقيم فيها صاحبها ما شاء الله ثم ينعزل، وقال الخواص: والذي أقوله ويساعده الوجدان أنها ليس لها مدة معينة، وأن صاحبها لا ينعزل إلا بالموت، ووصف ابن عربي الأبدال بغير ما يصفهم به غيره، يقول: وهم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة، لكل منهم إقليم فيه ولايته، وهم عارفون بما أودع الله في الكواكب السيارة من الأمور والأسرار في حركاتها ونزولها في المنازل المقدرة، ولهم من الأسماء أسماء الصفات.

ويقول: وسمي هؤلاء أبدالاً لكونهم إذا فارقوا موضعاً ويريدون أن يخلفوا به بدلاً منهم في ذلك الموضع لأمر يرون فيه مصلحة وقربة يتركون شخصاً على صورتهم، لا يشك أحد ممن أدرك رؤية ذلك الشخص أنه عين ذلك الرجل، وليس هو بل روحاني يتركه بدلاً بالقصد، على علم منه، وما قاله ابن عربي والصوفية في القطب فيه نظر.

انظر: محمد المبارك: في التصوف ص٣٦ وهامشها.

(٣) الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية. ط١ ـ ١٤١٨هـ، ص٢٨، ٢٩.

(٤) شذرات الذهب ٤: ١٩٩.

(٥) الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ٢٩٠.

قال عنه الذهبي في ترجمته: (الشيخ، الإمام، العالم، الزاهد، العارف، شيخ الإسلام، وعلم الأولياء، ومحيي الدين).

كما وصفه ابن رجب في ذيل الطبقات ـ طبقات الحنابلة ـ بأنه شيخ العصر، وقدوة العارفين، وسلطان المشايخ، صاحب المقامات والكرامات، والعلوم والمعارف.

وكان الشيخ علي بن الهيتي، رضي الله عنه، يقول عن الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه: (كان قدمه على التفويض والموافقة من التبري من الحول والقوة، وكانت طريقته تجريد التوحيد وتوحيد التفريد، مع الحضور في موقف العبودية لا بشيء ولا لشيء).

وكان الشيخ عدي بن مسافر رضي الله عنه يقول: كان الشيخ عبد القادر رضي الله عنه طريقته الذبول تحت مجاري الأقدار بموافقة القلب والروح واتحاد الباطن والظاهر، وانسلاخه من صفات النفس مع الغيبة عن رؤية النفع والضرر والقرب والبعد. وكان الشيخ بقاء بن بطور رضي الله عنه يقول: كان طريق الشيخ عبد القادر رضي الله عنه اتحاد القول والفعل والنفس والوقت ومعانقة الإخلاص والتسليم وموافقة الكتاب والسنة في كل نفس وخطرة ووارد وحال الثبوت مع الله عزّ وجلّ)[(١)].

ولادته ووفاته:

ولد الشيخ عبد القادر الجيلاني في بلدة جيلان سنة سبعين وأربعمائة هجرية (٤٧٠هـ)، وقيل: إنه ولد سنة إحدى وسبعين وأربعمائة للهجرة. وتوفي في ليلة السبت الثامن من ربيع الآخرة سنة إحدى وستين وخمسمائة، وله تسعون سنة، ودفن بالمدرسة التي كانت له، وشيعه خلق لا يحصون.

وقد ذكر صاحب شذرات الذهب أنه توفي بعد عتمة ليلة السبت عاشر ربيع الآخر، وفرغ من تجهيزه ليلاً (وصلى عليه ولده عبد الوهاب في جماعة من حضر من أولاده وأصحابه وتلامذته، ثم دفن في رواق مدرسته، ولم يفتح باب المدرسة حتى علا النهار وأهرع الناس للصلاة على قبره وزيارته وكان يوماً مشهوداً)[(٢)].

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ١: ١١٠.
(٢) شذرات الذهب ٤: ٢٠٢.

والد الجيلاني

مات أبو صالح، موسى بن عبد الله، (الجيلي) والد الشيخ عبد القادر الجيلاني، وتركه في سن الصبا، فعاش عبد القادر في كفالة جده لأمه الشيخ أبي عبد الله الصومعي الحسيني[١].

ام الجيلاني

أمه رضي الله عنها هي: أم الخير، أمة الجبار، فاطمة بنت أبي عبد الله الصومعي، الحسيني، وقد كان لها قدم في الطريق الصوفي. وقد حكي عنها أنها قالت: (لما وضعت ولدي عبد القادر، كان لا يرضع ثديه في نهار رمضان، ولقد غم الناس هلال رمضان، فأتوني وسألوني عنه؟ فقلت لهم: إنه لم يلتقم اليوم له ثدياً. ثم اتضح أن ذلك اليوم كان رمضان)[٢].

وقد اعتبر الدكتور محمد غلاب في كتاب التنسك الإسلامي ما نسب إلى الجيلاني من ترك الرضاع والانقطاع عنه في رمضان خرافة سجلتها أخيلة الأتباع والحيران.

إخوان الجيلاني

كان للشيخ عبد القادر الجيلاني أخ واحد هو عبد الله، وقد كان يصغر عبد القادر في سنه، وقد مات عبد الله بن أبي صالح هذا في سن الشباب في جيلان، التي ولد ونشأ بها[٣].

اولاد الشيخ عبد القادر الجيلاني

قال أبو حامد الغزالي: (وسمعنا أن الشيخ عبد القادر الجيلي قال له بعض الصالحين: لم تزوجت؟ فقال: ما تزوجت حتى قال لي رسول الله ﷺ: تزوج. فقال له ذلك الرجل: الرسول ﷺ يأمر بالرخص وطريق القوم التلزم بالعزيمة. فلا أعلم ما قاله الشيخ في جوابه. ولكني أقول: رسول الله ﷺ يأمر بالرخصة وأمره على لسان

---

(١) نظرات في التصوف الإسلامي للشيخ الحفيان السوداني (عبد المحمود بن الشيخ الجيلي) جـ ١ ص٣٩٣.

(٢) الطبقات الكبرى ١ : ١٠٨ وانظر أيضاً ما ذكره الشطنوفي في بهجة الأسرار عن أم الجيلاني.

(٣) نظرات في التصوف الإسلامي ١ : ٣٩٣.

الشرع. . .)[١]. وقد تزوج الشيخ عبد القادر الجيلاني أكثر من زوجة ورزق بعدد من البنين والبنات فقد كان للشيخ الجيلاني من الأولاد تسعة وأربعون ولداً، سبعة وعشرون ذكوراً والباقي بنات.

قال ابن العماد الحنبلي في كتابه شذرات الذهب في أخبار من ذهب: قال ابن النجار: سمعت عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر يقول: ولد والدي تسعاً وأربعين ولداً، سبع وعشرون ذكوراً والباقي إناث[٢]. ومن أشهر أولاده عبد الرزاق بن عبد القادر الشيخ المحدث الفقيه الزاهد العابد الحنبلي الذي ولد سنة ٥٢٨هـ وتوفي سنة ٦٠٣هـ.

وعبد الوهاب بن عبد القادر الجيلاني، الشيخ، المحدث، الفقيه، الحنبلي، الذي ولد سنة ٥٢٢هـ وتوفي سنة ٥٩٣هـ، وقد ذكره ابن العماد الحنبلي في وفيات سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وقال: (وفيها أبو محمد عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر بن أبي صالح الجيلي، ثم البغدادي، الأزجي الفقيه الحنبلي، الواعظ، ولد في ثاني شعبان سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة. ذكر أبو شامة أنه سمع من ابن الحصين وابن السمرقندي. وذكر ابن القادسي أنه سمع من ابن الحصين وابن الزعفواني وابن البنا وغيرهم، وأسمعه والده في صباه من أبي غالب بن البنا وغيره. وقرأ الفقه على والده حتى برع ودرس نيابة عن والده بمدرسته، وهو حي، وقد نيف عن العشرين من عمره، ثم استقل بالتدريس بها بعده ثم نزعت منه لابن الجوزي، ثم ردت إليه، وتولى المظالم للناصر سنة ثلاث وثمانين، وكان كيساً ظريفاً من ظرفاء أهل بغداد، ولم يكن في أولاد أبيه أفقه منه، كان فقيهاً فاضلاً، له كلام حسن في مسائل الخلاف، فصيحاً في الوعظ وإيراد الملح، مع عذوبة الألفاظ، مليح النادرة، ذا ملح ودعابة وكياسة، قال أبو شامة: (قيل له يوماً على مجلس وعظه: ما تقول في أهل البيت؟ فقال: قد أعموني. وكان أعمش أجاب عن بيت نفسه).

وروى ابن الغزال الواعظ وابن خليل وغيرهما. توفي في ليلة الأربعاء خامس عشر من شوال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة[٣].

---

(١) إحياء علوم الدين، ط. دار الهادي بيروت، لبنان ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ٥: ١٧٠.
(٢) شذرات الذهب ٤: ٢٠٢.
(٣) شذرات الذهب ٤: ٣١٤.

شيوخ الجيلاني

للشيخ عبد القادر الجيلاني شيوخ كثيرون أخذ عنهم العلم، وقد أشار الدكتور سعيد بن مسفر بن مفرح القحطاني إلى بعض شيوخه في الحديث والقرآن والتصوف والفقه وأصوله، وترجم لهم ترجمات مختصرة في كتابه الذي صنفه عن الشيخ عبد القادر الجيلاني، ومن شيوخ الجيلاني في المذهب أو الفقه والأصول، أبو الخطاب محفوظ بن أحمد بن الحسن بن أحمد الكلوذاني[١]، وأبو سعيد المبارك بن علي المخرمي[٢]، وأبو الوفاء علي بن عقيل بن عبد الله[٣]، وأبو الحسين محمد بن القاضي أبو يعلى.

ومن شيوخه الذين سمع منهم الحديث أبو محمد بن جعفر بن أحمد البغدادي المولود سنة ٤١٧هـ والمتوفى سنة ٥٠٠هـ[٤]، وأبو القاسم علي بن أحمد بن محمد بن بيان البغدادي المولود سنة ٤١٣هـ والمتوفى سنة ٥١٠هـ[٤]، وأبو عبد الله يحيى بن الإمام أبو علي الحسن ابن أحمد بن البنا البغدادي الحنبلي المولود سنة ٤٣٥هـ والمتوفى سنة ٥٣١هـ[٤].

وأبو غالب محمد بن الحسن الباقلاني، وأبو سعد محمد بن عبد الكريم، وأبو الغنايم محمد بن علي بن ميمون، وأبو بكر أحمد بن المظفر التمار، وأبو عثمان

---

(١) أبو الخطاب محفوظ بن أحمد بن الحسن بن أحمد الكلوذاني أبو طالب البغدادي، الفقيه الحنبلي المولود سنة ٤٣٥هـ والمتوفى سنة ٥١٠هـ، من مصنفاته كتاب الهداية وكتاب رؤوس المسائل وكتاب أصول الفقه.
انظر ترجمته في: القحطاني: مصدر سابق ص٣٨
شذرات الذهب لابن العماد (٤/ ٢٧)
سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٤٨)

(٢) أبو سعيد: المبارك بن علي المخرمي شيخ الحنابلة في زمنه، مات سنة ٥١٣هـ،
القحطاني: مصدر سابق ص٣٨.

(٣) أبو الوفاء علي بن عقيل بن عبد الله البغدادي ولد سنة ٤٣١هـ وتوفي سنة ٥١٣هـ، انظر ترجمته في:
القحطاني: مصدر سابق ص٣٩
سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٤٧
شذرات الذهب ٤/ ٣٥
الذيل على الطبقات لابن رجب ١/ ١٤٢.

(٤) انظر ترجمتهم في كتاب القحطاني ص٤٣.

إسماعيل بن محمد الأصبهاني، وقرأ الأدب على أبي زكريا يحيى التبريزي، ومن شيوخه في التصوف حماد الدباس.

يقول الذهبي في السير: قال ابن النجار في تاريخه (دخل الشيخ عبد القادر بغداد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، فتفقه على ابن عقيل، وأبي الخطاب، والمخرمي، وابن الحسين بن القراء حتى أحكم الفروع والأصول، والخلاف، وسمع الحديث، وقرأ الأدب على أبي زكريا التبريزي، واشتغل بالوعظ إلى أن برز فيه، ثم صحب الدباس ولازم الخلوة والرياضة والمجاهدة والسياحة والمقام في الخرائب والصحراء)[١].

حماد الدباس:

من شيوخ الجيلاني في التصوف الشيخ حماد الدباس، وهو حماد بن مسلم بن دوُّه الدباس، أبو عبد الله، الرحبي، الزاهد بلقب جده مالك بن طوق بالرحبي، وقد اشتهر حماد الدباس بكنيته ونسبة جده فكان مشهوراً في بغداد بأبي عبد الله الرحبي.

وقد ذكر معظم من ترجم له أنه عرف بالدباس لأنه كان يمتلك معملاً للدبس، وهذا ليس صحيحاً، فقد بين الشيخ الحفيان في كتابه نظرات في التصوف أن سبب شهرة الدباس بالدباس أنه كان يسكن في غرفة يصنع ويباع فيها الدِّبس، ولم يكن حماد من بائعي الدبس أو صانعيه، فهي نسبة مقر، ويشبه ذلك منسبة الممر للقرافي، فقد كان الإمام شهاب الدين، ابن العباس، أحمد بن إدريس الصنهاجي موطناً، المالكي مذهباً، صاحب كتاب الفروق المشهور في القواعد الفقهية، يمر حين طلبه العلم في الأزهر بالقرافة ـ مقبرة القاهرة المشهورة ـ فنسب للقرافة لأنه كان يمر بها، ويقال إن شيخه كان يرصد تلاميذه ولم يكن يحفظ اسم أحمد بن إدريس فنسبه إلى القرافة بتخفيف الراء وفتح القاف، فقال القرافي حيث نسبه إلى ممره، وقد نسب الدباس إلى مقره وقد يخطئ من نسبه إلى بيعه الدبس. يقول الذهبي رحمه الله في ترجمة الشيخ حماد الدباس (نشأ ببغداد، وكان من أولياء الله أولي الكرامات، انتفع بصحبته خلق، وكان يتكلم على الأحوال، كتبوا من كلامه نحواً من مائة جزء، وكان أمياً قليل العلم، وكان يتكلم على آفاق الأعمال والإخلاص والورع، وقد جاهد نفسه

---

(١) نظرات في التصوف ص٣٩٩.

بأنواع المجاهدات وزاول أكثر المهن والصنائع في طلب الحلال، وكان مكاشفاً)[1]، (له أصحاب وأتباع وأحوال وكرامات، دونوا كلامه في مجلدات، وكان شيخ العارفين في زمانه، وكان ابن عقيل يحط عليه ويؤذيه[2]، قاله في العبر، وقال السخاوي: كان قد سافر وتغرب، ولقي المشايخ، وجاهد نفسه بأنواع المجاهدات وزاول أكثر المهن والصنائع في طلب الحلال والتورع في الكسب والتحري، ثم فتح له بعد ذلك خير كثير، وأملى في الآداب والأعمال والعلوم المتعلقة بالمعرفة وتصحيح المعاملات شيئاً كثيراً، وكان كأنه مسلوب الاختيار، مكاشفاً بأكثر الأحوال ومن كلامه: انظر إلى صنعه تستدل عليه، ولا تنظر إلى صنع غيره فتعمى عنه، اللسان ترجمان القلب والنظر، فإذا زال ما في القلب والنظر من الهوى كان نطقه حكمة. والحساب على أخذك من ماله وهو الحلال، والعقاب على أخذك من مالهم وهو الحرام. وقال ـ رضي الله عنه ـ من هرب من البلاء لا يصل إلى باب الولاء، وقال: ما لأحد في مأكول على منة فإني بالغت في طلب الرزق الحلال بكد يميني، وعملت في كل شيء إلا ما كنت غلاماً لقصاب ولا لوقاد ولا لكناس، فإن هذه الحرف تؤدي إلى إسقاط المروءة)[3].

ومن كلامه: القلوب ثلاثة، قلب يطوف في الدنيا، وقلب يطوف في الآخرة، وقلب يطوف في المولى، لا بالمولى، فمن طاف بالمولى تزندق، وكان يقول: طهر قلبك باليقين لتجري فيه الأقدار، وكان يقول: أقرب الطرق إلى الله تعالى حبه، ولا يصفو حبه حتى يبقى المحب روحاً بلا نفس، وما دام له نفس لا يذوق قط محبة الله تعالى أبداً، وكان يقول: أزل الهوى من القدر تعرف، وأزل الهوى من الخلق وأمر تخلص، وعلى قدر ما عندك من الأمر تسلم، وبقدر ما عندك من القدر تعرف.

وكان رضي الله عنه يقول: لا توجد هواك في وجدك تكن موحداً، ولا مرادك في تدبيره تكن فانياً، ولكن إن دعاك أجب، وإن وعدك توكل، وإن قدر عليك استسلم،

---

(١) نظرات في التصوف ص٣٩٨، وقال ابن الجوزي في المنتظم ١/ ٢٣ (كان يتصوف ويدعي المعرفة والمكاشفة وعلم الباطن).

(٢) قال الشيخ الحفيان صاحب كتاب نظرات في التصوف: نقم ابن الأثير صاحب الكامل، وسبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان موقف ابن عقيل، وكان سيئ الظن في الشيخ حماد الدباس، وعظما حماداً رحمه الله).، نظرات في التصوف ص٣٩٩.

(٣) انظر: شذرات الذهب ٤/ ٧٣ وما بعدها. نظرات في التصوف ص٣٩٩.

فإن قال لك اختر، قل: فوضت، وإن قال لك: اطلب، قل، صدقت، وإن قال لك: اعبدني، قل: وفقني، وإن قال لك: وحدني، قل: اجذبني، فإن جاءت المعرفة صارت أفعالاً ربانية، وزالت الأكوان، وصرت في القبضة صاحب قلب، لا يكون لك شيء إلا به عزّ وجلّ، وما كان به كان له، وما كان بك كان لك، فبالإيمان، تشتغل عن أقسام الدنيا لأن فيه تصديقه، وبالعلم تشتغل عن أقسام الأخرى لأن فيه معرفته، وبالمعرفة تشتغل عن الكل، حيث كنت، لأنه معك في حين معرفتك على قدرك)[١].

ومن كلامه: (إذا أحب الله عبداً أكثر همه فيما فرط، وإذا أبغض عبداً أكثر همه فيما قسمه له).

وقال: (العلم محجة فإذا طلبته لغير الله صار حجة).

توفي رحمه الله في ليلة السبت الخامس من شهر رمضان سنة خمس وعشرين وخمسمائة، ودفن في الشونيزية.

سبب صحبة الشيخ عبد القادر للشيخ حماد الدباس:

ساق بعض كتاب التراجم في سيرة حماد الدباس خبراً على لسان الشيخ عبد القادر الجيلاني يبين من خلاله سبب صحبة الشيخ عبد القادر للشيخ حماد الدباس، ونقل الشيخ الحفيان في كتابه نظرات في التصوف هذا الخبر، والخبر فيه نظر وأثبته هنا لمجرد إثباته[٢].

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: (وقع في نفسي أن أخرج من بغداد لكثرة الفتن[٣]، فخرجت إلى باب الحلبة، فقال لي قائل إلى أين تمشي؟ ودفعني دفعة فررت منها، وقال: ارجع فإن للناس فيك منفعة، قلت: أريد سلامة ديني، قال: لك ذاك،

---

(١) الطبقات الكبرى ١: ١١٦.

وقال الشعراني في طبقاته عن الشيخ حماد الدباس: (هو أحد العلماء الراسخين في علوم الحقائق، انتهت إليه رئاسة تربية المريدين، وانعقد عليه الإجماع في الكشف عن مخفيات الموارد، وانتهى إليه معظم مشايخ بغداد وصوفيتهم في وقته، وهو أحد من صحب الشيخ عبد القادر ـ رضي الله عنه ـ وأثنى عليه وروى كراماته).

(٢) نظرات في التصوف ص٤٠٠، ٤٠١.

(٣) يقصد بالفتن ما قام من صراع بين الإخوة السلاجقة على السلطنة.

ولم أر شخصه، ثم بعد ذلك طرقتني الأحوال، فكنت أتمنى من يكشفها لي فاجتزت بالظفرية[1]، ففتح رجل داره وقال: يا عبد القادر أيش طلبت البارحة؟ فنسيت، فسكتُ، فاغتاظ ودفع الباب في وجهي دفعة عظيمة فلما مشيت ذكرتُ، فرجعت أطلب الباب فلم أجده، وكان حماداً الدباس، ثم عرفته بعد، وكشف لي جميع ما كان يشكل علي، وكنت إذا غبت عنه لطلب العلم وجئت يقول: إيش جاء بك إلينا، أنت فقيه مر على الفقهاء، وأنا أسكت فلما كان يوم الجمعة، وكنت وجماعة في مجلسه، فخرجت مع الجماعة في شدة البرد، فدفعني - يعني الشيخ حماد الدباس وألقاني في الماء، فقلت في نفسي: غسل يوم الجمعة، بسم الله، وكان عليَّ جبة صوف، وفي كمي أجزاء مما كنت أكتبه في مجلسه من كلامه، فرفعت كمي لئلا تهلك الأجزاء، والجماعة قد خلوني ومشوا، فعصرت الجبة وتبعتهم، وتأذيت بالبرد كثيراً، وكان الشيخ حماد الدباس يؤذيني ويضربني!! وإذا جئت يقول: جاءنا الخبز الكثير والفالوذج وأكلنا ولم نترك لك شيئاً - يوحشني بذلك - فطمع في أصحابه وقالوا: أنت فقيه! أيش تعمل معنا؟ وأخذوا يؤذونني، فلما رآهم يؤذونني غار لي وقال: يا كلاب لم تؤذونه؟! والله ما فيكم مثله! وإنما أوذيه لأمتحنه، فأراه جبلاً لا يتحرك. ثم بعد مدة قدم إلى رباط الدباس رجل من همذان يقال له يوسف الهمذاني، وكان يقال: إنه القطب، فنزل الرباط فمشيت إليه فلم أره، وقيل لي: هو في السرداب، فنزلت إليه فلما رآني قام وأجلسني وذكر لي جميع أحوالي يكاشفني بذلك، وحل لي المشكل علي، ثم قال لي: تكلم على الناس فقلت له يا سيدي أنا رجل أعجمي قح أخرس أأتكلم على فصحاء بغداد؟ فقال لي: أنت حفظت الفقه وأصوله، والخلاف (فروع الفقه) والنحو واللغة وتفسير القرآن ألا يصلح لك أن تتكلم! اصعد إلى الكرسي وتكلم فإني أرى فيك عذقاً سيصير نخلة)[2].

---

(١) الظفرية محلة تقع في الجانب الشرقي من بغداد.

(٢) نظرات في التصوف ص٤٠٠، ٤٠١.

تلاميذ الشيخ عبد القادر الجيلاني

ترك الشيخ عبد القادر الجيلاني آلاف التلاميذ والمريدين، الذين انتشروا في أنحاء العالم الإسلامي كاليمن وسوريا ومصر والهند والسودان وتركيا، وغير ذلك من بلدان العالم الإسلامي، وكون المريدون فروعاً للطريقة القادرية[١]، ولا نعني بحديثنا عن تلاميذه هذه الجماعات أو الفرق، وإنما نعني الذين تتلمذوا عليه مباشرة، فقد تفقه على يديه آلاف التلاميذ، وبرز منهم عدد كبير، فقد ذكر الدكتور سعيد بن مسفر بن مفرح القحطاني في كتابه عن الشيخ عبد القادر أن ابن الجوزي في كتابه المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لم يذكر تلاميذ الجيلاني بتفصيل، وإنما أشار إلى إقبال الناس عليه، وعلى مجالس علمه، وقد ذكر الشطنوفي الذي كتب عن مناقب الجيلاني مائة وسبعة عشر اسماً ممن تتلمذوا على الجيلاني، وأورد الذهبي في سير أعلام النبلاء أسماء عدد منهم. ومن أشهر تلاميذ الجيلاني:

أ ـ موفق الدين، أبو محمد، عبد الله بن أحمد، المقدسي.

ب ـ شهاب الدين، عمر بن محمد، أبو حفص، المتوفى سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٤)م.

جـ ـ القاضي أبو المحاسن، عمر بن علي بن الخضر.

---

(١) يوجد حالياً بجمهورية مصر العربية فرعان، هما القادرية القاسمية والقادرية الفارضية، ويوجد بالسودان عدد كبير من فروع الطريقة القادرية التي وردت من خارج السودان بأذكارها وأورادها، وقد أضاف شيوخ تلك الفروع للطريقة القادرية الكثير، بل بدل بعضهم تيتار الجيلاني بتيار آخر، ومذهبه الفقهي بمذهب آخر.
لمعرفة المزيد انظر:
أ ـ الطاهر محمد علي (دكتور): الأدب الصوفي السوداني، ط١. الخرطوم ١٣٩٠هـ ص٣٣ وما بعدها. منشورات دار الفكر والدار السودانية.
ب ـ بحث الأستاذ الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتزاني بعنوان الطرق الصوفية في مصر، مجلة الآداب بجامعة القاهرة ١٩٦٨م، م٢٥، جـ٢، ص٧٢.
ج ـ رسالة الماجستير التي كتبها الأستاذ الدكتور حسن محمد الفاتح ـ شيخ الطريقة السمانية بالسودان ـ عن الطرق الصوفية ـ مكتبة جامعة الخرطوم.
د ـ الحفيان: نظرات في التصوف، الجزء الأخير من الكتاب.

د ـ تقي الدين، أبو محمد، عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي[١].

أ ـ موفق الدين، أبو محمد، المقدسي:

الشيخ الإمام موفق الدين، أبو محمد، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر بن عبد الله، المقدسي، ثم الدمشقي، الصالحي، صاحب المغني، الفقيه الحنبلي، تتلمذ على الشيخ عبد القادر ثم على الشيخ ابن الجوزي، له كتاب المغني والكافي والمقنع[٢] والعمدة، ولد عام ٥٤١هـ وتوفي عام ٦٢٠هـ.

قال الدكتور محمد يوسف الشربجي[٣] في ترجمته لابن قدامة في تقديمه لكتابه الوصية المباركة الذي حققه ونشرته دار الكلم الطيب بدمشق[٤]: (هو الشيخ الزاهد، الفقيه، الإمام، القدوة، العلامة، المجتهد، شيخ الإسلام، وأحد الأئمة الأعلام، موفق الدين، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر المقدسي الجماعيلي، ثم الدمشقي، الصالحي، الحنبلي، صاحب المغني، أبو محمد، لم يكن في عصره، بل ولا قبل دهره بمدة أفقه منه).

ولد في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمئة بجماعيل، وهاجر به والده وبأخيه الشيخ أبي عمر محمد وأهلهم إلى دمشق، لاستيلاء الفرنج على الأرض المقدسة، وكان له من العمر عشر سنين، فنزلوا بمسجد أبي صالح ظاهر باب شرقي فأقاموا به مدة نحو سنتين، ثم انتقلوا إلى الجبل، ونشأ على سمت أخيه وأبيه في الخير والعبادة، فحفظ القرآن وهو صغير، وغلب عليه الاشتغال بالفقه والعلم، وسمع من أبيه سنة نيف

---

(١) انظر القحطاني (دكتور): مرجع سابق، ص٤٥. التصوف في الإسلام، ط للدكتور عمر فروخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ص٨٣.

(٢) المقنع مختصر في الفقه الحنبلي، ألفه الإمام أبو القاسم، عمر بن الحسين بن عبد الله بن أحمد، الخُرقي وقد شرح الإمام موفق الدين هذا الكتاب.
انظر: الحفيان: نظرات في التصوف ص٣٩٥.

(٣) مدرس التفسير بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة الإمارات العربية المتحدة في عام ١٩٩٩م وما بعدها، كان مدرساً بجامعة دمشق، وقد تم انتدابه للإمارات في سبتمبر ١٩٩٨م، سوري الجنسية.

(٤) الكتاب مراجعة فضيلة الأستاذ سعدي أبو جيب وتقديم فضيلة الشيخ عبد القادر الأرناؤوط والطبعة الأولى منه في عام ١٩٩٦م.

وخمسين، وكان والده الإمام أبو العباس أحمد بن محمد بن قدامة من أهل العلم والفضل والصلاح والزهد، وكان قبل هجرتهم إلى دمشق خطيب جماعيل.

رحلاته وتلقيه للعلوم:

ثم إن الإمام موفق جدّ واجتهد في طلب العلم، والأخذ عن مشايخ الشام حتى بلغ نحو العشرين من عمره، فسافر إلى بغداد مدينة السلام، وصَحبه في هذه الرحلة الإمام الحافظ عبد الغني، فنزلا في مدرسة الإمام العبد الصالح الشيخ عبد القادر الجيلاني، فلقيا منه غاية الإكرام والعناية التامة في التعليم والتفهيم، ولكنه توفي رحمه الله فلم يدركا منه إلا أربعين يوماً وكان الموفق يقرأ على الشيخ عبد القادر في (متن أبي القاسم الخرقي) والحافظ يقرأ في الهداية لأبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني، وبعد موت الشيخ عبد القادر لزم الموفق بعد ذلك فقيه العراق ناصح الإسلام أبا الفتح نصر بن فتيان الشهير بابن المنى(١).

مصنفات ابن قدامة:

قال الدكتور الشربجي: (والموفق رحمه الله لما استقر بدمشق أقبل بجد واجتهاد على نشر العلم تدريساً، وتأليفاً في فنون كثيرة، وانتفع بتصانيفه المسلمون عموماً، وأهل المذهب خصوصاً، واشتهرت بحسن قصده وإخلاصه في تصنيفها فمنها:

١ـ الاعتقاد (جزء) وقد طبع بتحقيق محمد الزيني في القاهرة سنة ١٩٥٢م.

٢ـ الاستبصار في نسب الأنصار (مجلد) مطبوع بتحقيق نويهض، دار الفكر بيروت.

٣ـ البرهان في مسألة القرآن (جزء) وفي الوافي (جزءان).

٤ـ التوابين مجلد صغير طبع بتحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط....

٥ـ التبيين في نسب القرشيين (مجلد)، تحقيق نايف الديلمي ط٢ بيروت عالم الكتب ١٩٨٨م.

٦ـ تحريم النظر في كتب أهل الكلام.

---

(١) الوصية المباركة ص٢٣ـ ٢٥.

٧ـ الخلاف بين العلماء (قيل: إنه في عشرين مجلداً).

٨ـ ذم التأويل (جزء).

٩ـ ذم الوسواس. طبع في القاهرة في المكتبة العربية ١٩٢٣م.

١٠ـ رسالة إلى الشيخ فخر الدين ابن تيمية في عدم تخليد أهل البدع في النار.

١١ـ الرقة والبكاء (مجلد صغير).

١٢ـ الروضة في أصول الفقه (مجلد)، طبع في بيروت، دار الكتاب العربي ١٩٨١م.

١٣ـ الشافي (في مجلدين).

١٤ـ صفة الفلق.

١٥ـ العمرة، طبع في القاهرة ١٩٨٣م، وفي دمشق ١٩٩٠م في الدار المتحدة بتحقيق إيمان زهراء وثناء الهواري.

١٦ـ فضائل الصحابة.

١٧ـ فضل العشر.

١٨ـ القدر.

١٩ـ قنعة الأريب في الغريب.

٢٠ـ الكافي في الفقه.

٢١ـ المغني في الفقه.

٢٢ـ مختصر العلل للخلال.

٢٣ـ مختصر الهداية.

٢٤ـ المقنع.

٢٥ـ كتاب المتحابين في الله.

٢٦ـ مسألة العلو.

٢٧ـ مشيخته.

٢٨ـ مقدمة في الفرائض.

٢٩ـ منهاج القاصدين في فضائل الخلفاء الراشدين.

٣٠ـ الوصية المباركة[١].

يقول الإمام الموفق ابن قدامة المقدسي فيما أورده ابن رجب في طبقات الحنابلة[٢]: (دخلنا بغداد سنة إحدى وستين وخمسمائة، فإذا بالشيخ عبد القادر الجيلاني ممن انتهت إليه الرئاسة بها علماً، وعملاً، وحالاً، واستفتاءً، وكان يكفي طالب العلم عن قصد غيره، وذلك من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم، والصبر على المشتغلين، وسعة الصدر، وكان ملء العين، وجمع الله فيه أوصافاً جميلة، وأحوالاً عزيزة، ما رأيت بعده مثله)[٣].

ب ـــ شهاب الدين، أبو حفص، عمر بن محمد:

المتوفى سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٤)م وكان (فقيهاً صوفياً ورعاً زاهداً من تلاميذ عبد القادر الجيلاني، سلك طريقة الرياضة والمجاهدات ولازم الخلوات وداوم الصوم والذكر والعبادة، وللسهروردي أبي حفص كتاب عوارف المعارف في آداب السالك في طريق الصوفية وما يجب عليه أن يلم به من علومهم وأحوالهم وكان يهاجم الفلسفة)[٤].

وكان ابتعاده عن علم الكلام بسبب ما حدث له مع شيخه عبد القادر الجيلاني من مكاشفة الجيلاني لما يدور في داخله من حب الاطلاع على كتب القشيري وإمام الحرمين الجويني ونصيحته له بأن يبتعد عن كتب علم الكلام لأنها ليست من زاد القبر.

جـ ـــ أبو محمد المقدسي:

هو تقي الدين، أبو محمد، عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور، المقدسي، العالم، الحافظ، الصادق، القدوة، العابد. . . ، مات سنة ٦٠٠هـ، وهو ابن أخت موفق الدين بن قدامة المقدسي، وكان في صحبة خاله في رحلته إلى بغداد سنة إحدى وستين وخمسمائة[٥].

---

(١) الوصية المباركة ص٢٩ـ ٣١.

(٢) طبقات الحنابلة ١: ٢٩٣.

(٣) نظرات في التصوف ص٣٩٥.

(٤) التصوف الإسلامي للدكتور عمر فروخ ص٨٣.

(٥) انظر ترجمته في نظرات في التصوف ص٣٩٥، وشذرات الذهب ٤/ ٣٤٥، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٤٣، والذيل على الطبقات ٢/ ٥.

عبادة الجيلاني:

قال الشعراني: (.. وكان أبو الفتح الهروي رضي الله عنه يقول: خدمت الشيخ عبد القادر رضي الله عنه أربعين سنة، فكان في مدتها يصلي الصبح بوضوء العشاء، وكان كلما أحدث جدد في وقته وضوءه، ثم يصلي ركعتين، وكان يصلي العشاء ويدخل خلوته، ولا يمكن لأحد أن يدخل معه، فلا يخرج منها إلا عند طلوع الفجر، ولقد أتاه الخليفة يريد الاجتماع به ليلاً، فلم يتيسر له الاجتماع إلى الفجر، قال الهروي: وبت عنده ليلاً فرأيته يصلي أول الليل يسيراً، ثم يذكر الله تعالى إلى أن يمضي الثلث الأول يقول: المحيط، الرب، الشهيد، الحسيب، الفعال، الخلاق، الخالق، البارئ، المصور، فتتضاءل جثته[١] مرة وتعظم أخرى، ويرتفع في الهواء إلى أن يغيب عن بصري مدة[٢]، ثم يصلي قائماً على قدميه، يتلو القرآن إلى أن يذهب الثلث الثاني، كان يطيل سجوده جداً، ثم يجلس متوجهاً مشاهداً مراقباً إلى قريب طلوع الفجر، ثم يأخذ في الدعاء والابتهال والتذلل، ويغشاه نور يكاد يخطف الأبصار إلى أن يغيب فيه عن النظر، قال: وكنت أسمع عنده سلام عليكم، سلام عليكم، وهو يرد السلام إلى أن يخرج لصلاة الفجر)[٣].

مذهب الجيلاني الفقهي وتياره الفكري:

كان الشيخ عبد القادر الجيلاني حنبلياً، فقد ذكر ابن العماد الحنبلي أن ابن السمعاني قال عنه: (هو إمام الحنابلة وشيخهم في عصره) وكان سلفياً منتمياً إلى التيار السلفي الذي كان يمثله الإمام أحمد بن حنبل.

ذكر الشيخ أبو زكريا يحيى بن يوسف الصرصري الشاعر المعروف المشهور عن شيخه العارف علي بن إدريس أنه سأل الشيخ عبد القادر فقال: يا سيدي هل كان لله ولي على غير اعتقاد أحمد بن حنبل؟! فقال: ما كان ولا يكون[٤].

وقال ابن تيمية: (... وكذلك نقل الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردي، وحدثنيه عنه الشيخ عز الدين عبد الله بن أحمد بن عمر الفاروثي أنه سمع

---

(١) لعل الصحيح جسمه.

(٢) هذه المسألة فيها نظر، فالشيخ الجيلاني كان لا يسمح لأحد بدخول خلوته.

(٣) الطبقات الكبرى ج١ ص١١٠.

(٤) شذرات الذهب ٤ ك ٢١٠.

هذه الحكاية ووجدتها معلقة بخط الشيخ موفق الدين أبي محمد بن قدامة المقدسي، قال السهروردي: (كنت قد عزمت على أن أقرأ الإرشاد لإمام الحرمين أو نهاية الأقدام للشهرستاني أو كتاب شيخه فذهبت ومعي أبي نجيب[١]، وكان يصلي بجنب الشيخ عبد القادر قال: فالتفت الشيخ عبد القادر وقال لي يا عمر ما هو زاد القبر؟ ما هو من زاد القبر، فرجعت عن ذلك).

فأخبر أن الشيخ[٢] كاشفه[٣] بما كان في قلبه ونهاه عن الكلام الذي كان ينسب إليه القشيري ونحوه)[٤].

وواضح أن الشيخ عبد القادر لا يعني بقوله: (ما كان ولا يكون) المذهب الفقهي وإنما يعني العقيدة السلفية، ومما يؤكد لنا ذلك ما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية عن السهروردي، ومكاشفة الشيخ الجيلاني له، ونهيه له عن الخوض في مسائل علم الكلام لأنها ليست من زاد القبر.

والمذهب كما هو معروف اسم لما بانت به الفرق في المسائل الخلافية الفرعية العلمية، وليس فيه تأثيم أو تكفير أو تبديع أو تضليل أو لوم، فالفقهاء علماء توفرت فيهم شرائط الإمامة في الدين، وقد اجتهدوا في إطار النصوص، واستنبطوا لنا الأحكام الفقهية من الكتاب والسنة، وقد صنف ابن تيمية في بيان ذلك رسالته الشهيرة

---

(١) أبو نجيب السهروردي الصوفي السني المعروف، عم عمر السهروردي صاحب كتاب عوارف المعارف وصديق الشيخ عبد القادر الجيلاني، وأبو نجيب السهروردي هو عبد القاهر بن عبد الله ابن محمد البكري الصديقي فقيه شافعي ولد بسهرورد سنة ٤٩٠هـ وتوفي ببغداد سنة ٥٦٣هـ انظر ترجمته في:
وفيات الأعيان ٢/ ٣٧٣ـ ٣٧٤، طبقات الشافعية ٧/ ١٧٣ـ ١٧٥، الأعلام ٤/ ١٧٤.

(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني.

(٣) كاشف شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله وشهاب الدين هذا غير شهاب الدين السهروردي المقتول فالسهروردي المقتول كان صوفياً وفيلسوفاً مشاء (من أتباع أرسطو) مع تأثر واضح بالمذهب الإسكندراني (الأفلاطونية الحديثة)، وكان يعرف السيمياء ومن كتبه هياكل النور والتلويحات وحكمة الأشراف ورسالة الغربة الغريبة.
انظر. د. عمر فروخ: التصوف في الإسلام ص٨٢، وعمر من شيوخ الصوفية ومن أشهر كتبه عوارف المعارف، ولد بسنة ٥٣٩هـ وتوفي سنة ٦٣٢هـ انظر ترجمته في طبقات الشافعية ٥/ ١٤٣، ١٤٤.

(٤) الاستقامة ١ : ٨٧.

(رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، وقد بين هذه المسألة ـ أيضاً ـ الشيخ محمد بن يوسف أطفيش الإباضي في شرحه لكتاب النيل وشفاء العليل للشيخ عبد العزيز الثميني، وبينها عبد القاهر بن طاهر البغدادي الأشعري المتوفي سنة ٤٢٩هـ في كتابه (الفرق بين الفرق) في حديثه عن افتراق الأمة الإسلامية إلى فرق وبيانه للمراد بالفرق المذمومة في الحديث، فالفِرق المذمومة ليست هي مذاهب الفقهاء الذين اتفقوا على أصول الدين الثابتات القطعيات الخالدات التي لا تمحى ولا تنسخ ولا تبلى وإنما هي فرق القدرية والجهمية والمرجئة والرافضة والجبرية والحرورية وفروعهم، تلك الفرق التي تكلم عنها عبد الرحمن بن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس أو نقد العلم والعلماء والشهرستاني في الملل والنحل، وقد أخطأ عدد من المسلمين في تصنيفهم للشيخ عبد القادر الجيلاني مع الصوفية الفلاسفة، وقد جاء هذا الخطأ نتيجة لظنهم أو خلطهم بين عبد القادر الجيلاني وعبد الكريم الجيلي أو الجيلاني أو الكيلاني فعبد القادر الجيلاني فقيه حنبلي سلفي سني وعبد الكريم الجيلي هو عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي أو الجيلاني أو الكيلاني، ويتسلسل نسبه للشيخ عبد القادر الجيلاني، وقد ولد عبد الكريم في عام ٧٦٧هـ الموافق ١٣٦٥م، وله مصنفات في التصوف الفلسفي أشهرها كتاب الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، وله الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية والناموس الأعظم والقاموس الأقدم وله من الرسائل حقيقة اليقين ومراتب الوجود(١). وقد اهتم المستشرقون بعبد الكريم الجيلي وكتب عنه أساتذة الفلسفة الإسلامية الذين نالوا العلم في البلاد الغربية وتتلمذوا على أيدي المستشرقين أمثال الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوي(٢) الذي اهتم في بداية حياته

---

(١) انظر ترجمة عبد الكريم الجيلي في القاموس الإسلامي، وضع أحمد عطية، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، المجلد الأول ص٦٦٨.

(٢) اهتم الدكتور عبد الرحمن بدوي بالنصوص غير المنشورة لعبد الكريم الجيلي والسهروردي المقتول وغيرهما، ونشر هذه النصوص في كتابه الإنسان الكامل في الإسلام وتكلم عن بعض هؤلاء في كتابه شخصيات قلقة في تاريخ الإسلام، وقد اهتم المرحوم الأستاذ الدكتور محمد جلال أبو الفتوح شرف والمرحوم الأستاذ الدكتور محمد محمد علي أبو ريان بشيخ الأشراق وحققا الكثير من كتبه، وشيخ الأشراق هو السهروردي المقتول، ويعرف أتباعه بالإشراقيين وتعرف طريقته بنور بخشية، وفي كتابه هياكل النور (آراء مستمدة من إخوان الصفا وابن سينا) وفيه آراء مستمدة من أفكار الفرس منها أن الله نور بل نور الأنوار، وقد فاضت عنه الأنوار

=

بالنصوص غير المنشورة لعبد الكريم الجيلي والسهروردي المقتول والحلاج وأمثالهم، وأصبح ـ الآن ـ من المهتمين بالدفاع عن الإسلام، وصنف كتباً في هذا الصدد يشار إليها بالبنان، فجزاه الله خير الجزاء.

وقد كون الشيخ عبد القادر الجيلاني مدرسة أصبحت تمثل طريقة في التصوف سلفية الاتجاه، ويأخذ أتباعها ـ خاصة في الماضي ـ بالفقه الحنبلي في أدائهم للعبادات.

قال الدكتور مصطفى حلمي في كتابه (أعمال القلوب بين الصوفية وعلماء أهل السنة)، (أما الجيلاني فقد أضفى على الإمام أحمد الطابع الصوفي أيضاً فجعله الولي الحقيقي حيث سئل (هل كان لله ولي على غير اعتقاد أحمد بن حنبل؟ أجاب: ما كان وما يكون. ولهذا التقى الجيلاني الصوفي مع ابن قدامة الفقيه الحنبلي الشهير، أي اختفت الخصومة التقليدية بين الفقه والتصوف لأن الشيخين ينتميان إلى مدرسة واحدة، وأن هذا الالتقاء يعد أحد الأدلة المثبتة على أن المنهج السلفي خليق بالإبداع في مجال الأخلاق والمضمون الوجداني للإسلام أيضاً، حتى عد الجيلاني جنباً إلى جنب مع كبار شيوخ المذهب الحنبلي، فلم تلفظه المدرسة السلفية لاتجاهاته الصوفية، وإنما ضمته إلى دائرتها وفاخرت به المذاهب الأخرى.

يصفه موفق الدين بن قدامة فيقول: (لم أسمع عن أحد يحكى عنه من الكرامات أكثر مما يحكى عنه، ولا رأيت أحداً يعظمه الناس للدين أكثر منه، ويشيد ابن كثير بقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزهده، وأحواله الصالحة، ومكاشفاته وورعه وصلاحه)[1] وقال الشيخ علي بن الهيتي عن طريقة الشيخ عبد القادر: (وكانت

= القاهرة أو السائدة أو الحاكمة وفاضت منها الأنوار ويعرف العالم الأعلى بعالم النور والعالم الأسفل بعالم الظلام، عالم الرداءة.

قال الدكتور عمر فروخ عن كتاب هياكل النور: (ولكن يلمح في هذا الكتاب قول بإلهين اثنين: نور وظلمة أو خير وشر أو إله كامل وإله ناقص، أما في حكمة الإشراق فهو متأثر بالإشراق على ما عرف في المذهب الإسكندراني، ثم إنه يفسر كل شيء في الوجود المادي والعقلي على أساس هذا الإشراق).

التصوف الإسلامي لعمر فروخ ص٨٢.

(١) أعمال القلوب بين الصوفية وعلماء أهل السنة ط ـ دار الدعوة للطباعة والنشر، الاسكندرية، ط٢، ١٩٩٣م ص٣٩.

طريقته تجريد التوحيد، مع الحضور في موقف العبودية)[١]، وذكر الشيخ عدي بن مسافر[٢] عن خصائص الجيلانية أو القادرية ما نصه: (طريقته الذبول تحت مجاري الأقدار بموافقة القلب والروح، واتحاد الباطن والظاهر، وانسلاخه من صفات النفس)[٣].

وقيل عن الشيخ الجيلاني: (إن قوته في طريقه إلى ربه كقوى جميع أهل الطريق شدة ولزوماً، وكانت طريقته التوحيد وصفاً وحكماً وحالاً، وتحقيقه الشرع ظاهراً وباطناً، ووصفه قلب فارغ، وكون غائب، ومشاهدة رب حاضر بسريرة لا تتجاذبها الشكوك، وسر لا تنازعه الأغيار...)[٤].

وأخذ معظم أتباع الطريقة القادرية وفروعها في الشمال الإفريقي على وجه العموم والسودان على وجه الخصوص في التعبد بالفقه المالكي وأصبحوا يميلون لفكر الأشعري عندما كان وسطاً بين المعتزلة والسلف، وقبل أن يصبح من السلف، وتنكب بعض أتباع القادرية طريق الحق فخرجوا عن العقائد السنية، وأضافوا بعض البدع، والممارسات الصوفية، وقعدوا عن العمل، ومالوا إلى رفع البيارق فوق قبور الصالحين انتظاراً لامتلاء صندوق النذور بالدراهم، وهذا أمر مقيت لا يقبله الإسلام، وكذلك الهجوم على القرى واصطحاب الشيخ لمئات من المريدين من أتباعه لأمر يثقل كاهل المؤمنين التابعين للطريقة الصوفية.

قال الشيخ الحفيان: (... إلا أن الملاحظ أن بعض فروع القادرية في العالم الإسلامي لم تلتزم منهج الإمام القطب الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي تميز بالالتزام بالضوابط الشرعية، والإتباع الدقيق للسنة النبوية، والحرص التام على أن يرتكز المنهج الصوفي على العلم الشرعي، إلى جانب فقه الطريقة أصولاً وفروعاً)[٥].

---

(١) الطبقات الكبرى ١: ١٠٨.
(٢) عدي بن مسافر، صوفي سني، توفي سنة ٥٥٨هـ، إليه تنسب الطريقة العدوية، كتب ابن تيمية رسالة إلى أتباعه تحت عنوان (الوصايا الكبرى) رسالة إلى المنتمين إلى عدي بن مسافر الأموي.
(٣) الطبقات الكبرى ١: ١١٠.
(٤) الطبقات الكبرى ١: ١١٠.
(٥) نظرات في التصوف ص٤٣٠.

علم الجيلاني وبداية أمره:

حفظ الشيخ عبد القادر الجيلاني القرآن الكريم في كتاتيب جده الصومعي، وقرأ عليه مبادئ العربية والفقه، وخلال ذلك مات جده أبو عبد الله الصومعي فانتقل الجيلاني إلى بغداد، التي دخلها قادماً من مسقط رأسه جيلان سنة ٤٨٨هـ، وكان عمره آنذاك ثماني عشرة سنة وتفقه على القاضي أبي سعيد المخرمي(١)، ويقال: إنه ليس الخرقة منه(٢)، وسمع من أبي بكر بن المظفر وغيره وكتب الحديث عن الإمام أبي زكريا، يحيى بن عبد الوهاب بن أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مندة، وروى عنه أبو سعد السمعاني، وعمر بن علي القرشي، وولداه عبد الرزاق وموسى، والحافظ عبد الغني والشيخ الموفق(٣)، ويحيى بن سعيد التكريتي وغيرهم(٤).

قال ابن العماد الحنبلي في كتابه شذرات الذهب في أخبار من ذهب: (كان شيخ الشيوخ عبد القادر نحيف الجسم، عريض الصدر، عريض اللحية، أسمر، مدور الحاجبين، ذا صوت جهوري، وسمت بهي، ولما ترعرع وعلم أن طلب العلم فريضة

---

(١) أبو سعيد، المبارك بن علي المخرمي، شيخ الحنابلة في زمنه، انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩ : ٤٢٨) وشذرات الذهب (٤ : ٤٠) والذيل على الطبقات (١/ ١٦٦).
وانظر: الحقيان: نظرات في التصوف، مرجع سابق ص٤٠٠ وما بعدها.

(٢) قال الكاشاني في كتابه اصطلاحات الصوفية عن خرقة التصوف: (هي ما يلبسه المريد من يد شيخه الذي يدخل في إرادته ويتوب على يده لأمور منها: التزيي بزي المراد ليتلبس باطنه وصفاته كما تلبس ظاهره بلباسه، وهو لباس التقوى ظاهراً وباطناً، قال تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ٢٦] ومنها وصول بركة الشيخ الذي يلبسه من يده المباركة إليه، ومنها نيل ما يغلب على الشيخ في وقت الإلباس من الحال الذي يرى الشيخ ببصيرته النافذة المنورة بنور القدس أنه يحتاج إليه لرفع حجبه العائقة وتصفية استعداده، فإذا وقف على حال من يتوب على يده علم بنور الحق ما يحتاج إليه فيستنزل من الله ذلك حتى يتصف قلبه به فيسري من باطنه إلى باطن المريد، ومنها المواصلة بينه وبين الشيخ به فيبقى بينهما الاتصال القلبي والصحبة دائماً . .)
ـ اصطلاحات الصوفية ص١٦٩ ـ
وانظر الكلام عن الخرقة = رسائل وفتاوى ابن تيمية، ط مكتبة وهبة ط٢ ـ ١٤١٢هـ، تحقيق محمد رشيد رضا ومحمد الأنوار البلتاجي، المجلد الأول ص١٩٧ـ ١٩٨.

(٣) موفق الدين، أبو محمد، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، (سبق أن ترجمت له ص ٢٤).

(٤) فوات الوفيات لمحمد بن شاكر، تحقيق إحسان عباس ط دار الثقافة ٢: ٣٧٣.

شمر ساق الاجتهاد في تحصيله، وسارع في تحقيق فروعه وأصوله، بعد أن اشتغل بالقرآن حتى أتقنه، ثم تفقه في مذهب الإمام أحمد بن حنبل على أبي الوفاء بن عقيل، وأبي الخطاب، وأبي الحسين محمد بن القاضي أبي يعلى والمبارك المخرمي، وسمع الحديث من جماعة، وعلوم الأدب من آخرين، وصحب حماد الدباس، وأخذ عنه علم الطريقة بعد أن لبس الخرقة على أبي سعيد المبارك المخرمي وفاق أهل وقته في علوم الديانة، ووقع له القبول التام مع القدم الراسخ في المجاهدة وقطع دواعي الهوى والنفس، ولما أرادا له إظهاره أضيف إلى مدرسة أستاذه أبي سعيد المخرمي فعمرها وما حولها، وأعانه الأغنياء بأموالهم والفقراء بأنفسهم، فكملت في سنة ثمان وعشرين، ثم تصدر فيها للتدريس والوعظ والتذكير، وقصد بالزيارات والنذور من الآفات، وصنف وأملى، وسارت بفضله الركبان...)[1]، وقال ابن العماد الحنبلي: (قال ابن رجب: ظهر الشيخ عبد القادر للناس وجلس للوعظ بعد العشرين وخمسمائة، وحصل له القبول التام من الناس، واعتقدوا ديانته وصلاحه، وانتفعوا بكلامه، وانتصر أهل السنة بظهوره، واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته ومكاشفاته، وهابه الملوك فمن دونهم)[2].

وقال الشعراني في طبقاته: (وكان رضي الله عنه يتكلم في ثلاثة عشر علماً، وكانوا يقرؤون عليه في مدرسته درساً في التفسير، ودرساً في الحديث، ودرساً في المذهب، ودرساً في الخلاف، وكانوا يقرؤون عليه طرفي النهار التفسير وعلوم الحديث والمذهب والخلاف والأصول والنحو، وكان ـ رضي الله عنه ـ يقرأ القرآن بالقراءات بعد الظهر، وكان يفتي على مذهب الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهما، وكانت فتواه تعرض على العلماء بالعراق فتعجبهم أشد الإعجاب فيقولون: سبحان من أنعم عليه، ورفع إليه سؤال رجل حلف بالطلاق الثلاث أنه لابد أن يعبد الله عزّ وجلّ عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها فماذا يفعل من العبادات؟ فأجاب على الفور: يأتي مكة ويخلى له المطاف، ويطوف سبعاً وحده وينحل يمينه، فأعجب علماء العراق وكانوا قد عجزوا عن الجواب)[3].

(١) شذرات الذهب ٤: ١٩٩، ٢٠٠.
(٢) شذرات الذهب ٤: ١٩٩، ٢٠٠.
(٣) الطبقات الكبرى ١/ ١٠٩.

وذكر الشعراني في طبقاته حكايات عن علم الجيلاني وبداية أمره فيها نظر، فقد قال الشعراني: (ولما اشتهر أمره في الآفاق اجتمع مائة فقيه من أذكياء بغداد يمتحنونه في العلم، فجمع كل واحد له مسائل وجاء إليه فلما استقر بهم المجلس أطرق الشيخ فظهرت من صدره بارقة من نور فمرت على صدور المائة فمحت ما في قلوبهم فبهتوا واضطربوا وصاحوا صيحة واحدة ومزقوا ثيابهم وكشفوا رؤوسهم، ثم صعد الكرسي وأجاب الجميع عما كان عندهم فاعترفوا بفضله)(١).

وقال الشعراني: (. . . واجتمع عنده جماعة من الفقراء والفقهاء في المدرسة النظامية فتكلم عليهم في القضاء والقدر، فبينما هو يتكلم إذ سقطت عليه حية من السقف ففر منها كل من كان حاضراً عنده، ولم يقف إلا هو فدخلت الحية تحت ثيابه ومرت على جسده، وخرجت من طوقه، والتوت على عنقه، وهو مع ذلك لا يقطع كلامه ولا غيّر جلسته، ثم نزلت على الأرض، وقامت على ذنبها بين يديه فصوتت، ثم كلمها بكلام ما فهمه أحد من الحاضرين ثم ذهبت فرجع الناس وسألوه عما قالت؟ فقال: قالت لي: لقد اختبرت كثيراً من الأولياء فلم أر مثل ثباتك، فقلت لها: وهل أنت إلا دويدة يحركك القضاء والقدر، والذي أتكلم فيه، قال الشيخ عبد القادر ـ رضي الله عنه ـ: إنها جاءتني بعد ذلك وأنا أصلي ففتحت فمها موضع سجودي، فلما أردت السجود دفعتها بيدي وسجدت، فالتَّفَّت على عنقي، ثم دخلت من كمي وخرجت من الكم الآخر، ثم دخلت من طوقي ثم خرجت، فلما كان الغد دخلت خربة فرأيت شخصاً عيناه مشقوقتان طولاً فعلمت أنه جني، فقال لي: أنا الحية التي رأيتها البارحة، ولقد اختبرت كثيراً من الأولياء بما اختبرتك به، فلم يثبت أحد منهم لي كثباتك، وكان منهم من اضطرب ظاهراً وباطناً، ورأيتك لم تضطرب ظاهراً ولا باطناً، وسألني أن يتوب على يدي فتوّبْته)(٢).

وقال الشعراني في طبقاته الكبرى ـ أيضاً ـ: (وكان الشيخ عبد القادر ـ رضي الله عنه ـ يقول: أقمت في صحراء العراق وخرائبه خمساً وعشرين سنة مجرداً سائحاً لا أعرف الخلق ولا يعرفوني يأتيني طوائف من رجال الغيب والجان أعلمهم الطريق إلى

(١) الطبقات الكبرى ١: ١١٠.
(٢) الطبقات الكبرى ١: ١١١.

الله عزّ وجلّ، ورافقني الخضر عليه السلام في أول دخولي العراق، وما كنت عرفته، وبشرط أن لا أخالفه وقال لي: اقعد هنا فجلست في الموضع الذي أقعدني فيه ثلاث سنين يأتيني كل سنة مرة يقول لي: مكانك حيث آتيك.

قال ومكثت سنة في خرائب المدائن آخذ نفسي بطريق المجاهدات فآكل المنبوذ ولا أشرب الماء، ومكثت فيها سنة أشرب الماء ولا آكل المنبوذ وسنة لا آكل ولا أشرب ولا أنام. ونمت مرة بإيوان كسرى في ليلة باردة فاحتلمت فقمت وذهبت إلى الشط واغتسلت ثم نمت فاحتلمت فذهبت إلى الشط واغتسلت، فوقع لي ذلك في تلك الليلة أربعين مرة وأنا أغتسل، ثم صعدت إلى الإيوان خوف النوم ودخلت في ألف فن حتى أستريح من دنياكم)[١].

وذكر عبد الوهاب الشعراني في كتابه الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية حكاية عن عبد القادر الجيلاني تبين ـ في رأيه ـ سبب ارتفاع شأن الجيلاني، وعلو مكانته ـ وهذه الحكاية فيها نظر ـ وما نسب فيها للجيلاني فيه نظر.

قال الشعراني: (... دخل سيدي عبد القادر الجيلي ومعه اثنان على رجل كان يلقب بالغوث، وكان من شأنه أن يختفي إذا شاء ويظهر إذا شاء، فقال سيدي عبد القادر: نويت التبرك بهذا الرجل، فقال الآخر: أنا لا أعتقد إلا إن أظهر لي كرامة، وقال الآخر: أنا منكر عليه، فبينما جالسون إذ ظهر من بينهم فنظر إلى من قال أنا منكر وقال: أنت المنكر عليّ إني لأرى نار الكفر تلتهب فيك، وقال للآخر: أنت الذي تقول: لا أعتقد إلا إن أظهر كرامة ستجرأ عليك الدنيا إلى شحمتي أذنيك، وقال لسيدي عبد القادر: أنت الذي تزورني للبركة سيعلو شأنك حتى تؤمر بأن تقول: قدمي هذه على عنق كل ولي لله عزّ وجل، وتخضع لك أولياء المشرق والمغرب ويطأطئ وقابلهم فكان الأمر كما قال. وأما المنكر فسافر من بغداد ليناظر القسيس ببلاد الروم ففعل وناظرهم فغلبهم، فأعجب السلطان وقربه وطلب منه تزويج ابنته فقال: لا يمكن ذلك إلا أن تدخل في دينها فتنصر وتزوجها ومات على دين النصرانية. وأما الذي أوقف اعتقاده على إظهار كرامة فتولى مال بيت المال[٢].

---

(١) الطبقات الكبرى ١: ١١١.

(٢) الأنوار القدسية ٢: ٢٠١.

وجاء في كتاب الأنوار القدسية أن الشيخ عبد القادر الجيلاني كان يقول: (... قاسيت الأهوال في بدايتي، وما تركت هولاً إلا ركبته، وكان لباسي جبة صوف، وعلى رأسي خريقة، وكنت أمشي حافياً في الشوك وغيره، وكان قوتي قمامات البَقل وورق الخس من شاطئ النهر، ولم أزل آخذ نفسي بالمجاهدة حتى طرقني من الله تعالى الحال الذي يطرق القوم. وكان يقول: لقد تظاهرت بالخرس والجنون مراراً لتنفر الناس عني ولا يشغلوني عن ربي عزّ وجلّ، وحملت مراراً إلى المرستانا[1]، وأقمت في صحراء بغداد والعراق وخرائبها نحو خمس وعشرين سنة على التجريد والسياحة حتى كنت لا أعرف الخلق ولا يعرفوني. قال: ومكثت سنة لا آكل ولا أشرب ولا أنام، واحتلمت في ليلة واحدة أربعين مرة، وكانت ليلة باردة، فكنت أغتسل عقب كل مرة حياء من الله تعالى. ويقول: ربما كان ذلك من الله تعالى امتحاناً لي هل أجلس بين يديه جُنُباً مترخصاً أو أعظم حضرته عن ذلك، فإن المريد ربما اغتسل في بعض الاحتلامات إذا وقعت له دون بعض مترخصاً ويقول: ليس هذا وقت صلاة. وكان يقول: جلوس الأشياخ على بساط الظلمة يطفئ قلوبهم فكيف بالمريد[2].

(وكان رضي الله عنه يرى الجلوس على بساط الملوك ومن داناهم من العقوبات المعجلة للفقير، وكان رضي الله عنه إذا جاء خليفة أو وزير يدخل إلى الدار ثم يخرج حتى لا يقوم له إعزازاً للطريق في أعين الفقراء)[3].

وهذه الحكايات التي رواها الشعراني في طبقاته الكبرى في بعضها نظر، إلا أن ذلك لا ينفي أن الشيخ كان يعاني من ضيق العيش خلال فترة طلبه للعلم، ولا ينفي وجود كرامات كثيرة له، أثناء طلبه للعلم، فقد قال الشيخ عبد القادر عن نفسه في مرحلة طلب العلم: (كنت أقتات[4] الخرنوب والشوك[5] وقمامة البقل وورق الخس من جانب النهر والشط، وبلغت بي الضائقة في غلاء نزل ببغداد إلى أن بقيت لم آكل فيها طعاماً، بل كنت أتتبع المنبوذات أطعمها، فخرجت يوماً من شدة الجوع إلى الشط لعلي أجد ورق الخس أو البقل أو غير ذلك فأتقوت به، فما ذهبت إلى موضع إلا

(١) المارستانا: المصحة.
(٢) الأنوار القدسية ص١٣٤، ١٣٥، الطبقات الكبرى ١: ١٠٩.
(٣) الطبقات الكبرى للشعراني ١: ١١١.
(٤) في ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩١): وكنت أقتات الخرنوب الشوك وقمامة البقل.
(٥) الخرنوب: شجر بري ذو شوك، ذو حمل كالتفاح لكنه بشع ـ القاموس المحيط للفيروزآبادي.

وغيري قد سبقني عليه، وإذا وجدت الفقراء يتزاحمون عليه فأتركه حياء[١]، فرجعت أمشي وسط البلد فلا أدرك منبوذاً إلا وقد سبقت إليه حتى وصلت إلى مسجد بسوق الرياحين ببغداد وقد أجهدني الضعف، وعجزت عن التماسك، فدخلت إليه وقعدت في جانب منه، وقد كنت أصافح الموت، إذ دخل شاب أعجمي ومعه خبز صاف وشواء، وجلس يأكل، فكنت أكاد كلما رفع يده باللقمة أن أفتح فمي من شدة الجوع حتى أنكرت ذلك على نفسي وقلت: ما هذا؟ إذ التفت إليّ العجمي فرآني فقال: بسم الله يا أخي. فأبيت. فأقسم عليّ، فبادرت نفسي فخالفتها، فأقسم أيضاً فأجبته فأكلت. فأخذ يسألني: من أين أنت؟ وبمن تعرف؟ فقلت: أنا متفقه من جيلان. فقال: وأنا من جيلان فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمى عبد القادر، يعرف بأبي عبد الله الصومعي الزاهد؟ فقلت: أنا هو. فاضطرب وتغير وجهه وقال: والله لقد وصلت إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي فسألت عنك، فلم يرشدني أحد ونفدت نفقتي ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلا مما كان لك معي، وقد حلت لي الميتة، وأخذت من وديعتك هذا الخبز والشواء، فكان طيباً، فإنما هو لك، وأنا ضيفك الآن بعد أن كنت ضيفي. فقلت: وما ذاك؟ قال: أمك وجهت لك معي ثمانية دنانير، فاشتريت منها هذا للاضطرار، وأنا معتذر إليك. فسكنته، وطيبت نفسه، ودفعت إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب برسم النفقة، فقبله وانصرف)[٢].

وقال عبد القادر ـ أيضاً ـ: (وكنت أشتغل بالعلم فيطرقني الحال فأخرج إلى الصحاري ليلاً أو نهاراً، وأصرخ وأهج على وجهي، فصرخت ليلة فسمعني العيارون ففزعوا، فجاؤوا فعرفوني فقالوا: عبد القادر المجنون أفزعتنا. وكان ربما أغشي عليّ فيلفوني ويحسبون أني مت من الحال التي تطرقني، وربما أردت الخروج من بغداد فيقال لي: ارجع فإن للناس فيك منفعة)[٣].

مصنفات الشيخ عبد القادر الجيلاني:

كتب عن الشيخ عبد القادر الجيلاني شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاويه، وشرح كلمات من كتابه فتوح الغيب، وأثنى عليه كثيراً، وبين أن عقيدته سلفية، وأنه من المشايخ المستقيمين.

---

(١) في ذيل الطبقات: وإن وجدت الفقراء يتزاحمون عليه فأتركه حياءً.
(٢) شذرات الذهب ٤: ٢٠١، ٢٠٢.
(٣) شذرات الذهب ٤: ٢٠١، ٢٠٢.

قال ابن تيمية: (والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق والقدر، ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية)(١)، وقال عنه ابن الجوزي: (تكلم على الناس بلسان الوعظ، وظهر له صيت بالزهد، وكان له سمت وصمت، وكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط، ويتوب عنده في المجلس خلق كثير)(٢).

وقال ابن رجب: (شيخ العصر، وقدوة العارفين، وسلطان المشايخ، وسيد أهل الطريقة في وقته محيي الدين، أبو محمد، صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف والأحوال المشهورة)(٣)، وكتب المستشرق مرجليوث الإنجليزي رسالة في ترجمة الشيخ عبد القادر ملحقة بالمجلة الآسيوية الإنجليزية.

ولموسى بن محمد اليونيني مناقب الشيخ عبد القادر، وقد ألف محمد بن يحيى التادفي الحنبلي كتاباً عن الشيخ عبد القادر الجيلاني هو كتاب (قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر) وهو كتاب نسب صاحبه الكثير للشيخ الجيلاني زيفاً وبهتاناً وقد طبع بهامشه في أحد طبعاته فتوح الغيب، والناظر إلى الكتاب والهامش يرى التناقض في العبارات المعزوة للشيخ الجيلاني.

وصنف علي بن يوسف الشطنوفي كتاباً عن الجيلاني تحت عنوان (بهجة الأسرار ومعدن الأنوار) جمع فيه الطم والرم، وقد أنكر العلماء على الشطنوفي ما جمعه في هذا الكتاب.

قال ابن رجب رحمه الله: (قد جمع المقرئ أبو الحسن الشطنوفي المصري في أخبار الشيخ عبد القادر الجيلاني ثلاثة مجلدات، وكتب فيه الطم والرم، وكفى المرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع، وقد رأيت بعض هذا الكتاب، ولا يطيب على قلبي أن أعتمد على شيء مما فيه من الرواية عن المجهولين، وفيه من الشطح والطامات والدعاوي والكلام الباطل ما لا يحصى ولا يليق نسبة مثل ذلك إلى الشيخ عبد القادر - رحمه الله - ثم وجدت - والكلام لا يزال لابن رجب - الكمال بن جعفر الأدفوني قد ذكر أن الشطنوفي نفسه كان متهماً فيما يحكيه...)(٤).

(١) الفتاوى ١٠: ٤٨٨.
(٢) الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ٢٩١.
(٣) المرجع السابق ١/ ٢٩٠.
(٤) القحطاني - مصدر سابق - ص٥٧٧ نقلاً عن ابن رجب، ذيل الطبقات ١/ ٢٩٨.

وترجم عبد القادر بن محيي الدين الإربلي عن الفارسية: (تفريج الخاطر في مناقب الشيخ عبد القادر)[١]، ولابن حجر العسقلاني ترجمة للشيخ عبد القادر الجيلاني بعنوان (غبطة الناظر في ترجمة الشيخ عبد القادر)، وقد طبعت هذه الترجمة ضمن كتاب السفينة القادرية الذي طبعته دار الألباب بدمشق في عام ١٩٩١م[٢]، وكتب عن الجيلاني المناوي في الكواكب الدرية، والشعراني في طبقاته الكبرى، ومعظم مؤلفي كتب التراجم الذين جاؤوا بعد الجيلاني، وكتبت عنه مجموعة من رسائل الماجستير والدكتوراه، منها البحث المختصر الذي أعده الأستاذ الدكتور أحمد الجمل والذي كان مكملاً لمتطلبات الماجستير في الأزهر منذ أكثر من عشر سنوات، وكتب عن الجيلاني الدكتور سعيد بن مسفر بن مفرح القحطاني أطروحته التي نال بها درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى بمكة المكرمة تحت عنوان (الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية) ـ عرض ونقد على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة ـ، ويبدو لنا واضحاً من خلال عنوان الرسالة أنه سيتكلم عن التصوف عند الجيلاني وعن عقيدته، وكأن الجيلاني له عقيدة تخالف عقيدة السلف، ولعل سبب كتابة الرسالة بصورتها التي هي عليها أنها كتبت في بيئة علمية لها رأي واضح في التصوف والصوفية، ولو كان ذلك الصوفي هو الشيخ عبد القادر الجيلاني السلفي، الحنبلي، الزاهد، العالم، الذي أثنى عليه ابن تيمية كثيراً، وشرح كلمات من كتابه فتوح الغيب، ذلك الشرح الذي أكد فيه ابن تيمية سلفية الجيلاني وفهمه العميق للسنة النبوية، وقد نتفق مع الدكتور القحطاني في كثير مما أورده، ونختلف معه في فهم بعض المسائل التي أشار إليها، وبعض التحليل الذي ذهب إليه.

مصنفات الجيلاني[٣]

صنف الشيخ الجيلاني عبد القادر كتباً كثيرة ومفيدة، وقد كتب بعضها بنفسه، وقام تلاميذه بجمع وترتيب بعضها من أقواله وأوراده وأذكاره، ونسبت فيما بعد إليه.

---

(١) الأعلام للزركلي ط٧ـ ١٩٨٦م، دار العلم للملايين ٤/ ٤٧.

(٢) يحتوي الكتاب أيضاً على شرح حزب الوسيلة المنسوب للشيخ عبد القادر، والذي يرى بعض الباحثين أنه من تصنيف محمد الأمين الكيلاني.

(٣) انظر لمعرفة كتب الجيلاني المصادر والمراجع الآتية:

أ ـ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل البغدادي ١/ ٥٩٦.

=

ومن كتبه التي أشار إليها أصحاب التراجم الكتب الآتية:

١ـ **الغنيمة لطالبي الحق (في التصوف)**، وقد ذكره إسماعيل باشا البغدادي في كتابه هدية العارفين أسماء المؤلفين، وآثار المصنفين باسم الغنية في التصوف، وهو مطبوع ومتداول، ومن أشهر كتب الجيلاني على الإطلاق، وفيه أشياء حسنة، وقد تكلم عنه ابن تيمية كثيراً في فتاويه وذكر أن فيه أحاديث صحيحة وبعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وقد حققه عدد من الباحثين، منهم فرج توفيق الوليد الأستاذ المساعد بكلية الشريعة، جامعة بغداد، وقد حققه تحت عنوان (الغنية لطالبي طريق الحق عزّ وجلّ)، وبدأ الشيخ الجيلاني الكتاب بمقدمة قال في بدايتها: (الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب، وبذكره يصدر كل خطاب، وبحمده يتنعم أهل النعيم في دار الجزاء والثواب، وباسمه يشفى كل داء، وبه يكشف كل غمة وبلاء، إليه ترفع الأيدي بالتضرع والدعاء، في الشدة والرخاء، والسراء والضراء وهو سامع لجميع الأصوات، بفنون الخطاب على اختلاف اللغات، والمجيب للمضطر الدعاء، فله الحمد على ما أولى، وأسدى، وله الشكر على ما أنعم وأعطى...)(١).

وقال الشيخ عبد القادر ـ أيضاً ـ في مقدمته: (ألح عليَّ بعض أصحابي وشدد في الخطاب في تصنيف هذا الكتاب لحسن ظنه في الإصابة والصواب، والله هو العاصم في الأقوال والأفعال، والمطلع على الضمائر والنيات، والمنعم المتفضل بتسهيل ما أراد، وإليه عز وجل الالتجاء بتطهير القلوب من الرياء والنفاق، وإبدال السيئات بالحسنات إنه غافر للذنوب والخطيئات وقابل التوبة من العباد، فلما رأيت صدق رغبته في معرفة الآداب الشرعية من الفرائض والسنن والهيئات ومعرفة الصانع عزّ وجلّ بالآيات والعلامات، ثم الاتعاظ بمواعظ القرآن والألفاظ النبوية في مجالس نذكرها، ومعرفة أخلاق الصالحين نشير لها في أثناء الكتاب ليكون عوناً له على سلوك طريق الله عزّ وجلّ، وامتثال أوامره، وانتهاء نواهيه، ووجدت له نية صادقة صدرت من فتوح

= ب ـ الأعلام ٤: ٤٧.

ج ـ القاموس الإسلامي لأحمد عطية، أعادت طباعته بالأوفست مكتبة المثنى، إستانبول جـ ١ ص٦٦٧، ٦٦٨.

د ـ كشف الظنون لحاجي خليفة جـ١ وجـ٢، الصفحات: ٦٦٢، ٨٧٩، ١٢٤٠، ١٧٣٨، ٢٠٥٣.

(١) ص٤٨، الكتاب المحقق، الذي حققه فرج.

الغيب في إجابته إلى ذلك، فسارعت مشمراً مبتغياً محتسباً للثواب، راجياً للنجاة في يوم الحساب، إلى جمع هذا الكتاب بتوفيق رب الأرباب الملهم للصواب، وقد سميته الغنية[١] لطالبي طريق الحق عزّ وجلّ.

ويتكون كتاب الغنية من جزئين مقسمة إلى خمسة أقسام:

القسم الأول: في الفقه وأنواع العبادات كالصلاة والزكاة والصيام والحج والآداب والأذكار، ويبدأ هذا القسم بباب من يريد الدخول في الإسلام[٢] وينتهي بفصل تحت عنوان: ينبغي لكل مؤمن العمل بهذه الآداب[٣].

القسم الثاني: القسم الثاني في العقائد، والفرق الإسلامية، والفرق الضالة، والنحل المنحرفة، والملل المختلفة ويبدأ هذا القسم بباب في معرفة الصانع عزّ وجلّ[٤]، وينتهي بذكر مقالة السالمية[٥].

القسم الثالث: القسم الثالث عن المجالس، وهي أربعة عشر مجلساً تتعلق بالقرآن الكريم، والتوبة، والتقوى، وصفة الجنة والنار، وفضائل الشهور والأيام، وتبدأ بالمجلس الأول، والذي هو في قوله عزّ وجلّ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨]، وتنتهي بمجلس في فضائل يوم الجمعة[٦].

القسم الرابع: في الفقه، وفيه تفصيل لبعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالصلاة والصيام والدعاء، ويبدأ في ذكر فضائل أيام الأسبوع والأيام البيض، وما ورد في صيام ذلك من التخصيص وذكر أوراد الليل والنهار فيها[٧]، وينتهي هذا القسم بالوصية[٨].

القسم الخامس: القسم الخامس في التصوف، ويبدأ بكتاب آداب المريدين من

---

(١) الغنية، مقدمة الشيخ الجيلاني، ص٤٨، ٤٩ (الكتاب الذي حققه فرج ـ الجزء الأول).
(٢) يبدأ هذا القسم في النسخة التي حققها فرج توفيق الوليد من ص٥٣ في الجزء الأول.
(٣) ص٢٥٤.
(٤) ص٢٥٥.
(٥) تبدأ بصفحة ٤٥١.
(٦) يبدأ بصفحة ٩٥٤.
(٧) يبدأ هذا القسم من ص١٠٠٩ في النسخة التي رجعت إليها، والتي حققها الأستاذ فرج.
(٨) انظر ص١٢٥٥ في المرجع المذكور.

الفقراء الصادقين سالكي طريق الصوفية[١]، وينتهي بفضل الصدق[٢]، وقد تناول الجيلاني في هذا القسم الأحوال والمقامات الإيمانية، وآداب المريدين، وآداب الصحبة، وغير ذلك مما يحتاج إليه السالك لطريق القوم، بل ما يحتاج إليه كل مسلم، وهذا الكتاب (الغنية) من الكتب التي قام بتأليفها الشيخ الجيلاني بنفسه[٣]. قال الدكتور مصطفى حلمي عن كتاب الغنية للشيخ الجيلاني: (أما كتاب الغنية فيتضمن منهجاً محدداً، وموضوعاً متصلاً اتصالاً وثيقاً بهذا المنهج، إذ تترابط الأفكار والمعاني، وينقل فيها الشيخ من فكرة إلى أخرى طبقاً للمنهج الذي وضعه لنفسه وحدده في أول الكتاب، إذ يخبرنا بأن بعض أصحابه شددوا عليه في تصنيف هذا الكتاب، فاستجاب لهم للتعريف بالآداب الشرعية (من الفرائض والسنن والهيئات ومعرفة الصانع عزّ وجلّ بالآيات والعلامات، ثم الاتعاظ بالقرآن والألفاظ النبوية... ومعرفة أخلاق الصالحين)[٤].

٢ـ **فتوح الغيب** جاء في كتاب كشف الظنون أن هذا الكتاب للشيخ عبد القادر الكيلاني المتوفى سنة إحدى وستين وخمسمائة (٥٦١)هـ[٥]، وذكره صاحب كتاب هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ضمت مصنفات عبد القادر الجيلاني[٦] وقد طبع هذا الكتاب وحقق أكثر من مرة، قال الشيخ عبد القادر في مقدمة هذا الكتاب: (... أما بعد، فإن نعم الله عليّ كثيرة متوافرة في آناء الليل وأطراف النهار والساعات واللحظات والخطوات وجميع الحالات كما قال الله عزّ وجلّ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فلا يدان لي ولا جنان ولا لسان في إحصائها وأعدادها، فلا يدركها التعداد ولا

(١) انظر ص١٢٦٥ في المرجع المذكور.

(٢) ص١٣٦٥.

(٣) يرى معظم الباحثين أن الكتب التي صنفها الشيخ عبد القادر بنفسه هي: (أ) ـ الغنية، (ب) ـ الفتح الرباني والفيض الرحماني، (ج) ـ فتوح الغيب.

(٤) مر الشيخ الجيلاني على أخلاق الصالحين لتكون عوناً لمن سأله تصنيف الكتاب لسلوك طريق الله عزّ وجلّ، وقد استفاد الأستاذ الدكتور مصطفى حلمي من هذا الكتاب في كتابه أعمال القلوب.
انظر: أعمال القلوب لمصطفى حلمي ص٤٣.

(٥) كشف الظنون ٢: ١٢٤٠.

(٦) المصدر المذكور ١: ٥٩٦.

تضبطها العقول والأذهان، ولا يحصيها الجنان ولا يعبرها اللسان، فمن جملة ما مكن عن تغييرها اللسان وأظهرها الكلام وكتبها البنان، ويفسره البيان كلمات برزن لي وظهرن من فتوح الغيب فحلت في الجنان، فأشغلت المكان فأنتجها وأبرزها صدق الحال، فتولى إبرازها لطف المنان، ورحمة رب الأنام، في قالب صواب المقال لمريدي الحق والطلاب)[١].

وكتاب فتوح الغيب من الكتب التي صنفها الشيخ عبد القادر الجيلاني، قال عنه الدكتور القحطاني: (وهو كتاب يحتوي على العديد من المقالات والنصائح المفيدة والأفكار والآراء التي تتحدث عن كثير من القضايا كبيان حال الدنيا وأحوال النفس وشهواتها والتسليم لأمر الله، وبيان مقامات التوكل والخوف والرجاء والرضا إلى غير ذلك من المقالات والوصايا التي وجهها لأولاده والكتاب طبعته مكتبة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٩٢هـ، دار الألباب بدمشق سنة ١٤١٣هـ)[٢].

وقد ألحق بهذا الكتاب قصائد شعرية منسوبة للشيخ الجيلاني مشكوك في نسبتها إليه لما فيها من شركيات وضلالات لا يمكن أن تكون موجودة في النسخ التي كانت متداولة في زمن شيخ الإسلام ابن تيمية، لأنه لو كانت موجودة لتكلم الشيخ وبيّن ما فيها من شرك خفي أو جلي[٣].

٣ـ الفتح الرباني والفيض الرحماني: هذا الكتاب ذكره صاحب كتاب القاموس المحيط وهو (يحوي مجموعة مجالس له بالذكر وكل منها له تاريخ معين وفي مكان مشار إليه، يوجه الخطاب إلى مريديه وبأسلوب المشايخ، يقول في كل مجلس أثناء الحديث يا قوم... يا غلام...)

وقد قامت دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م بطباعة الكتاب من غير تحقيق[٤]، وهو من الكتب التي صنفها الشيخ عبد القادر الجيلاني بنفسه.

قال القحطاني: (كتاب الفتح الرباني والفيض الرحماني وهو كتاب يحتوي على وصايا وتوجيهات ومواعظ في اثنين وستين مجلساً من مجالس الوعظ والتعليم، خلال

(١) فتوح الغيب، مقدمة المؤلف، ص٩.
(٢) القحطاني ـ مصدر سابق ـ ص٥٦، ٥٧.
(٣) أشار الدكتور القحطاني إلى نماذج من هذه القصائد في كتابه انظر ص٥٨ إلى ص٦٠.
(٤) الكتاب موجود بمكتبة الشيخ زايد بالإمارات العربية المتحدة بالعين تحت رقم (٢٦٨ ك ع ق ق ن).

الفترة من ٣/ ١٠/ ٥٤٥هجرية حتى ٦/ ٧/ ٥٤٦ هجرية، تناول فيها العديد من القضايا في الإيمان من الموضوعات وقد أشارت بعض المصادر إلى صحة نسبته إليه[1])[2].

ومن كتب الجيلاني أيضاً:

٤ـ جلاء الخاطر في الباطن والظاهر.

٥ـ سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار.

٦ـ آداب السلوك والتوصل إلى آداب الملوك.

٧ـ تحفة المتقين وسبيل العارفين.

٨ـ الكبريت الأحمر في الصلاة على النبي ﷺ، وهذا الكتاب لم يذكره القحطاني في أطروحته، وإن ذكره بعض الباحثين.

٩ـ مراتب الوجود، وهذا الكتاب أيضاً لم يشر إليه الدكتور القحطاني في أطروحته عن الجيلاني، وقد ذكره عدد من الباحثين.

١٠ـ معراج لطيف المعاني: جاء في كشف الظنون أن هذه الرسالة للشيخ عبد القادر الجيلاني، ولم يشر إليها القحطاني في كتابه[3].

١١ـ يواقيت الحكم: جاء في كشف الظنون أن هذا الكتاب للشيخ الجيلاني، ولم يشر إليه القحطاني في أطروحته[4].

١٢ـ الرسالة الغوثية: جاء في كتاب كشف الظنون أن الرسالة الغوثية للشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة إحدى وستين وخمسمائة هجرية، وأن رسالة أخرى بالعنوان نفسه للشيخ محيي الدين، محمد بن علي بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨هـ أولها الحمد لله كاشف الغمة[5].

(١) بل تقريباً جميع المصادر التي ترجمت له، وقد أشار إليه صاحب القاموس المحيط والزركلي في الأعلام وغيرها.

(٢) القحطاني (دكتور): مصدر سابق ص٦٠.

(٣) كشف الظنون ١: ١٧٣٨.

(٤) المصدر السابق ٢/ ٢٠٥٣.

(٥) المصدر السابق ١/ ٨٧٩.

١٣- حزب الرجاء والانتهاء.

جاء في كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون أن هذا الكتاب للشيخ عبد القادر بن أبي صالح الكيلاني أوله: سبحان الله تسبيحاً يليق بحال من... إلخ[١]. ولم يشر إليه الدكتور القحطاني في كتابه، ولكنه أشار إلى كتاب جمع الأحزاب والصلوات والأدعية المنسوبة للشيخ عبد القادر، وهو كتاب الأوراد القادرية، قال الدكتور القحطاني: (الأوراد القادرية، وهو كتاب يشتمل على بعض الأدعية والأحزاب والصلوات المبتدعة والقصائد الشركية جمعها المدعو/ محمد سالم بواب. وطبعتها دار الألباب بدمشق عام ١٩٩٢م، ونسبتها إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهذه النسبة غير صحيحة، لما اشتملت عليه تلك الأوراد من الضلالات....)[٢].

١٤- الفيوضات الربانية في الأوراد القادرية:

ذكره القحطاني في أطروحته الجامعية تحت عنوان: (الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية)، وقال عنه: (... وهو من جمع وترتيب المدعو إسماعيل بن السيد محمد القادري، وقد نسبه الزركلي في الأعلام إلى الشيخ عبد القادر، وهذا وهم منه، والكتاب يحتوي على كثير من البدع والخرافات والأوراد الشركية، كما اشتمل على تقسيمات للنفس في مقامات الصوفية، وهي تقسيمات لا دليل عليها، والكتاب مطبوع لدى مكتبة مصطفى الحلبي بمصر سنة ١٣٥٣)[٣]، والكلام المأثور عن الجيلاني يؤكد عدم صحة نسبة هذا الكتاب إليه.

---

(١) كشف الظنون ١/ ٦٦٢.

(٢) القحطاني - مصدر سابق - ص٦٠، ٦١.

(٣) القحطاني - مصدر سابق - ص٦٠، ٦١.

الفصل الثاني

كرامات الشيخ عبد القادر الجيلاني وشطحاته

المبحث الأول
كرامات الشيخ عبد القادر الجيلاني

تعريف الكرامة لغة واصطلاحاً:

قال صاحب القاموس: الكَرَمَ محركة ضد اللؤم،

وكرّمه: عظّمه ونزّهه[١].

وفي الاصطلاح: هي أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة، ولا هو مقدمة يظهر على يد ظاهر الصلاح، ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعته، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح، علم بذلك العبد الصالح أم لم يعلم[٢]، قال سهل بن عبد الله التستري[٣]: الآيات لله تعالى، والمعجزات للأنبياء عليهم السلام، والكرامات للأولياء وخيار المسلمين[٤].

كرامات الأولياء:

لقد أنكر القدرية كرامات الأولياء ظناً منهم أن ذلك يقدح في معجزة النبوة، وخوفاً من أن تختلط كرامات الأولياء بمعجزات الأنبياء[٥]، وقد بالغ بعض المكتفين بالإذعان للأولياء في ذكر عدد كبير من الكرامات لشيخ معين، ظناً منهم أنه كلما زاد

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية، دكتور سعيد القحطاني، ص ٥٦٢ نقلاً عن القاموس المحيط للفيروزآبادي (١٤٨٩).

(٢) المرجع السابق نقلاً عن لوامع الأنوار للسفاريني ٢/ ٣٩٢.

(٣) سهل بن عبد الله، التستري، الصوفي المعروف.

(٤) تهذيب الأسرار ص٣٧٣.

(٥) لقد ذكر عبد القاهر بن طاهر البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩هـ أن القدرية أنكرت كرامات الأولياء، وإلى المسألة نفسها أشار ابن تقي الدين السبكي في طبقات الشافعية.

عدد الكرامات كان ذلك دليلاً على أن طريقهم هو الصواب، وأنه أحق بالاتباع من غيره، ويصور بعض أتباع الطرق الصوفية شيوخ طريقتهم بأن لهم حق التصرف الدائم في الكون حتى بعد الموت، وأن كل شيء يتم بمعرفتهم وأمرهم(١)، وقد نسي هؤلاء أن صاحب الكرامة غير مأمون العاقبة، وقد يموت على سوء الخاتمة، وأنه غير معصوم، وأن الشيطان قد يجري على يديه أمراً خارقاً للعادة تمهيداً لإضلاله، يأتيه من الجهة التي يحبها ويفتح له تسعة وتسعين باباً من الخير يريد باباً من الشر، فيضله من هذا الطريق.

وقد ظن بعض الصوفية أن كثرة الكرامات دليل على تقوى العبد وعلو مكانته، وجعل لذلك همه بدينه أدنى خارقة من خوارق العادات، ولا شك أن هذا خطأ فقوي الإيمان لا يحتاج إلى تثبيت إيمانه بالكرامات، والكرامات بحسب حاجة المسلم إليها، وقد يكون الأكمل ولاية مستغنياً عنها، وبهذا نصل إلى تفسير لازدياد الكرامات بعد عصر الصحابة رضوان الله عليهم يختلف عن تفسير تلك الطائفة من الصوفية التي ترى أن من كان مع الرسول ﷺ تسلب ولايته، حتى لا تختلط كرامات الأولياء مع معجزات النبي ﷺ(٢)، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله: (ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها ضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوي إيمانه، ويسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنياً عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك، لعلو درجته وغناه عنها، لا نقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة، بخلاف من يجري على يديه الخوارق لهدي الخلق ولحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة)(٣).

وقال ابن عطاء: (ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه)، وقال ابن عجيبة الحسني في كتابه (إيقاظ الهمم) في شرح كلام ابن عطاء في الحكم: (المراد هنا

---

(١) يعتقد البريلوية هذا الاعتقاد في الشيخ عبد القادر الجيلاني، وكذلك يعتقد أتباع الطريقة البرهانية الدسوقية الشاذلية هذا الاعتقاد في الشيخ عبد القادر، فهو في ظنهم من الأقطاب الأربعة الذين لهم حق التصرف الدائم في الكون.
انظر: البريلوية لإحسان إلهي نظير.
: تضليل الذمة في تأثيم الأمة لمحمد عبد الله السمان.

(٢) نقد ابن تيمية للتصوف، شوقي بشير، دار الفكر الخرطوم ١٩٨٧م ص٥٥، ٥٦.

(٣) الفتاوى ١١: ٢٨٣.

بالتخصيص تخصيصه بالكرامات الحسية، والمراد بالتخليص تخليصه من رق الحظوظ ومن بقية السوى، فليس كل من ثبت تخصيصه بالكرامات الحسية كمل تخليصه من حظوظه النفسية، ليس كل من ثبت تخصيصه بالكرامات كمل تخليصه من العوائد والشهوات، بل قد يعطى الكرامات الحسية بعض من لم يتخلص من حظوظه النفسية).

وكان أبو الحسن الشاذلي[١] ـ رحمه الله ـ يقول: (لا تعطى الكرامات من طلبها وحدث بها نفسه، ولا من استعمل نفسه في طلبها، وإنما يعطاها من لا يرى نفسه ولا عمله، وهو مشغول بمحاب الله، ناظر لفضل الله، آيس من نفسه وعمله، وقد تظهر الكرامة على من استقام في ظاهره) وكان يقول أيضاً: (ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السنة، فمن أعطيهما، وجعل يشتاق إلى غيرهما، فهو عبد مفتر كذاب، أو ذو خطأ في العلم بالصواب كمن أكرم بشهود الملك فاشتاق إلى سياسة الدواب)، وكان يقول: (كل كرامة لا يصحبها الرضا من الله، وعن الله، والمحبة لله، ومن الله، فصاحبها مستدرج أو ناقص هالك مثبور)[٢]، وقال الدكتور القحطاني: (... الكرامة ليست من شروط الولاية، فقد يكون الإنسان ولياً لله ومن أحبهم إليه، وأكثرهم طاعة له، ولا تظهر على يديه كرامة قط، وحدوثها على يد شخص لا يدل على أنه أفضل ممن لم تحدث له كرامة، لأن شروط الولاية التي تضمنها قوله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢] محصورة في شرطين فقط: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٣] ولذا كانت الكرامات

---

(١) أبو الحسن الشاذلي هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار، الشاذلي، وشاذلة قرية من إفريقيا، وقد كان ضريراً وزاهداً، نزل إسكندرية، وشيخ الطريقة الشاذلية، مات سنة ست وخمسين وستمائة، وقد كانت طريقته سنية، ولذلك استقبلها أهل الإسكندرية، بينما رفضوا الطريقة السبعينية ـ طريقة عبد الحق بن سبعين الفيلسوف ـ لأنها طريقة صوفية فلسفية، خلط فيها ابن سبعين التصوف بالفلسفة، كتب عن الشاذلية الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود ـ رحمه الله ـ كتاباً عن أبي الحسن الشاذلي، وترجم للشاذلي الشعراني في طبقاته الكبرى، انظر الطبقات الكبرى ٢: ٤ ـ ١٢.

وكتب عن السبعينية من أنصارها المعاصرين الأستاذ الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتزاني ـ رحمه الله ـ أطروحته التي نال بها الدكتوراه (ابن سبعين وفلسفته الصوفية) وكتب عنها من المعارضين لفكرها، الرافضين لفلسفة مؤسسها، شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١هـ ـ ٧٢٨هـ) في المسائل الإسكندرية في الرد على الملاحدة السبعينية.

(٢) الطبقات الكبرى ٢: ٦.

في عهد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أقل منها في العهود التي جاءت بعدهم، مع كمال فضلهم وعلوّ منزلتهم عند الله، حيث اختارهم لصحبة نبيه وإظهار دينه)[١].

الفروق بين خوارق العادات:

خرق العادات من الله لأوليائه تاره لتأييد دينه، وتارة تكون الكرامات لتعجيل الثواب في الدنيا، وتارة إتماماً على أوليائه بجلب منفعة أو دفع مضرة، فالكرامة في الحقيقة ما نفعت في الدنيا، ولم تضر في الآخرة، ولم تحمل صاحبها على هتك أستار المحارم، قال سري السقطي: (الصوفي هو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن من العلم ينقضه عليه ظاهر العلم، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار المحارم)[٢].

والخارق إذا حصل به فائدة في الدين كان من الأعمال الصالحة إما واجب أو مستحب، والخارق إذا حصل به أمر مباح كان من نعم الله سبحانه وتعالى على العبد، وإذا تضمن الخارق ما هو منهي عنه كان سبباً للعذاب، والنهي قد يعود على مقصود الخارق مثل الدعاء على الغير بما لا يستحقه، أو سببه مثل الأعمال المنهي عنها.

والكرامة تكون لأمة محمد ﷺ المتبعين له ظاهراً وباطناً لحجة أو حاجة، فالحجة لإقامة الدين، والحاجة لما لابد منه من النصر والرزق[٣].

وفي هذا المطلب سنبين الفرق بين الكرامات والأحوال الشيطانية، وكيف استطاع الجيلاني بيان هذه الفروق، مما جعل ابن تيمية يعتمد عليه في كتابه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) في حديثه عن هذه الفروق، وكذلك في كتابه (النبوات).

الفرق بين الكرامات والأحوال الشيطانية:

لم يعرف كثير من الناس الفرق بين الأنبياء والصالحين في الآيات الخارقة، وما لأولياء الشيطان من السحرة والكهان والكفار وأهل البدع من ذلك، وجعلوا الخوارق جنساً واحداً، لا فرق عندهم بين المعجزة والإرهاص، أو بين الكرامة والحالة الشيطانية،

---

(١) الشيخ الدكتور القحطاني عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية ص٥٦٧.
(٢) تهذيب الأسرار للخركوشي، ط المجمع الثقافي أبو ظبي، ص٢٥.
(٣) انظر: نقد ابن تيمية للتصوف، شوقي بشير، ص٥٨.
: مجموعة الرسائل والمسائل ص١٣٢ـ ١٣٤.
: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٨٨ وص١٠٩.
: اقتضاء الصراط المستقيم ص٣٦.

أو بين المخارق والمخاريق وبين الإهانة أو الاستدراج، وظن جماعة أن خوارق العادات لا تكون إلا لرجل صالح، فصار من ظهرت على يديه حالة شيطانية يظن أنها كرامة، فيقوى على قلبه أن طريقته هي طريقة الأولياء، وأن طريقه هو الحق، وأن الخارقة دليل على الاستقامة، وقد يقول أتباعه: (الولي إذا تولى لا يعترض عليه) مهما كانت أفعاله مخالفة لدين الرسول ﷺ، من ترك الصلاة المفروضة، وشرب الخمر، وتدخين الحشيش، وظلم الناس، لأن ما جرى على يديه - في رأيهم - هي كرامات، وهي هبة من الله بلا عمل منه، ولا يعلمون أن هذه أحوال شيطانية جرت على يد أولياء الشيطان، أو أجراها الشيطان على يد أولياء الرحمن تمهيداً لإضلالهم، فضلوا من هذا الباب.

ولابد للمسلم أن يفرق بين الأحوال الشيطانية والكرامات الرحمانية، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦].

وقد كان الصوفية الأوائل يدققون فيما يحصل لهم من خوارق العادات خوفاً من أن تكون أحوالاً شيطانية، يحكى في هذا الباب عن أبي زيد البسطامي أنه صلى ليلة فأضاء البيت كأنه نصف نهار، فقال أبو يزيد: (إن كنت شيطاناً فأنا أعز وأمنع جانباً من أن تطمع فيّ، وإن كان من عند الله فإني أسأله أن يؤخره من دار الخدمة إلى محل الكرامة)[١]، وقال أبو يزيد: (لو نظرتم إلى الرجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة[٢]، وجاء في حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني: حدثنا أحمد حدثنا منصور حدثنا موسى قال: جاء رجل إلى أبي يزيد فقال: بلغني أنك تمر في الهواء، قال: وأي أعجوبة في هذا؟ طير يأكل الميتة يمر في الهواء، والمؤمن أشرف من الطير[٣].

وقال أبو يزيد: الذي يمشي على الماء ليس بعجب، لله خلق كثير يمشون على الماء ليس لهم عند الله قيمة[٤].

---

(١) شطحات الصوفية، ص١٣٢، سلطان العارفين للدكتور عبد الحليم محمود ص ١٦٧.
(٢) وفيات الأعيان ٢: ٥٣١، حلية الأولياء ١٠: ٣٥، الحركة الصوفية لأبي ريان ص ١٤٦.
(٣) حلية الأولياء ١٠: ٣٥، سلطان العارفين ص١٦٦، ١٦٧، تاريخ التصوف في الإسلام ص٣٦٥.
(٤) حلية الأولياء ١٠: ٣٩، تاريخ التصوف ص٣٦٤، ٣٦٥.

وقد استطاع الشيخ عبد القادر الجيلاني، رحمه الله، أن يضع لنا فواصل دقيقة بين خوارق العادات بصورة عامة، وبين الكرامة والحالة الشيطانية بصورة خاصة، واستطاع أن يفرق بين الخواطر[١] الربانية والخواطر الشيطانية، وبين الواردات الإلهية والطوارق الشيطانية، فقد سئل الجيلاني عن الفرق بين الواردات[٢] الإلهية والطوارق الشيطانية؟ فقال: الوارد الإلهي لا يتأتى باستدعاء ولا يذهب بسبب، ولا يتأتى على نمط واحد، ولا في وقت واحد[٣]، والطوارق الشيطانية[٤] بخلاف ذلك غالباً).

قال ابن عجيبة الحسني في كتابه (إيقاظ الهمم في شرح الحكم): (والمراد به هنا نوع خاص وهو نفحات إلهية يهب نسيمها على القلوب والأرواح والأسرار، فتغيب القلوب في حضرة علام الغيوب، وتغيب الأرواح في جبروت العزيز الجبار فتطير فرحاً وسروراً، وترقص شوقاً وحبوراً.

إذا اهتزت الأرواح شوقاً إلى اللقا   ترقصت الأشباح يا جاهل المعنى

وقل ما تكون هذه الواردات الإلهية إلا بغتة، لأنها لا تنال باكتساب، وإنما هي فتح من الكريم الوهاب ولو كانت تنال بجد واجتهاد لادعاها العباد والزهاد)[٥].

وقد استطاع الشيخ الجيلاني أن يطبق ما عرفه وذكره نظرياً على ما وقع له من خوارق، فقد حكى الشيخ موسى بن الشيخ عبد القادر، حكاية عن والده مضمونها أنه

---

(١) ذكر الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه الغنية لطالبي طريق الحق جـ٢ ص٤٨٢ أن للقلب خواطر ستة:
أ ـ خاطر النفس، ب ـ خاطر الشيطان، جـ ـ خاطر الروح،
د ـ خاطر الملك، هـ ـ خاطر العقل، و ـ خاطر اليقين
وشرح هذه الخواطر كما تكلم عن الخواطر الجنيد بن محمد في كتابه رسائل الجنيد في التصوف والأخلاق الذي حققه الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود، رحمه الله، وتكلم عن الخواطر أيضاً الغزالي في إحيائه.

(٢) قال القشيري: (الوارد هو ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة مما لا يكون للعبد فيه تحمل، والواردات أعم من الخواطر، لأن الخواطر تختص بنوع خطاب أو ما تضمن معناه، والواردات تكون وارد سرور، ووارد حزن، ووارد قبض، ووارد بسط، إلى غير ذلك من المعاني، وهو قريب من الحال).
انظر: إيقاظ الهمم لابن عجيبة الحسني ص١٤١، ١٤٢.

(٣) في كتاب الطبقات الكبرى للشعراني ١ : ١٠٨ (ولا في وقت مخصوص).

(٤) في الطبقات الكبرى: (والطارق الشيطاني).

(٥) إيقاظ الهمم ص١٤٢.

رأى نوراً أضاء له الأفق، وبدت له صورة ونودي منها: يا عبد القادر أنا ربك لقد أحللت لك المحرمات، قال أبو الحسن الشطنوفي، المقرئ المصري، بإسناده: قال الشيخ موسى بن الشيخ عبد القادر: سمعت والدي يقول: خرجت في بعض سياحاتي إلى البرية، ومكثت أياماً لا أجد ماء فاشتد بي العطش فأظلتني سحابة، ونزل عليّ منها شيء يشبه الندى فرويت ثم رأيت نوراً أضاء به الأفق، وبدت لي صورة، ونوديت منها: يا عبد القادر أنا ربك، وقد أحللت لك المحرمات، أو قال: ما حرمت على غيرك، فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إخسأ يا لعين، فإذا ذلك النور ظلام، وتلك الصورة دخان، ثم خاطبني وقال: يا عبد القادر نجوت مني بعلمك بحكم ربك، وقوتك في أحوال منازلاتك، ولقد أضللت بهذه الواقعة سبعين من أهل الطريق[١]، فقلت: لربي الفضل والمنة، قال[٢]: فقيل له: كيف علمت أنه شيطان؟ قال: بقوله قد أحللت لك المحرمات[٣].

وقال الشعراني في طبقاته الكبرى (وكان رضي الله عنه يقول: تراءى لي نور عظيم ملأ الأفق، ثم تدلى فيه صورة تناديني: يا عبد القادر أنا ربك، وقد حللت لك المحرمات، فقلت: إخسأ يا لعين، فإذا ذلك النور ظلام وتلك الصورة دخان، ثم خاطبني: يا عبد القادر نجوت مني بعلمك بأمر ربك، وفقهك في أحوال منازلاتك، ولقد أضللت بهذه الواقعة سبعين من أهل الطريق فقلت: لله الفضل، فقيل له: كيف علمت أنه شيطان؟ قال: بقوله: قد حللت لك المحرمات)[٤].

وقد ذكر ابن تيمية في فتاويه هذه الحكاية أكثر من مرة، في بيانه كيف فرق أولياء الرحمن بين الكرامة والحالة الشيطانية، وفي بيانه أن الحالة الشيطانية قد تحدث لولي الرحمن، ويستطيع العالم معرفتها، كما حدث للشيخ الجيلاني[٥]، فالجيلاني كان على علم ودراية بدينه، ولذلك عرف أنه شيطان[٦]، فلا يمكن أن تكون الكرامة لهدم

(١) الطريق الصوفي.
(٢) موسى بن الشيخ عبد القادر.
(٣) شذرات الذهب ٤: ٢٠٠.
(٤) الطبقات الكبرى للشعراني ١: ١٠٩.
(٥) انظر أيضاً: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص١٠٢، ١٠٣.
(٦) نحن نختلف مع الأستاذ الدكتور مصطفى حلمي في تعليقه على هذه الكرامة بعد أن أوردها في كتابه (أعمال القلوب بين الصوفية وعلماء أهل الحديث) إذ قال: (ومن المحتمل أن الأسطورة
=

الدين، أو لتحليل حرام وقد سئل الشيخ عبد القادر: كيف عرفت أنه شيطان؟ فقال بقوله إنني حللت لك المحرمات، ويبدو أن الجيلاني عرف أنه شيطان بأسباب أخرى لم يذكرها، لأنه يرى أن المسلم لابد أن يكون عالماً بها، فالشيطان الذي قال له: أنا ربك، ظهر في شكل محدد، والمسلم يعلم أنه لن يرى ربه في هذه الدنيا يقظة[(١)]، وأن وجوه المسلمين المؤمنين سوف تنظر إلى ربها في الآخرة في الجنة[(٢)]، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المطففين: ١٥-١٧][(٣)] كما أن كتب الصحاح قد روت أحاديث الرسول ﷺ التي توضح أن المسلم في الجنة يرى ربه كما يُرى القمر ليلة تمامه، فقد ذكر الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل الأحاديث التي حفظها عن أبيه وغيره من المشايخ، في رؤية الله تعالى ومنها: قال الإمام أبو عبد الرحمن، عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي، أخبرنا وكيع، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله، قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»، قال: ثم قرأ «﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]...» وفي رواية عن جرير عن النبي ﷺ قال:

= دخلت في سياق هذه الكرامة، ولكن مغزاها يشير إلى تفشي دعاوى الكرامات، ووقوف الشيخ في وجه هذا التيار الجارف حتى لا ينساق الصوفية ومريدوهم إلى الانسلاخ عن الشريعة، ولعل تسلسل الوقائع في قصة هذه الكرامة تشير إلى هذا إذ تفسر سبب نجاة الجيلاني بما جاء على لسان الشيطان في مخاطبته له: يا عبد القادر نجوت مني بعلمك...) ص٤٢ المرجع السابق.

(١) مسألة عدم رؤية الله في الدنيا يقظة ليس فيها خلاف بين الفرق الإسلامية ـ على حد علمي ـ.

(٢) (مسألة رؤية الله سبحانه وتعالى في الجنة فيها خلاف، بين السلف من جانب والإباضية والمعتزلة من جانب آخر) وهذا الخلاف بيّنه الشيخ عبد العزيز بن باز في فتواه الشهيرة عن الإباضية والتي انتصر فيها للسلف أو رجح فيها رأي السلف، وتناولها أيضاً الشيخ أحمد بن حمد الخليلي في كتابه (الحق الدامغ) الذي بيّن فيه رأي الإباضية الذي يرجحه، وبينها أيضاً الشيخ أحمد بن سعود السيابي في رده على فتوى ابن باز (الرد على فتوى بن باز) ـ راجع الكتب المذكورة ـ.

(٣) والآيات تبين عدم رؤية الكفار لربهم يوم القيامة.

«ترون ربكم عياناً» وفي رواية: «إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته»[(١)].

وقد بين علماء الحديث أن الأحاديث التي تذكر أن الرسول ﷺ رأى ربه في طرقات مكة أو على ظهر جمل أورق يوم عرفة، أو في صورة شاب أمرد، وضع كفيه على فخذي الرسول ﷺ حتى شعر ببردهما، كلها كذب و افتراء على الرسول ﷺ.

والذي يؤكد لنا معرفة الشيخ عبد القادر التامة بأن أحداً لن يرى ربه في هذه الدنيا، ما حكى عنه من أنه رفع له أمر شخص ادعى أنه يرى الله عزّ وجلّ، فقال له: (أحق ما يقولون عنك؟ فقال: نعم، فنهره ونهاه عن هذا القول، وأخذ عليه أن لا يعود إليه، فقيل للشيخ: أمحق هذا أم مبطل؟ فقال: هذا محق ملبس عليه، وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجمال، ثم خرق من بصيرته إلى بصره لمعة فرأى بصره ببصيرته، وبصيرته يتصل شعاعها بنور شهوده، فظن أن بصره رأى ما شاهد ببصيرته، وإنما رأى بصره ببصيرته وهو لا يدري قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرحمٰن: ١٩-٢٠] وكان جماعة من المشايخ وأكابر العلماء حاضرين هذه الواقعة فأطربهم سماع هذا الكلام، ودهشوا من حسن إفصاحه عن حال الرجل...)[(٢)].

وحكاية الشيخ عبد القادر الجيلاني مع الشيطان الذي ظهر لنا تدلنا ـ أيضاً ـ على أن الأحوال الشيطانية قد تحدث لأولياء الله، فالشيطان يأتي للإنسان من الجهة التي يحبها، وقد يفتح له أبواباً من الخير يريد باباً من الشر ـ كما بين ابن الجوزي في بداية كتابه (تلبيس إبليس) ـ، ونرجح أن ما حدث للشيخ الجيلاني هو ما حدث للإمام محمد أحمد المهدي السوداني، الذي قال: خاطبني سيد الوجود يقظة وذكر أن رأى الرسول ﷺ يقظة، وعبد القادر الجيلاني، والخلفاء الأربعة ـ أبا بكر وعمر وعثمان وعلي ـ رضي الله عنهم، والخضر عليه السلام، وأن الرسول ﷺ أقعده في مكانه، وأخبره بأنه

---

(١) انظر كتاب السنة من ص٤٢ إلى ص٤٧، وانظر أيضاً في هذا الباب أحاديث الرؤية في صحيح مسلم، ط. منشورات الإفتاء جـ١ ص١٦٣، وانظر: الفتاوى، المجلد الثالث، مجمل اعتقاد السلف، المبحث الخاص بمن كذب بأحاديث الرؤية.

(٢) قال الشعراني في طبقاته بعد ذكره لهذا الكلام عبارة فيها نظر! قال: (ومزق جماعة ثيابهم وخرجوا عرايا إلى الصحراء!) والمسألة في رأينا لا تستحق كل هذه التظاهرة خاصة مسألة خروج جماعة عرايا!! انظر الطبقات الكبرى ١/ ١٠٩.

المهدي المنتظر، ومن كذب بمهديته فقد كفر[1]، وقد كتب عبد الرحمن بن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس) فصولاً عن تلبيس إبليس على الزهاد والعباد في هذه المسائل وهكذا نستطيع أن نميز بين الكرامات وغيرها من خوارق العادات، فالمعجزات للأنبياء، وهي آيات الله الدالة على صدقهم، والكرامات لأولياء الله الصالحين لحجة في الدين أو حاجة في الدنيا، والمغوثات والمعونات لسائر العباد، وقد تحدثُ لفاسق لبراءة ساحته، والأحوال الشيطانية لغير أولياء الله، وقد تحدث لأولياء الله أحياناً عندما يفعلون بدعة مذمومة، أو يأخرون فرضاً عن وقته، أو يعملون عملاً مكروهاً أو حراماً، أو يجريها الشيطان تمهيداً لإضلاله أو إضلال مريديه وأتباعه، وقد يعرف الولي أنها حالة شيطانية كما يحكى عن الشيخ عبد القادر الجيلاني، وقد لا يعرف أنها حالة شيطانية ويظن أنها كرامة كما حدث للإمام محمد أحمد المهدي السوداني[2]،

---

(١) انظر في هذه المسألة الكتب الآتية:
أ ـ منشورات الإمام المهدي، تحقيق الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم، المدير السابق لدار الوثائق المركزية بالسودان، والأستاذ بجامعة النيلين حالياً. (١٩٩٩م).
ب ـ كتاب (يسألونك عن المهدية) لحفيد الإمام المهدي السيد الصادق الصديق عبد الرحمن المهدي، الذي كان رئيساً لوزراء السودان في عهدين، فقد ذكر في هذا الكتاب أن المهدي ما دام أنه قال: خاطبني سيد الوجود يقظة، فهو قول صحيح ـ أو ما معناه ـ ويبدو أن سبب هذه النظرة أو هذا التحليل من السيد الصادق أن المهدي الكبير لم يجرب عليه الكذب، وهو بشر وقد أخطأ المهدي الكبير في هذه العبارة، ولم يستطع أن يفرق بين الكرامة والحالة الشيطانية التي نرجح أنها حدثت له، وقد أخطأ باحث آخر هو (الباحوث) في تحليله لهذه المسألة في بحثه الذي نال به الماجستير في المملكة العربية السعودية، الرياض، عن عقيدة الإمام محمد أحمد المهدي، والذي أشرف عليه الأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس (السوداني الجنسية) فقد أكد الباحوث أن عقيدة الإمام المهدي فاسدة لأنه ادعى المهدية وقال: خاطبني سيد الوجود يقظة، أما الجانب الجهادي في الثورة المهدية فلم يتطرق إليه الباحثون بالصورة التي كان يجب عليه أن يبينها، وقد تطرق لها الأستاذ الدكتور حسن مكي محمد أحمد في كتابه (الحركة الإسلامية في السودان) وبين أن السبب المباشر في التفاف أهل السودان حول المهدي، بل السبب المباشر في التفاف أهل السودان (الآن) حول السيد الصادق المهدي، ولذلك يمكن أن يراهن السيد الصادق على الشارع السوداني ـ على حد تعبير د. حسن مكي في صحيفة الخليج ـ أي أنه سيفوز في أي انتخابات يخوضها في السودان لما لجده من مكانة كبيرة في نفوس السودانيين.

(٢) صنف الأستاذ عباس محمود العقاد، رحمه الله، كتابه (الإسلام في القرن العشرين) وتحدث فيه عن مهدي السودان، ومهدي الصومال، والميرزا غلام أحمد القادياني زعيم القاديانية، وقد =

الذي ظن بأنه رأى رسول الله ﷺ يقظة، علماً بأن رؤيته يقظة ﷺ لم يروَ فيها على سبيل الاستقلال حديث صحيح ولا ضعيف، لا مرفوع ولا موقوف، ولا مرسل، وإنما جاءت الأحاديث التي رويت في رؤيته مناماً، وجعل ابن حجر رؤيته ﷺ يقظة مستحيلة شرعاً، لما يلزم عليها من المستحيل شرعاً، وقد جعل القرطبي رؤية الرسول ﷺ يقظة مستحيلة عقلاً، لأنها تستلزم أن يخرج من قبره، أي أن القائلين بها يقولون: إن فلاناً رآه في محل كذا، قال القرطبي: ويلزم ذلك من المحالات ما يدرك فساده بدلائل العقول، أي؛ لأنه إن رؤي في أماكن متعددة في آن واحد تعلقت نفسه الشريفة بأكثر من بدن، ولزم خلو قبره الشريف منه. . . . ، قال: وهي جهالات لا يلتزم بها من له مسكة من العقول، وملتزم شيء من ذلك مختل مخبول.

وقد أوّل جمهور العلماء مسألة الرؤية في اليقظة بأن ذلك بشارة لمن رآه في المنام بالموت على الإسلام، ورؤيته في الجنة، أو بشارة لمن آمن به من معاصريه ورآه في المنام بالصحبة، ورؤيته في الدنيا يقظة قبل أن يموت، أو بشارة لمن رآه في المنام بأن الله يجعل رؤياه حقاً، ويرى تأويلها ومضمونها صحيحاً، وقالوا: إنه لا يقوم دليلاً على ثبوت رؤيته ﷺ في اليقظة لما تطرق إليه من الاحتمال، والقاعدة الأصولية أن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال بطل به الاستدلال، (وأما أقوال بعض الصوفية بثبوتها فلا تقوم دليلاً، لأنهم مقيدون بالكتاب والسنة، وكلامهم ما لم يوافق شيئاً منها مردود عليهم)(١).

وقد حاول أبو حامد الغزالي تفسير الرؤية بصورة تختلف عن تفسير الذين قالوا إنها مستحيلة، قال الغزالي: (ليس معنى قوله ﷺ: رآني، أنه رأى جسمي وبدني، وإنما المراد أنه رأى مثالاً، صار ذلك المثال آلة تأدى به المعنى الذي في نفسي إليه، وكذلك قوله ﷺ: فسيراني في اليقظة، ليس المراد أنه يرى جسمي وبدني. . . . وقال

= أخطأ العقاد في جمعه للثلاثة في كتاب واحد، وفي عدم بيانه أن مهدي السودان (الإمام محمد أحمد المهدي) يعذر بالجهل في هذه المسألة، بينما يكفر من ادعى أنّه المسيح المحمدي المنتظر، والذي يعتبر نفسه صاحب رسالة ثانية، والذي نسخ كثيراً من أحكام الشريعة الإسلامية، فالمهدي كان مجاهداً طوال حياته، والميرزا غلام كتب أكثر من خمسين ألف صفحة في تمجيد الإنجليز والدعوة إلى ترك الجهاد.

(١) في التصوف، لمحمد المبارك عبد الله، ط وزارة الأوقاف، السودان، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص٣٢، ٣٣.

الغزالي: والآلة تارة تكون حقيقية، وتارة تكون خيالية، والنفس غير المثال المتخيل، فما رآه في الشكل ليس هو روح المصطفى ولا جسمه، بل هو مثال له على التحقيق، ومثال ذلك من يرى الله في المنام، فإن ذاته منزهة عن الشكل والصورة، ولكن تنتهي تعريفاته إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نور أو غيره، ويكون ذلك المثال حقاً في كونه واسطة في التعريف، فيقول الرائي: رأيت الله في المنام، لا يعني أنني رأيت ذات الله كما الشيخ يقول في حق غيره).

وقال الشيخ محمد المبارك عبد الله في كتابه (في التصوف): (وأنا أتسريح لما نقله الألوسي في هذه المشكلة الغيبية والخلاف عليها، عن إمام الحرمين من أنه قال: والذي يغلب على الظن أن رؤيته ﷺ بعد وفاته بالبصر ليس كالرؤية المتعارف عليها بين الناس من رؤية بعضهم لبعض، وإنما هي جمعية حالية وحالة برزخية وأمر وجد... لا يدرك حقيقته إلا من باشره، ولشدة شبه تلك الرؤية بالرؤية البصرية المتعارف عليها يشتبه الأمر على كثير من الرائين، فيظن أنه رآه ﷺ ببصره الرؤية المتعارف عليها وليس كذلك، وربما يقال: إنها رؤية قلبية، ولقوتها تشبه البصرية)[١] ويشبه قول إمام الحرمين قول من قال من الصوفية:

فمن يدعي في هذه الدار أنه ... رأى المصطفى حقاً فقد فاه مشتطاً

ولكن بين النوم واليقظة التي ... تباشر هذه الرتبة مرتبة وسطى[١]

وأما رؤية الرسول ﷺ مناماً فهي محل وفاق، ولا يتمثل الشيطان به ﷺ، وقد روى حديثها الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه غيرهما.

الأحوال الشيطانية:

هي الأحوال التي يجريها الشيطان على يد الإنسان تمهيداً لإضلاله، أو إضلال مريديه ومحبيه، وسببها ما نهى الله عنه، والشيطان قد يساعد أصحابها، وقد يعلم بعض الناس أن ما حدث من الشيطان، ولكن يعظم ذلك لهواه، ولا يحاول الابتعاد عنه.

وقد تحدث الأحوال الشيطانية لأولياء الله في حالة اقتران ما يفعلوه ببدع مذمومة في الدين، أو يفعل أحدهم فعلاً منافياً للدين، وهذه الأحوال تبطل بتوحيد الله، وعلى الإنسان أن يقرأ آية الكرسي بصدق ومن يفضل الأحوال الشيطانية على طريق القرآن

(١) في التصوف لمحمد المبارك، ص٣٣، ٣٤.

الكريم بهدف العلو في الأرض فهو كافر ـ في رأي علماء السلف ـ وقد فرق العلماء بين الأحوال الشيطانية والمخارق أو المخاريق، فالمخارق أو المخاريق أشياء مفتعلة بالحيل والتلبيس والشعوذة والدجل، ومن يفعلها يعلم أنها مخاريق، وإن جازت الحيلة على غيره، ومن هنا فهي تختلف عن الأحوال الشيطانية[1].

نماذج من الأحوال الشيطانية

المثال الأول:

تارة يتمثل الجني في صورة الإنسي (فإذا استغاث به بعض أتباعه، أتاه فظن أنه الشيخ نفسه، وتارة يكون التابع قد نادى شيخه وهتف به: يا سيدي فلان، فينقل الجني ذلك الكلام إلى الشيخ بمثل صوت الإنسي، حتى يظن الشيخ أنه صوت الإنسي بعينه، ثم إن الشيخ يقول: نعم، ويشير إشارة يدفع بها ذلك المكروه، فيأتي الجني بمثل ذلك الصوت والفعل، فيظن ذلك الشخص أنه شيخه نفسه، وهو الذي أجابه)[2]، وخلصه مما يكره، ولا يشك أبداً، وقد يظن أن ملكاً قد تصور بصورته وجاءه، ولا يعلم أن تلك حالة شيطانية، وليست كرامة، فالكرامة لا تحدث لمن أشرك بالله، وأضلته الشياطين، والملائكة لا تجيب مشركاً[3] قال ابن تيمية: (وقد جرى هذا لعدة من المشايخ بالعراق والجزيرة والشام، وتارة يقص شعره في النوم، فيصبح فيجد شعره مقصوصاً، وتارة يقول: أنا الشيخ فلان، فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه وقص شعره)[4].

وقال ابن تيمية: (وهذا يقع كثيراً لكثير من هؤلاء، ويسمون تلك الصورة دقيقة فلان، وقد يقولون: هو معناه تشكل، وقد يقولون: روحانياته، ومن هؤلاء من يقول: إذا مت فلا تدعوا أحداً يغسلني، ولا فلاناً يحضرني، فإني أنا أغسل نفسي، فإذا مات

---

(١) انظر لمعرفة المزيد عن المخاريق والأحوال الشيطانية: (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) ص١٠٢، ١٠٣.
وانظر مناظرة ابن تيمية لغلاة البطائحية الأحمدية الرفاعية في مجموع الفتاوى، ط١، الرياض، ١٣٨٦هـ.

(٢) الفتاوى، لابن تيمية، ١٣: ٨٤، ٨٥.

(٣) الفتاوى: ١٣: ١٧.

(٤) المصدر السابق ١٣: ٨١.

رأوه قد جاء وغسل ذلك البدن، ويكون ذلك جنياً قد قال لهذا الميت: إنك تجيء بعد الموت واعتقد ذلك حقاً، فإنه كان في حياته يقول له أموراً، وغرض الشيطان أن يضل أصحابه، وأما بلاد المشركين كالهند فهذا كثيراً ما يرون الميت بعد موته جاء وفتح حانوته، ورد ودائع، وقضى ديوناً، ودخل إلى منزله ثم ذهب، وهم لا يشكون أنه الشخص نفسه، وإنما هو شيطان تمثل في صورته، ومن هؤلاء من يكون في جنازة أبيه أو غيره، والميت على سريره، وهو يراه آخذاً يمشي بين الناس، فلا يشك ابنه أن أباه نفسه كان هو الماشي معه الذي رآه هو دون الشيطان قد سمى نفسه خالداً وغير خالد، وقال لهم: إنه من رجال الغيب، وهم يعتقدون أنه من الإنس الصالحين، ويسمونه خالداً الغيبي، وينسبون الشيخ إليه، فيقولون: محمد الخالدي ونحو ذلك)[١].

وقال ابن تيمية: (وهؤلاء الذين لهم مكاشفات ومخاطبات يرون ويسمعون ما له وجود في الخارج، وما لا يكون موجوداً إلا في أنفسهم كحال النائم، وهذا يعرفه كل أحد، ولكن قد يرون في الخارج أشخاصاً يرونها عياناً، وما في خيال الإنسان لا يراه غيره، ويخاطبهم أولئك الأشخاص، ويحلمونهم ويذهبون بهم إلى عرفات فيقعون بها، وأما إلى غير عرفات، ويأتوهم بذهب وفضة، وطعام ولباس، وسلاح، وغير ذلك، ويخرجون إلى الناس، ويأتوهم أيضاً بما يطلبونه مثل من يكون له إرادة في امرأة أو صبي فيأتونه بذلك، إما محمولاً في الهواء وإما بسعي شديد، ويخبر أنه وجد في نفسه من الباعث القوي ما لم يمكنه المقام معه، أو يخبر أنه سمع خطاباً، وقد يقتلون له من يريد قتله من أعدائه أو يمرضونه فهذا كله موجود كثيراً، لكن من الناس من يعلم أن هذا من الشيطان، وأنه من السحر، وأن ذلك حصل بما قاله، وعمله من السحر، ومنهم من يعلم أن ذلك من الجن، ويقول: هذه كرامة أكرمنا بتسخير الجن لنا، ومنهم من يظن أولئك الأشخاص إلا آدميين أو ملائكة فإن كانوا غير معروفين، فهم رجال الغيب، وإن تسموا فقالوا: هذا هو الخضر، وهذا هو إلياس، وهذا هو أبو بكر وعمر، وهذا هو الشيخ عبد القادر أو الشيخ عدي أو الشيخ أحمد الرفاعي، أو غير ذلك، ظن الأمر كذلك، فهنا لم يغلط لكن غلط عقله حيث لم يعرف أن هذه شياطين تمثلت على صورة هؤلاء، وكثير من هؤلاء يظن أن النبي ﷺ نفسه، أو غيره من الأنبياء والصالحين يأتيه في اليقظة، ومن يرى ذلك عند قبر النبي ﷺ أو الشيخ،

(١) الفتاوى ١٣: ٧٩.

وهو صادق في أنه إياه من قال إنه النبي أو الشيخ، أو قيل له ذلك فيه، لكن غلط حيث ظن صدق أولئك، والذي له عقل وعلم يعلم أن هذا ليس النبي ﷺ تارة لما يراد منهم مخالفة الشرع، مثل أن يأمروه بما يخالف أمر الله ورسوله، وتارة يعلم أن النبي ﷺ ما كان يأتي أحداً من أصحابه بعد موته في اليقظة، ولا كان يخاطبهم من قبره، فكيف يكون هذا لي، وتارة يعلم أن الميت لم يقم من قبره، وأن روحه في الجنة لا تصير في الدنيا هكذا).

والذي يتبع ما يرد عليه من الخطاب (أو ما يراه من الأنوار والأشخاص الغيبية، ولا يعتبر ذلك بالكتاب والسنة فإنما يتبع ظناً لا يغني من الحق شيئاً، فليس في المحدثين الملهمين أفضل من عمر كما قال ﷺ: «إنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر منهم»، وقد وافق عمر ربه في عدة أشياء، ومع هذا فكان عليه أن يعتصم بما جاء به الرسول، ولا يقبل ما يرد عليه حتى يعرضه على الرسول، ولا يتقدم بين يدي الله ورسوله، بل يجعل ما ورد عليه إذا تبين له من ذلك أشياء خلاف ما وقع له فيرجع إلى السنة، وكان أبو بكر يبين له أشياء خفيت عليه فيرجع إلى بيان الصديق وإرشاده وتعليمه، كما جرى يوم الحديبية، ويوم مات الرسول ﷺ ويوم ناظره في مانعي الزكاة، وغير ذلك، وكانت المرأة ترد عليه ما يقوله وتذكر الحجة من القرآن فيرجع إليها، كما جرى في مهور النساء ومثل ذلك كثير)[(١)].

المثال الثاني:

الإخبار عن المسروق

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (.. وإذا سئل الشيخ المخدوم عن أمر غائب إما سرقة، وإما شخص مات، وطلب منه أن يخبر بحاله، أو علة في النساء أو غير ذلك، فإن الجني قد يمثل ذلك فيريه صورة المسروق، فيقول الشيخ: ذهب لكم كذا وكذا، وإذا أراد الشيخ أن يدل صاحب المال على مكانه، دله الجني على مكانه، فيذهبون إليه فيجدونه كما قال، أو يظهر الجني صورة المال، أو يحضر المال، لأن الذي سرق المال أيضاً جني، (والجن يخاف بعضهم من بعض، كما أن الإنس يخاف بعضهم بعضاً، فإذا دل الجن عليه جاء إليه أولياء السارق فآذوه، وأحياناً لا يدل لكون السارق

(١) الفتاوى لابن تيمية ١٣: ٨٤، ٨٥.

وأعوانه يخدمونه ويرشونه، كما يصيب من يعرف اللصوص من الإنس، تارة يعرف السارق، ولا يعرف به، إما لرغبة ينالها منه، وإما لرهبة وخوف منه، وإذا كان المال المسروق لكبير يخافه ويرجوه عرفه سارقه، فهذا وأمثاله من استمتاع بعضهم ببعض).

نوع ثالث من الأحوال الشيطانية:

قد يكون تابع الشيخ (الحوار) يأكل في إناء، فيضع الجني يده في صورة يد الشيخ، ويأخذ من الطعام، فيظن الحوار أن شيخه يأكل معه، والجني يمثل للشيخ في اللحظة نفسها مثل ذلك الإناء، فيضع يده حتى يظن الشيخ أن يده في ذلك الإناء فإذا حضر الحوار (المريد أو تابع الشيخ) ذكر له الشيخ أن يده كانت في الإناء الذي يأكل منه، فيصدقه، ويعدها كرامة لشيخه، وتكون هي حالة شيطانية أجراها الشيطان تمهيداً لإضلال الشيخ ومريديه من هذا الباب[1].

نموذج رابع من الأحوال الشيطانية:

ذكر ابن تيمية في فتاويه أن من الأحوال الشيطانية ما كان يحدث للشيخ عثمان الذي كان يأتيه خفير الفرنج النصاري راكباً أسداً ويخلو به ويحادثه ويقول: يا شيخ عثمان وكلت بحفظ خنازيرهم، فيعذره عثمان وأتباعه في ذلك، ويرون أن الله أمره بهذا كما أمر الخضر أن يفعل ما فعل، والواجب على الشيخ عثمان أن يسأل خفير الفرنج هل وكلك الله أن تتوكل بحفظ خنازيرهم؟ فإن قال نعم، ظهر كذبه، وإن قال: بل أمر ألقي في قلبي قيل له: (فهذا من أمر الشيطان لا من أمر الرحمن الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، ولكنه من الأمر الذي كونه وقدره[2] كشرك المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا...﴾ [الأنعام: ١٤٨][3] وأن ركوبه الأسد حالة شيطانية وليست كرامة.

---

(١) الفتاوى لابن تيمية ١٣: ٨٤، ٨٥.

(٢) في هذا الكلام بيان للفرق بين الأمر الكوني والأمر الديني الشرعي، وبين المشيئة الإلهية والإرادة الدينية وهذا ما كرره ابن تيمية في فتاويه واستدل فيه بكلام الجنيد بن محمد سيد الطائفة الصوفية ـ والشيخ عبد القادر الجيلاني وحماد الدباس.

(٣) الفتاوى ١٣: ٢٢٠، ٢٢١.

كرامات الشيخ عبد القادر الجيلاني

للشيخ عبد القادر الجيلاني كرامات كثيرة، ذكر بعضها اليافعي في كتاب (نشر المحاسن) وتكلم عن بعضها ابن تيمية في فتاويه[١] وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب، وصاحب كتاب فوات الوفيات، وقد جمع لنا النبهاني في جامع كرامات الأولياء عدداً منها، وذكر الشطنوفي في كتابه (بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في بعض مناقب القطب الرباني عبد القادر الجيلاني) عدداً كبيراً من كرامات الجيلاني، ونقل لنا منها الدكتور القحطاني في أطروحته التي نال بها الدكتوراه في المبحث الرابع الخاص بالكرامة عند الصوفية، قال ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب[٢]: (وكراماته تخرج عن الحد، وتفوت الحصر والعد، قال الشيخ موفق الدين[٣]، وقد سئل عن الشيخ عبد القادر: أدركناه في آخر عمره فأسكننا مدرسته. . . إلى أن قال: ولم أسمع عن أحد يحكي عنه من الكرامات أكثر مما يحكى عنه، ولا رأيت أحداً يعظمه الناس من أجل الدين أكثر منه وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ما نقلت إلينا كرامات أحد بالتواتر إلا الشيخ عبد القادر[٤]، وقال ابن رجب: (هو شيخ العصر، وقدوة العارفين، وسلطان المشايخ، صاحب المقامات والكرامات)[٥]، وقال الإمام الذهبي: (وكانت له كرامات ظاهرة)[٦]، وفي هذا المبحث أذكر أولاً بعض ما ذكره الدكتور القحطاني نقلاً عن الشطنوفي مع تعليقاته على ذلك، وبيان رأيه في هذه التعليقات، وأذكر ثانياً ما نقله النبهاني في جامع كرامات الأولياء من كرامات نسبت للشيخ

---

(١) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

(٢) شذرات الذهب ٤: ٢٠٠.

(٣) موفق الدين، ابن قدامة المقدسي (٥٤٦- ٦٢٠)، الشيخ، الزاهد، الفقيه، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر صاحب المغني، له مؤلفات كثيرة ذكرها أصحاب التراجم.
انظر: الوصية المباركة للإمام موفق الدين ط دار الكلم الطيب، دمشق ١٩٩٦م تحقيق الدكتور الشريجي، المقدمة، مقدمة المحقق.

(٤) شذرات الذهب ٤: ٢٠٠، وفي فوات الوفيات ٢: ٣٧٣ قال أبو الحسين اليونيني سمعت الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول: ما نقلت إلينا كرامات أحد بالتواتر إلا الشيخ عبد القادر.

(٥) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١/ ٢٩٠.

(٦) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٤٩.

الجيلاني، ثم أذكر ما قاله الدكتور محمد غلاب في كتابه التنسك الإسلامي عن كرامات الجيلاني، حتى يتبين لنا صحة ما نسب للجيلاني، وهل جميع الخوارق التي نسبت إليه كرامات أم فيها أحوال شيطانية وشطحات.

الحكايات التي ذكرها الدكتور القحطاني:

ذكر الشطنوفي المقرئ المصري حكايات كثيرة في كتابه (بهجة الأسرار ومعدن الأنوار) على أساس أنها كرامات للجيلاني، وقد ذكر بعضها الدكتور القحطاني في ذكره لنماذج من الأباطيل والخرافات التي أوردها الشطنوفي في كتابه، والحق أنه إذا طبقنا المقياس الدقيق الذي وضعه الشيخ عبد القادر وغيره للتمييز وبيان الفرق بين خوارق العادات لوجدنا أن معظم الحكايات التي ذكرها القحطاني نقلاً عن الشطنوفي لا يدخل في باب الكرامات، وأن بعضها قد يدخل في باب الشطحات وفيما يأتي نماذج من تلك الحكايات التي أوردها الشطنوفي في كتابه مع تعليق القحطاني عليها.

أ ـ عن عمر البزار قال: خرجت مع الشيخ عبد القادر إلى الجامع فلم يسلم عليه أحد، فقلت: يا عجباً نحن كل جمعة لا نصل إلى الجامع إلا بمشقة من ازدحام الناس على الشيخ فلم يتم ما بخاطري حتى نظر إليّ الشيخ مبتسماً وأهرع الناس للسلام عليه حتى حالوا بيني وبينه، فقلت في نفسي ذلك الحال خير من هذا، فالتفت إلي مبتسماً مسابقاً لخاطري وقال: يا عمر أنت الذي أردت هذا، أو ما علمت أن قلوب الناس بيدي إن شئت صرفتها عني، وإن شئت أقبلت بها إليّ(١).

ب ـ عن أبي محمد شاور السبتي المحلي قال: دخلت بغداد لزيارة الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني، وأقمت عنده مدة فلما عزمت إلى الرجوع إلى مصر على قدم التجريد من الخلق ومن المعلوم استأذنته فأوصاني الا أسأل أحداً شيئاً، ووضع

(١) القحطاني: مرجع سابق ص٥٧٨ نقلاً عن بهجة الأسرار للشطنوفي (٧٦) وقال القحطاني في تعليقه على هذه الحكاية: (... فانظر إلى هذا العدوان الأثم على مقام الربوبية فإن قلوب الناس بيد رب الأرباب ومالك السموات والأرض ففي الحديث الصحيح يقول النبي ﷺ: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء» صحيح مسلم ٥٤، ٢٦، بينما هذه القصة تقول بأن قلوب الناس بيد الشيخ عبد القادر، وهذا كذب مردود لا يليق نسبته إلى الشيخ عبد القادر ويحمل وزره من وضعه ورواه، ونحن مع الدكتور القحطاني فيما ذهب إليه.

أصبعه في فمي وأمرني أن أمصَّها، ففعلت وقال لي: انصرف راشداً مهدياً فسرت من بغداد إلى مصر وأنا لا آكل ولا أشرب وقوّتي في زيادة)(١).

جـ ـ عن أبي حفص عمر الكيماني قال: (كان الشيخ عبد القادر يمشي في الهواء على رؤوس الأشهاد في مجلسه، ويقول: ما تطلع الشمس حتى تسلِّم عليّ وتجيء السنة إلي وتسلم عليّ وتخبرني بما يجري فيها، ويجيء الأسبوع ويسلم عليّ ويخبرني بما يجري فيه، ويجيء اليوم ويسلم عليّ ويخبرني بما يجري فيه، وعزة ربي إن السعداء والأشقياء ليعرضون على عيني في اللوح المحفوظ، أنا غائص في بحار علم الله ومشاهداته، أنا حجة عليكم جميعكم، أنا نائب رسول الله ﷺ ووارثه في الأرض)(٢).

د ـ نقل الشطنوفي في بهجته عن خادم الشيخ عبد القادر المعروف بالحطاب، قال: اجتمع على الشيخ عبد القادر ٢٥٠ ديناراً ديناً لأرباب أصناف فجاء شخص لا أعرفه، فدخل عليه بلا استئذان، وجلس يحدثه طويلاً وأخرج له ذهباً وقال: هذا وفاء الدين، وانصرف، فأمرني الشيخ أن أوصل إلى كل ذي حق حقه وقال: هذا صيرفي

---

(١) القحطاني، مرجع سابق: ص٥٧٩ نقلاً عن بهجة الأسرار للشطنوفي (٤٠). قال القحطاني: (... وهذه القصة من ضلالات الصوفية ومن منكراتهم، وهي باطلة وغير مقبولة، إذ كيف يستطيع هذا الرجل أن يقطع تلك المسافة الطويلة بين بغداد ومصر وبوسائل نقل بدائية دون أن يتناول شيئاً من الطعام والشراب مكتفياً بتلك المصة التي مصها من إصبع الشيخ عبد القادر، وإذا كان سيد البشر ﷺ كان يجوع ويعطش، ولم يكن يفعل ذلك لنفسه ولا لأحد من أصحابه، ولم ينقل عنهم ـ رضي الله عنهم ـ وسيرهم تدل على أنهم كانوا يجوعون ويعطشون أنهم كانوا يمصون أصابعهم فيكفيهم ذلك). ـ القحطاني ص٥٧٩ ـ ويمكننا أن نضيف: ولم ينقل لنا أن الشيخ عبد القادر كان يفعل ذلك مع نفسه، وما نقله مؤرخو ومصنفو كتب التراجم عنه يدل على أنه كان يجوع ويعطش.

(٢) القحطاني: مرجع سابق ص٥٧٩ نقلاً عن بهجة الأسرار للشطنوفي ٢٢، قال القحطاني في تعليقه على هذه الحكاية (انظر إلى هذا الهراء الذي يستحي الإنسان من إيراده، والذي لا يمكن نسبته إلى الشيخ عبد القادر لمصادمته للشرع والعقل، إذ كيف يستطيع الإنسان أن يمشي في الهواء، ثم ما هذا الهذيان حول سلام الشمس والسنة والشهر والأسبوع واليوم وإخباره بما يجري فيها، إن ذلك لم يحدث حتى لسيد ولد آدم وأفضل الخلق على الإطلاق صلوات الله وسلامه عليه، مما يدل على بطلان هذا الكلام وكذبه، وهذه الرواية ظاهرة الاختلاق وهي شبيهة بالروايات السابقة والتي يحمل وزرها من وضعها ومن نقلها، ونحن نتفق مع الدكتور القحطاني فيما ذهب إليه، فما عرف عن الشيخ الجيلاني يخالف هذه الحكاية.

القدر، قلت: وما صيرفي القدر؟ قال: ملك يرسله الله تعالى إلى من عليه دين من الأولياء فهو يوفيه عنه)[١].

هـ ـ عن عدي بن مسافر[٢] قال: (أمطرت السماء مرة والشيخ عبد القادر يتكلم فتفرق بعض أهل المجلس فرفع رأسه نحو السماء وقال: أنا أجمع وأنت تفرق! فسكنت المطر عن المجلس وبقي على حاله يقع خارج المدرسة، ولا يقطر على المجلس قطرة)[٣].

قال القحطاني[٤]: (.... ولست أدري كيف يستسيغ هؤلاء ترويج مثل هذه الأساطير والأكاذيب، إذ كيف يجرؤ الشيخ عبد القادر على مخاطبة الله عز وجل بهذه اللهجة، وهو المعروف بتعظيمه لله ـ سبحانه ـ إن هذا المحال الذي لم يقع حتى للنبي ﷺ، فقد استسقى الناس في يوم الجمعة، ثم نزل المطر حتى اشتكى الناس فدعا رسول الله ﷺ ربه دعاء العبد الضعيف قائلاً: «اللهم حوالينا ولا علينا»[٥].

كرامات ذكرها صاحب كتاب قلائد الجواهر[٦]

الدكتور محمد غلاب وكرامات الجيلاني:

قال الدكتور محمد غلاب في كتابه التنسك الإسلامي ـ وهو يتحدث عن الجيلاني ـ: (ولفرط تقواه واستقامته ونقاء أخلاقه العملية من جهة، ولسمو ما أثر عنه

---

(١) القحطاني: ص٥٨٠ نقلاً عن بهجة الأسرار للشطنوفي (٧٤) وقال القحطاني في تعليقه على هذه الحكاية: (انظر إلى هذا الدجل الصريح الذي تمجه العقول، والذي هو من ضلالات وخرافات القوم، فلقد مات رسول الله ﷺ ودرعه مرهون عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير، لم يقدر صيرفي القدر على الوفاء بها).
والذي نرجحه ـ إن صحت هذه الرواية ـ أن يكون هذا من الجن، ولم يستطع الجيلاني في هذه المرة معرفة ذلك، وظن أنه صيرفي القدر، والجن المسلم قد يساعد الأولياء.
انظر في هذه المسألة فتاوى ابن تيمية خاصة كتابه الفرقان بين الحق والباطل.

(٢) عدي بن مسافر الأموي، من شيوخ الصوفية، أثنى شيخ الإسلام ابن تيمية عليه كثيراً وصنف رسالته الشهيرة (الوصية الكبرى) وهي رسالة للعدوية ـ المنتمين إلى عدي بن مسافر الأموي ـ.

(٣) بهجة الأسرار للشطنوفي (٧٥).

(٤) القحطاني: مصدر سابق ص٥٨٠، ٥٨١.

(٥) رواه البخاري حديث (١٠١٤).

(٦) كتاب قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر، صنفه محمد بن يحيى الحنبلي.

من العبارات الرفيعة التي تدل على وصوله إلى ربه من جهة أخرى، عزيت إليه كرامات كثيرة، ونسبت إليه خوارق بعضها حقيقي، وبعضها خرافي، ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل إن خصومه من الأشرار والخبثاء قد لصقوا به من العبارات ما يثبت الغرور حيناً، والخبل أو عدم الاتزان حيناً ثانياً، والمروق عن الشرع حيناً ثالثاً، وهناك نموذجاً من تلك الجمل المزعومة التي ترتاب فيها، بل نكاد نجزم بانتحالها: (إن الأحوال الصوفية عندي كأثواب معلقة في حجرة ألبس منها ما أشاء)، أو يقول: (إذا سألتم الله كلمة من فمي)، أو يحدثنا عن نفسه فيقول: كنت وأنا ابن عشر سنين في بلدنا أخرج من دارنا إلى المكتب فأرى الملائكة عليهم السلام يمشون حولي، فإذا وصلت إلى المكتب سمعت الملائكة يقولون: افسحوا لولي الله حتى يجلس، فمر بنا رجل ما عرفته يومئذ، فسمع الملائكة يقولون ذلك، فقال لأحدهم: من هذا الصبي؟ فقال له أحدهم: هذا من بيت الأشراف، قال: سيكون له شأن عظيم، هذا يعطى فلا يمنع، ويمكن فلا يحجب، ويقرب فلا يمكر به، ثم عرفت ذلك الرجل بعد أربعين سنة، فإذا هو من الأبدال في ذلك الوقت، أو كقوله (كنت صغيراً في بلدنا فخرجت إلى السواد في يوم عرفة، وقيمت بقرة حراثة فالتفتت إليه البقرة، وقالت: يا عبد القادر ما لهذا خلقت، فرجعت فزعاً إلى دارنا، وصعدت إلى سطح الدار، فرأيت الناس واقفين بعرفات، فجئت إلى أمي وقلت لها: هبيني لله عزّ وجلّ، وأذني لي في المسير إلى بغداد لأشتغل بالعلم، وأزور الصالحين فسألتني عن سبب ذلك فأخبرتها خبري).

هذا نموذج مما نسب زيفاً إلى الجيلاني وأثبت في بعض الكتب المنتحلة ككتاب (قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر) وهو كتاب ألفه محمد بن يحيى الحنبلي وليس فيه ما يعتمد عليه[1].

كرامة أخرى ذكرها صاحب كتاب قلائد الجواهر:

نسبت للشيخ الجيلاني ضمن كراماته أن أحد الحاضرين لمجالس وعظه كان يحمل كتاباً يشتمل على شيء من الفلسفة وعلوم الروحانيات، واكتشف الجيلاني فحوى الكتاب دون أن يطلع عليه أو يقرأه إذ قال لصاحبه: بئس الرفيق كتابك هذا قم فاغسله، ويقول صاحب الكتاب فعزمت أن أقوم بين يديه أطرحه في شيء لا أحمله بعد ذلك خوفاً

---

(١) محمد غلاب (دكتور): التنسك الإسلامي، الكتاب الثامن والستون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر ط١٩٧٠م ص١٠٧، ١٠٨.

من الشيخ، ولم تسمح نفسي بغسله لمحبتي فيه، وكان قد علق بذهني شيء من مسائله وأحكامه، فنهضت لأقوم على هذه النية، فنظر إليّ الشيخ كالمتعجب مني، فلم أستطع النهوض وأنا حالي مقيد علي، فقال لي: ناولني كتابك هذا فإذا هو أبيض(١).

وهذه الكرامة تشبه ما نقله ابن تيمية ـ بسنده ـ عن عمر بن محمد السهروردي، قال السهروردي: كنت قد عزمت على أن أقرأ شيئاً من علم الكلام وأنا متردد، هل أقرأ الإرشاد لإمام الحرمين أو نهاية الأقدام للشهرستاني، أو كتابه شيخه، فذهبت مع خالي أبي نجيب(٢)، وكان يصلي بجنب الشيخ عبد القادر، قال: (فالتفت الشيخ عبد القادر وقال لي: يا عمر ما هو زاد القبر، فرجعت عن ذلك)(٣)، وذكر ابن تيمية في كتابه الاستقامة بعد ذكر هذه الكرامة أنه واضح أن الشيخ الجيلاني كاشف السهروردي بما كان في قلبه، ونهاه عن الكلام الذي كان ينسب إليه القشيري ونحوه.

النبهاني(٤) وكرامات الجيلاني:

قال النبهاني في جامع كرامات الأولياء: (سيدي عبد القادر الجيلاني، سلطان الأولياء وإمام الأصفياء، وأحد أركان الولاية الأقوياء الذين وقع الإجماع على ولايتهم عند جميع أفراد الأمة المحمدية، من العلماء وغير العلماء، رضي الله عنهم، وعن سائر الأولياء، قال السراج: روينا أنه جاء الشيخ أبو المظفر الحسن بن تميم بن أحمد البغدادي التاجر إلى الشيخ حماد الدباس(٥) رحمه الله سنة ٥٢١هـ وقال: قد

(١) مصطفى حلمي (دكتور): أعمال القلوب بين الصوفية وعلماء أهل السنة ص٤٠ نقلاً عن قلائد الجواهر ص٢٦.

(٢) أبو نجيب السهروردي هو عبد القادر بن عبد الله بن محمد البكري، فقيه شافعي ولد بسهرورد سنة ٤٩٠هـ وتوفي ببغداد سنة ٥٦٣هـ انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢/ ٣٧٣ـ ٣٧٤. طبقات الشافعية ٧/ ١٧٣ـ ١٧٥.

(٣) ابن تيمية: الاستقامة ١/ ٨٧.

(٤) يوسف بن إسماعيل النبهاني (١٢٦٥ـ ١٣٥٠هـ).
جامع كرامات الأولياء، تحقيق ومراجعة إبراهيم عطوة عوض، ط. المكتبة الثقافية بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م جـ٢ ص٢٠٢ وما بعدها.

(٥) حماد الدباس: من شيوخ الشيخ عبد القادر الجيلاني في التصوف والزهد، وهو حماد بن مسلم بن دوّه، الدباس، الزاهد، أبو عبد الله يلقب جده مالك بن طوق بالرحبي وقد اشتهر حماد الدباس بكنيته ونسبة جده، فكان يعرف في بغداد بأبي عبد الله الرحبي، انظر ترجمته في الكتب الآتية:
ابن الجوزي: المنتظم ١/ ٢٣.

=

جهزت لي قافلة إلى الشام، فيها بضاعة بسبعمائة دينار، فقال: إن سافرت في هذه السنة قتلت وأخذ مالك، فخرج مغموماً، فوجد الشيخ عبد القادر، وهو شاب يومئذ فحكى له، فقال: سافر تذهب سالماً وترجع غانماً، والضمان عليّ فسافر وباعها بألف دينار، ودخل في سقاية حلب لحاجة، فنسي الألف على رف فيها، وأتى المنزل فنام، فرأى العرب قد انتهبته في قافلة وقتلوهم، وضربه أحدهم بحربة فقتلته، فانتبه فزعاً، فوجد أثر الدم في عنقه، وأحس بالألم، وذكر الألف، فقام مسرعاً، فوجدها سالمة ورجع إلى بغداد، وقال: إن بدأت بالشيخ حماد الدباس فهو الأسن، والشيخ عبد القادر هو الذي صح كلامه، فلقي الشيخ حماداً في سوق السلطان فقال: ابدأ بعبد القادر فإنه محبوب، وقد سأل الله فيك سبع عشرة وما قدر من الفقر نسياناً، فجاء للشيخ عبد القادر فابتدأه وقال: قال الشيخ حماد سبع عشرة مرة! وعزة المعبود لقد سألت الله سبعة عشر وسبعة عشر إلى سبعين حتى كان ما ذكره(١).

وقال الإمام اليافعي: حكي أن سيدي عبد القادر طلب من بعض الناس وديعة كانت عنده لبعض الغائبين، فامتنع من تسليمها إليه، وقال له: لو استفتيتك في مثل هذا ما

= ابن العماد: شذرات الذهب ٤/ ٧٣.
الشعراني: الطبقات الكبرى ١/ ١١٦.
الحفيان: نظرات في التصوف ص٣٩٨.

(١) النبهاني: جامع كرامات الأولياء ٢: ٢٠١.
وهذه الحكاية فيها نظر، ولا يمكن أن تكون كرامة فهي تتعارض مع ما عرف عن الجيلاني من علم خاصة بمسألة القضاء والقدر، وإرادة الله في الحكم الكوني وإرادة الله في الحكم الديني، وقد نهى الشيخ الجيلاني والشيخ حماد الدباس عن الاحتجاج بالقدر حتى بعد وقوعه كما بين الشيخ ابن تيمية في رسالته الاحتجاج بالقدر فكيف يدعو الشيخ حماد شخصاً إلى عدم السفر بحجة معرفة القدر! ولا يعلم الغيب إلا الله.
وقد نبه ابن تيمية في رسالته الاحتجاج بالقدر الذي أثنى فيها على الشيخين حماد الدباس والجيلاني نبه إلى أن حكم الله نوعان: خلق وأمر، فالأول ما يقدر من المصائب، والثاني ما يأمر به وينهى عنه، فيجب على العبد الصبر فيما أمر الله به، والصبر عما نهاه عنه، فيفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على المقدور، والمسلم مأمور أن يفعل ما أمر الله به ويدفع ما نهى عنه، وإن كان أسبابه قد قدرت، فيدفع قدر الله بقدر الله، والقدر واقع لا محالة.
قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: كثير من الرجال إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي فيه روزنة، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والولي من يكون منازعاً للقدر لا من يكون موافقاً له.

أفتيتني بتسليمها إلى غير صاحبها، فلما كان بعد ذلك بزمن يسير جاء كتاب صاحبها إلى المودع المذكور وهو يقول: سلم الوديعة إلى الشيخ عبد القادر فقد صارت للفقراء فسلمها إليه فعتب عليه الشيخ وقال: تتهمني في مثل هذا، رضي الله عنه.

وقال الإمام الشعراني: من كراماته رضي الله عنه أنه توضأ يوماً فبال عليه عصفور، فرفع رأسه إليه وهو طائر، فوقع ميتاً، فغسل الثوب ثم باعه، وتصدق بثمنه وقال هذا بهذا، ولما اشتهر أمره في الآفاق اجتمع مائة فقيه من أذكياء بغداد يمتحنونه في العلم، فجمع كل واحد له مسائل وجاء إليهم، فلما استقر بهم الجلوس أطرق الشيخ، فظهرت من صدره باقة من نور فمرت على صدور المائة، فمحت ما في قلوبهم، فبهتوا واضطربوا وصاحوا صيحة واحدة، ومزقوا ثيابهم، وكشفوا رؤوسهم، ثم صعد الكرسي، وأجاب الجميع عما كان عندهم، فاعترفوا بفضله(١).

وكان أبو الفتح الهروي، رضي الله عنه، يقول: خدمت الشيخ عبد القادر رضي الله عنه أربعين سنة، فكان في مدتها يصلي الصبح بوضوء العشاء، وكان كلما أحدث جدد في وقته وضوءه، ثم يصلي ركعتين، وكان يصلي العشاء ويدخل خلوته، ولا يمكن أحداً أن يدخلها معه، فلا يخرج منها إلا عند طلوع الفجر، ولقد أتاه الخليفة يريد الاجتماع ليلاً فلم يتيسر له الاجتماع به إلى الفجر(٢).

قال الهروي: بت عنده ليلة فرأيته في أول الليل يصلي يسيراً، ثم يذكر الله إلى أن يمضي الثلث الأول، فيقول: المحيط، الرب، الشهيد، الحسيب، الفعال، الخلاق، البارئ، المصور، فتتضاءل جثته(٣) مرة وتعظم أخرى، ويرتفع في الهواء إلى أن يغيب عن بصري مرة، ثم يصلي قائماً على قدميه، يتلو القرآن إلى أن يذهب الثلث الثاني، وكان يطيل سجوده جداً، ثم يجلس متوجهاً، مشاهداً، مراقباً، إلى قريب طلوع الفجر، ثم يأخذ في الدعاء والابتهال والتذلل، ويغشاه نور يكاد يخطف الأبصار إلى أن يغيب النظر، قال: وكنت أسمع عنده سلام عليكم، سلام عليكم، وهو يرد السلام إلى أن يخرج لصلاة الفجر(٢)، ومنها(٤) أنه(٥) قال: وافقني الخضر

(١) جامع كرامات الأولياء ٢: ٢٠١ وهذه الحكاية أيضاً فيها نظر.
(٢) جامع كرامات الأولياء ٢: ٢٠٢.
(٣) لا أدري هل الصحيح جثته أم جسمه.
(٤) ومن كراماته.
(٥) أي الشيخ عبد القادر.

عليه السلام[1] في أول دخول العراق، وما كنت عرفته، وشرط أن لا أخالفه، وقال لي: اقعد هنا فجلست في الموضع الذي أقعدني فيه ثلاث سنين يأتيني كل سنة مرة، ويقول لي: مكانك حتى آتيك[2]، قال: ومكثت سنة في خرائب المدائن آخذ نفسي بطريق المجاهدات، فآكل المنبوذ، ولا أشرب الماء، ومكثت فيها سنة أشرب الماء ولا آكل المنبوذ، وسنة لا آكل ولا أشرب ولا أنام، ونمت مرة بإيوان كسرى في ليلة باردة، فاحتلمت فقمت وذهبت إلى الشط واغتسلت، ثم نمت فاحتلمت، فذهبت إلى الشط واغتسلت، فوقع لي ذلك في تلك الليلة أربعين مرة! وأنا أغتسل، ثم صعدت إلى الإيوان خوف النوم، ودخلت في ألف فن حتى أستريح من دنياكم.

ومنها: قال ابن الأخضر، رحمه الله: كنا ندخل على الشيخ عبد القادر في الشتاء وقوة برده وعليه قميص واحد، وعلى رأسه طاقية والعرق يخرج من جسده، وحوله من يروحه بمروحة كما يكون في شدة الحر، وقال في المنن: حكى عنه أنه قال: ما جلست للناس حتى سحت خمساً وعشرين سنة في البراري، وكنت آكل من نبات الأرض، وأشرب من الأنهار، وكنت أصبر على الماء سنة وأكثر، قال: وأعطيت

---

(١) قال الكاشاني في كتابه اصطلاحات الصوفية ص١٦٩، ١٧٠ (الخضر كناية عن البسط...، وأما كون الخضر عليه السلام شخصاً إنسانياً باقياً من زمان موسى عليه السلام إلى هذا العهد أو روحانياً يتمثل بصورته لمن يرشده فغير محقق عندي، بل قد يتمثل معناه بالصفة الغالبة عليه ثم يضمحل، وهو روح ذلك الشخص أو روح القدس).
ـ الكاشاني: اصطلاحات الصوفية ص١٦٩، ١٧٠ـ.

(٢) هذه الحكاية التي حكاها النبهاني عن الخضر عليه السلام والشيخ عبد القادر الجيلاني، والتي مفادها أن الشيخ عبد القادر كان يسمع كلام الخضر عليه السلام ولا يبرح مكانه، تتعارض مع الحكاية التي حكاها صاحب لطائف المنن على أساس أنها كرامة، ففي الحكاية الأولى لم يبرح الشيخ عبد القادر مكانه لمدة ثلاث سنوات، بينما في الحكاية الثانية لم يلتفت مريد الشيخ أو حواره إلى الخضر عليه السلام بحجة أن الشيخ الجيلاني لم يترك فيه فضلة لأحد!
ذكر صاحب كتاب (لطائف المنن) أن ابن عربي قال: إن أبا السعود بن الشبل كان يوماً في مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلاني، رضي الله عنه، يكنس فيها، فوقف الخضر على رأسه وقال: السلام عليكم، فرفع أبو السعود رأسه وقال: وعليكم السلام، ثم عاد إلى شغله بما هو فيه، فقال له الخضر: ما بالك لم تبتهل بي كأنك لم تعرفني؟ فقال أبو السعود: بل قد عرفتك أنت الخضر، فقال له الخضر: فما بالك لم تبتهل بي؟ فقال له أبو السعود: ـ والتفت إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني ـ لم يترك فيّ هذا الشيخ فضلة لغيره.
ـ لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ص١٥٢ـ.

حرف كن وأنا سائح في البرية، فكنت أجد الموائد منصوبة فآكل منها ما أشتهي، وأقطع من الجبل الحلوى وآكل، أشرب من الرمل السكر، فأضع الرمل وأصب عليه من البحر الملح وأشربه حلواً، ثم تركت ذلك أدباً مع الله تعالى.

قال المناوي: من كراماته أنه كان حين رضاعه لا يرضع في رمضان، فكان الناس إذا شكّوا في الهلال رجعوا إليه، وكان الذباب لا يصيبه وراثة من جده المصطفى ﷺ.

ومنها: أن امرأة جاءت إليه بولدها وقالت: رأيت قلب ولدي شديد التعلق بك، وخرجت عن حقي فيه لك، فأخذه وأمره بالمجاهدة وسلوك الطريق فجاءته أمه يوماً فوجدته نحيلاً مصفراً من آثار الجوع والسهر وأكل خبز الشعير، فتركته ودخلت للشيخ فرأت بين يديه دجاجاً يأكله، فقالت: يا سيدي تأكل الدجاج ويأكل ولدي الشعير؟ فوضع يده على العظام وقال: قومي بإذن الله، فقامت، فقال الشيخ: إذا صار ابنك هكذا فليأكل ما يشاء[١].

ومنها: أنه مرت على مجلسه حدأة، فصاحت، فشوشت على الحاضرين، فقال: يا ريح خذي رأس هذه الحدأة، فوقعت لوقتها في ناحية، ورأسها في ناحية أخرى، فنزل الشيخ عن الكرسي، وأخذها بيده، وأمرَّ يده الأخرى عليها، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، فحييت وطارت.

ومنها: أنه مر به ثلاثة أحمال خمر للسلطان، ومعها صاحب الشرطة، فقال لهم: قفوا، فأبوا، فقال للدواب: قفي، فوقفت، وأخذ من معها من الأعوان القولج، فضجوا وتابوا، فزال الألم، وانقلب الخمر خلاً ففتحوها فإذا هي خل.

ومنها: أنه أتاه بعض الرافضة بقفتين مخيطتين وقالوا: قل لنا ما فيهما؟ فوضع يده على إحداها وقال: في هذه صبي مقعد، ففتحت، فإذا فيها ذلك، فأمسك يده، وقال له: قم، فقام يعدو، ثم وضع يده على الأخرى وقال: فيها صبي لا عاهة به، ففتحت فإذا فيها ذلك، فأمسك بناصيته وقال له: اقعد فأقعد، فتابوا عن الرفض ومات يومئذ في مجلسه من الحاضرين ثلاثة[٢].

---

(١) جامع كرامات الأولياء ٢: ٢٠٢، ٢٠٣. وهذه الحكاية فيها نظر لأنها تتعارض مع ما عرف عن الشيخ عبد القادر الجيلاني من زهد وحب للمريدين.

(٢) معظم ما ذكره النبهاني في كتابه جامع كرامات الأولياء عن الشيخ عبد القادر فيه نظر ومبالغة، فالكرامة لحجة في الدين أو حاجة في الدنيا، وليست مسائل مكتسبة يستطيع العابد فعلها متى شاء.

ومنها: أن رجلاً من بغداد جاءه وقال: اختطف الجان ابنتي، فقال له: اذهب إلى محل كذا وخط دائرة، وقل عند خطها: بسم الله على نية عبد القادر، ففعل الرجل كما أمره، فمر عليه الجن زمراً زمراً إلى أن جاءه ملكهم، فوقف بإزاء الدائرة، وقال له: ما حاجتك؟ قال: فذكرت له البنت، فأحضر من اختطفها ودفعها إلي، وضرب عنق الجني، فقلت: ما رأيت كامتثالك لأمر الشيخ، فقال: نعم، إنه لينظر من داره إلى المردة منا، وهم بأقصى الأرض، فيفرون من هيبته.

ومنها: أنه حضر بمجلسه بعض صحبه، فأخذته حقنة أبطلت حركته، فنظر للشيخ كالمستغيث، فنزل الشيخ مرقاة من كرسي وعظه، فظهر عليه رأس كرأس الآدمي، ثم نزل أخرى، فظهر كتفان وصدر وصار كلما نزل واحدة ظهر شيء، حتى تكامل على الكرسي صورة كصورته، وصار يتكلم على الناس بكلام ككلامه وصوت كصوته، فوقف الشيخ على رأس ذلك الرجل وغطى رأسه بكمه، فإذا هو في صحراء فيها نهر عنده شجرة، فأزال حقنته، وتوضأ من النهر وصلى، فلما سلم رفع الشيخ من الغطاء، فإذا هو بمجلسه والشيخ على الكرسي كما كان.

وكراماته رضي الله عنه كثيرة جداً، وقد ثبتت بالتواتر وتناقلتها الأمة عن الأئمة من عصرنا إلى عصره، وقد ألفت فيها الكتب الكثيرة كالبهجة وقلائد الجواهر وغيرهما، فلا حاجة لكثرة النقل منها هنا، وهي مطبوعة مشهورة....)(١).

ومعظم هذه الحكايات التي حكاها النبهاني في جامع كرامات الأولياء فيها نظر، وإذا طبقنا عليها المقاييس الدقيقة التي بينها الشيخ عبد القادر الجيلاني للتمييز ومعرفة الفرق بين الكرامة وغيرها من خوارق العادات لوجدنا أن معظمها لا يمكن أن يصنف من الكرامات، إلا أن بعض الذين صنفوا في مناقب الشيخ عبد القادر كصاحب البهجة يرى أن هذه كرامات، ولابدّ من الإيمان بها، لأنها نقلت عن طريق التواتر، وأن من ينكرها يسيء بذلك للشيخ الذي نسبت إليه، ومن أساء لولي من أولياء الله أو لشيخ طريقة معروف ابتلاه الله بسبب الإساءة إليه، ويرى آخرون أن الشيخ هو الذي سيبتليه بشيء لا يستطيع عليه صبراً، وبدلاً من أن ينسب الفعل إلى الله ينسب الفعل إلى الشيخ، وقد يقول: إذا لم تعتقد بولاية الشيخ فلان ولم تؤمن بكراماته فإنه سوف

(١) جامع كرامات الأولياء ٢: ٢٠٣، ٢٠٤.

يسبب لك أذى، جاء في البهجة المصنفة في مناقب الشيخ عبد القادر أن فقيهاً يقال له ابن السقا سأل أبا يعقوب، يوسف بن أيوب الهمذاني الزاهد شيخ الصوفية بمرو، المتوفى سنة خمس و ثلاثين وخمسمائة وأساء معه الأدب وكان ابن السقا أحد القراء، ولكنه تنصر ومات على النصرانية، وسبب ذلك أنه خرج إلى الروم رسولاً من عند الخليفة، ورأى بنت الملك، فافتتن بها، وطلب زواجها وتنصر لكي يحق له الزواج منها، وقيل أنه رؤي في القسطنطينية مريضاً وسئل عن القرآن فقال إنه نسيه إلا واحدة وهي ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر: ٢] ويرى بعض الصوفية أن هذا حدث لابن السقا كان بسبب إساءته لأبي يعقوب، يوسف بن أيوب الهمذاني، الصوفي، وقد ذكر ابن النجار في تاريخه هذه الحكاية وحكاها ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب[١]، وقد أخطأ من ظن أن تنصر السقا بسبب إساءته للشيوخ، فالقلوب بيد الرحمن يقلبها كما شاء فمن الناس من يموت على سوء الخاتمة ومنهم من يموت على حسنها، والناس في تعرضهم لشيخ من الشيوخ ثلاثة أحوال:

(أ) قد يكون التعرض لشيخ بهدف السخرية والاستهزاء والتهكم، وهذا لا يرضاه أحد من المسلمين، بل يجب أن ينصر المسلم أخاه المسلم، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وليس لأحد أن يبسط لسانه بالوقيعة في أولياء الله.

قال السراج الطوسي (ليس لأحد أن يبسط لسانه بالوقيعة في أوليائه، ويقيس بفهمه ورأيه ما يسمع من ألفاظهم وما يشكل على فهمه من كلامهم).

(وعلى من لا يسلك سبلهم أن يطلب السلامة، ولا ينكر عليهم وأن يكل أمرهم إلى الله)[٢]، وقال ابن عربي: (. . . وإياك والاستهزاء والمسخرة بأهل الله، فإن الاستهزاء بأهل الله استهزاء بدين الله، ولا تتخلهم ضحكة فإن وبال ذلك يعود عليك يوم القيامة، فيسخر الله منك ويستهزئ بك)[٣].

وقال ابن تيمية: (. . . . وبعد فيجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين، كما نطق به القرآن، خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤: ١١١.
(٢) اللمع.
(٣) ابن عربي: كتاب الوصايا.

الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر وقد أجمع المسلمون على هدايتهم. . . .).

(ب) والقسم الثاني من الناس هم الغلاة من الأتباع الذين يعتقدون بأن الشيخ بيده جلب المنفعة ودفع المضرّة، ومن لم يعتقد فيه ذلك فإن الشيخ سيصيبه بابتلاء لا يقدر عليه، وقد وضح ابن تيمية في رسالته (الواسطة بين الخلق والحق) أن من يعتقد بأن الشيخ بيده جلب المنفعة ودفع المضرة فهو كافر، وقد يعذر هذا الذي اعتقد هذه العقيدة بالجهل، إن كان جاهلاً، وقد يكون التعرض لبعض الشيوخ من إخوان لهم في الإسلام يريدون إصلاح أخطاء وقع فيها الشيوخ وتبينها لأتباعهم ليتجنبوها، وهذا لا يخرج عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خاصة إن كانت المسألة لوجه الله لا لإرضاء جماعة أو هيئة والمقياس الذي نرجع إليه الكتاب والسنة.

(جـ) وقد يكون التعرض بالنقد لفكر ذلك الشيخ، والفكر ليس معصوماً ولا مقدساً، وقد يكون لبيان ما حدث له هل هو كرامة أم حالة شيطانية أم هي مخاريق تجوز فيها الحيل والشعوذة والدجل، ومثال لذلك ما حدث بين ابن تيمية وغلاة البطائحية الأحمدية الرفاعية، ولقد أشار ابن تيمية في مناظرته لغلاة الأحمدية الرفاعية تلك المناظرة التي بين فيها أن ما يفعل ليس من الكرامات بل هي مخاريق أو مخارق، أشار إلى أن شيخ الأحمدية الرفاعية في زمانه (عبد الله) قال له: يا مولانا لا تتعرض لهذا الجناب العزيز، فأنكر ابن تيمية قوله وقال له: تريدون أن تبطلوا دين الله ورسوله قال عبد الله: (يا مولانا يحرقك الفقراء بقلوبهم قال ابن تيمية: مثل ما حرقني الرافضة لما قصدت الصعود إليهم، وصار الناس يخوفوني منهم ومن شرهم. . . .)[1].

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ١: ١٤٠ وما بعدها
وانظر: نقد ابن تيمية ومدرسته للتصوف ص٧٨.

المبحث الثاني
شطحات[١] الجيلاني

نسب بعض الصوفية إلى الشيخ عبد القاهر الجيلاني أقوالاً كثيرة على أساس أنها من كراماته، وهي لم تكن كذلك، بل كانت من شطحاته، والشطحات لا يقام عليها حكم، قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: (لا يحكم إلا على ما يلفظ به (الصوفي) في حالة الصحو[٢] وأما الغيبة[٣] فلا يقام عليها حكم)[٤].

رؤية منامية وليست شطحة:

نسب بعض الصوفية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، رحمه الله، أنه قال: (من جاءنا تلقيناه من البعيد، ومن تصرف بحولنا ألنا له الحديد، ومن اتبع مرادنا أردنا ما يريد، ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد)، ويفسر بعض الصوفية ذلك بأنه زيارة قبر الشيخ عبد القادر هي المرادة من هذا الكلام، وأن من ذهب إلى قبره تلقاه الشيخ

---

(١) قال الجرجاني في تعريفاته: (الشطح عبارة عن كلمة، عليها رائحة رعونة ودعوى تصدر عن أهل المعرفة باضطرار واضطراب، وهو من زلات المحققين)
وعرف الشطح أيضاً بأنه: (عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته، وهاج بشدة غليانه).
وعرفه أبو عبد الرحمن السلمي في كتابه: (أصول الملامتية وغلطات الصوفية): (بأنه عبارة عن وصف ما يبدو في القلب من الأنوار والفضائل)،
انظر: أصول الملامتية ص١٩٧، وهامش الصفحة نفسها، محمد محمد علي أبو ريان، محاضرات في التصوف الإسلامي، ط دار المعرفة الجامعية إسكندرية ١٤٠٠هـ ص٧١.

(٢) في حالة الصحو: في كامل وعيه، وعرف الصحو بأنه عودة العارف إلى إحساسه بعد زواله.

(٣) الغيبة عن سوى الله أو السكر الوجداني الذي لا يستطيع الفاني معه التمييز، والغيبة حالة تحدث في حالة الفناء القامر، الفناء عن شهود السودي.

(٤) عبد الرحمن بلوي (دكتور): شطحات الصوفية، ط القاهرة ١٩٤٩م ص١٠، أبو الوفا الغنيمي: مدخل إلى التصوف الإسلامي ص١٤٦.

من بعيد، ومن اتبع طريقته وكان من جيرانه ومريديه أعطاه فوق المزيد، وقال بعض القادرية اعتماداً على هذا القول وغيره باستجابة الدعاء عند قبر الشيخ عبد القادر، فمن قرأ آية الكرسي واستقبل جهة الشيخ عبد القادر الجيلاني، وسلم عليه سبع مرات، يخطو مع كل تسليمة خطوة إلى قبره قضيت حاجته.

ولا يصح أن تنسب هذه الأقوال للشيخ عبد القادر الجيلاني، فهذا شرك برب العالمين، يدخل صاحبه في زمرة المشركين إن لم يعذر بالجهل، ولا شك أن الشيخ عبد القادر لم يقل باستجابة الدعاء عند قبره، وهذا كذب عليه، فإذا نهى الرسول ﷺ عن الجلوس على القبور والصلاة إليها واستقبالها في الصلاة لله، فكيف يجوز التوجه إلى القبر في الدعاء لغير الله[1].

وقد تكلم ابن تيمية كثيراً في فتاويه عن هذه المسألة، فقد أشار في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم إلى هؤلاء الذين يقولون باستجابة الدعاء عند القبور، ووضح أنه لم يحفظ عن صحابي أو تابعي أو إمام معروف أنه استحب قصد شيء من القبور للدعاء عنده، ولا شك أن الشيخ عبد القادر لم يقل هذا فهو القائل (كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس، ومن لم يكن كذلك لم يزل في تخبيط، ولم يزل أمره فرطاً)[2]، ولا يصح أن ينسب قول (من جاءنا تلقيناه من بعيد. . . إلخ) للشيخ عبد القادر الجيلاني، والذي نقل هذا الكلام أخطأ في النقل، فالذي قاله الشيخ عبد القادر لم يقله إخباراً عن نفسه، وإنما إخباراً عن الحق تعالى، في رؤية منامية، رآها بعضهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاويه: (حدثني أبي عن محيي الدين ابن النحاس، وأظن سمعتها منه أنه رأى الشيخ عبد القادر في منامه، وهو يقول إخباراً عن الحق تعالى: (من جاءنا تلقيناه من البعيد، ومن تصرف بحولنا ألنا له الحديد، ومن اتبع مرادنا أردنا ما يريد، ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد).

قال ابن تيمية ـ شارحاً هذه الرؤية وهذا الكلام ـ (قلت: هذا من جهة الرب تبارك وتعالى، فالأولتان العبادة والاستعانة، والآخرتان الطاعة والمعصية، فالذهاب إلى الله

---

(١) انظر في هذه المسألة: ابن تيمية: الفتاوى الكبرى، المجلد الرابع ص٣٠٢.
(٢) ابن القيم: الرسالة التبوكية ص١٣.

هي عبادته وحده كما قال تعالى (من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة. . . .) والتقرب بحوله هو الاستعانة والتوكل عليه، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وفي الأثر: من سره أن يكون أقوى من الناس فليتوكل على الله، وعن سعيد بن جبير (التوكل جماع الإيمان) وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، وهذا على أصح القولين في التوكل عليه، ـ بمنزلة الدعاء على أصح القولين أيضاً ـ سبب لجلب المنافع ودفع المضار، فإنه يفيد قوة العبد وتصريف الكون، ولهذا هو الغالب على أصحاب الأحوال متشرعهم وغير متشرعهم، وبه يتصرفون ويؤثرون تارة بما يوافق الأمر وتارة بما يخالفه، وقوله (من اتبع مرادنا)[1] يعني المراد الشرعي كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨] وقوله عز وجل: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] هذا هو طاعة أمره، وقد جاء في الحديث «وأنت يا عمر لو أطعت الله لأطاعك» وفي الحديث الصحيح: «ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه»، وقد قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٦] وقوله[1]: (من ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد)[1] يعني ترك ما كره الله من المحرم والمكروه لأجل الله، رجاء ومحبة وخشية أعطيناه فوق المزيد، لأن هذا مقام الصبر، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. . . .)[2]، فما نسب للشيخ عبد القادر الجيلاني لا يصح نسبته إليه لأنه رواه إخباراً عن ربه، وقد سمع ذلك محيي الدين بن النحاس في رؤية منامية، وإذا أصر بعضهم على أن الجيلاني قال ذلك، ففي هذه الحالة تعد من شطحاته النادرة جداً، وكلمات السكران تطوى ولا تروى، والغيبة لا يقام عليها حكم، كما بين الجيلاني ـ نفسه ـ في أقواله عن الفناء والصحو.

وقد تداول الناس الكلام الذي رواه الجيلاني عن ربه في الرؤية المنامية، ونسوا أنها رؤية منامية، وهذه الحكاية تشبه ما روي عن البسطامي الذي قال عندما رأى رب العزة في المنام: كيف الطريق إليك؟ فقال: اترك نفسك وتعال، قال أبو يزيد: فانسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها.

(١) قول الجيلاني إخباراً عن ربه، وقد سمع ذلك محيي الدين بن النحاس في رؤية منامية.
(٢) الفتاوى، ط الرياض، جـ١٠ ص٥٤٩، ٥٥٠.

وقد ذكر الشيخ عبد القادر هذه الحكاية في حديثه عن أن العبادة هي مخالفتك نفسك وهواك، وتداولها الناس بعد ذلك على أساس أنها من شطحات البسطامي.

قال ابن تيمية في فتاويه: (وقال (الشيخ عبد القادر) أيضاً: (إنما هو الله ونفسك، وأنت المخاطب، والنفس ضد الله وعدوته، والأشياء كلها تابعة لله، فإذا وافقت الحق في مخالفة النفس وعداواتها كنت خصماً له على نفسك.... إلى أن قال: فالعبادة في مخالفتك نفسك وهواك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] إلى أن قال: والحكاية (المشهورة عن أبي يزيد البسطامي ـ رحمه الله ـ لما رأى رب العزة في المنام فقال له: كيف الطريق إليك؟ فقال: اترك نفسك كما تنسلخ الحية من جلدها، فإذا ثبت أن الخير كله في معاداتها في الجملة في الأحوال كلها، فإذا كنت في حال التقوى فخالف النفس بأن تخرج من أجرام الخلق منهم، والرجاء لهم، والطمع فيما عندهم من حطام الدنيا، فلا ترج عطاءهم على طريق الهداية أو الزكاة أو الصدقة أو الكفارة أو النذر فاقطع همك منهم في سائر الوجوه والأسباب، فاخرج من الخلق جداً، واجعلهم كالباب يُرد ويفتتح، وكالشجرة يوجد فيها ثمرة تارة وتحيل أخرى، كل ذلك بفعل فاعل وتدبير مدبر وهو الله تبارك وتعالى...)[1].

من شطحات الجيلاني:

ذكر أبو الحسن الشطنوفي المصري في كتابه بهجة الأسرار[2] والذي جمعه عن أخبار الشيخ عبد القادر ومناقبه الحكاية المشهورة عن الشيخ عبد القادر، والتي قال فيها: قدمي هذه على رقبة كل ولي وساقها عن الشيخ بطرق متعددة[3].

---

(١) الفتاوى ١٠: ٥١٨، ٥١٩.

(٢) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص٣.

(٣) شذرات الذهب ٤: ٢٠٠، ٢٠١.

وقال الدكتور القحطاني في كتابه (الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية) في المبحث الخامس بالكرامات التي نسبها الشطنوفي للشيخ عبد القادر (ونختم هذه الخرافات والضلالات بداهية الدواهي وأم المصائب، والتي لا يصدقها عقل وهي ما نقله الشطنوفي في بهجته عن عدد كبير من مشايخ الصوفية قالوا: إن الشيخ عبد القادر كان يتكلم عليهم وقد حضر قلبه فقال: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، فقام الشيخ علي الهيتي وصعد على الكرسي وأخذ قدم الشيخ ووضعها على عنقه، ودخل تحت ذيله، ومد الحاضرون كلهم أعناقهم) وقال القحطاني: (هذه الحكاية مكذوبة مستهجنة ولا تصح عن الشيخ عبد القادر الجيلاني، وذلك لما يلي:

=

قال ابن العماد الحنبلي: قال ابن رجب: أحسن ما قيل في هذا الكلام ما ذكره السهروردي[١] في عوارفه[٢] أنه من شطحات الشيوخ التي لا يقتدى بهم فيها، ولا تقدح في مقاماتهم ومنازلهم، فكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا المعصوم ﷺ[٣].

= أ ـ أن هؤلاء الذين حضروا هذه الحادثة ونقلوها من المشكوك فيهم وغير موثوق في عدالتهم وضبطهم، وقد بحثت عنهم في كتب الرجال فلم أجد لهم ذكراً، وأيضاً فقد ذكر الشطنوفي عن بعضهم بعض الخرافات مثل داود ـ شاباً أحد الذين نقلوا الخبر ـ أنه كان يصلي الصلوات الخمس في مكة.

ب ـ أن هذه العبارة تتعارض مع ما هو معروف عنه من التواضع وعدم التكبر يشهد لذلك قوله للذي سأله: من أين هو؟ (متفقه من جيلان) ومن ضمن تعاليم الشيخ عبد القادر ـ رحمه الله ـ قوله (ألا يطلب لنفسه العلو والكبر بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]).

جـ ـ أن هذه الكلمة تزكية للنفس وإهانة وإذلال للآخرين بوضع قدمه على أعناقهم وهم يزعمون أنهم أولياء الله.

د ـ أن الأحوال التي وقعت بعد قول هذه العبارة لا يمكن تصديقها لأنها أقرب إلى الخرافة والدجل منها إلى الواقع والحقيقة مثل قول الشيخ القيلوي (إن الشيخ عبد القادر لما قال هذه الكلمة تجلي الحق عزّ وجلّ على قلبه وجاءته خلعة من رسول الله ﷺ على يد طائفة من الملائكة المقربين وألبسها بمحضر من جميع الأولياء من تقدم منهم ومن تأخر الأحياء بأجسادهم والأموات بأرواحهم، وكانت الملائكة ورجال الغيب حافين بمجلسه واقفين في الهواء صفوفاً حتى استد الأفق، ولم يبق ولي في الأرض إلا حنا عنقه) ـ بهجة الأسرار للشطنوفي ٩ ـ فانظر إلى هذا القول الباطل وإلى هذا الدجل المكشوف الذي تمجه العقول وتستهجنه النفوس والذي ينادي بكذب هذه الحادثة أصلاً، وإنما هي من وضع أتباعه الغالين فيه.

(١) عمر السهروردي، تلميذ عبد القادر الجيلاني، وابن أخي أبي نجيب السهروردي صديق الجيلاني، وعمر صوفي سني، وأبو نجيب ـ أيضاً ـ صوفي سني (سلفي)، وكتابه في الأسماء والصفات يدل على ذلك.

(٢) عوارف المعارف، وقد طبع هذا الكتاب أكثر من مرة، وطبع أيضاً بهامش إحياء علوم الدين للغزالي، وقد قال بعض المطلقين الأحكام العامة على الكتابين والتصوف قال عنهما: وثنية تحيط بوثنية!

(٣) شذرات الذهب ٤: ٢٠٠، ٢٠١.

وقد اعتبر الدكتور القحطاني ما قاله ابن رجب عن هذه العبارة التي اشتهرت وتناقلها أصحاب كتب التراجم محاولة لتبريرها وتوجيهها بصورة تكون مقبولة ولا أعتقد أن هذه محاولة لتبرير وتوجيه هذه العبارة، وإنما بيان على أنها في الغالب من شطحات الصوفية وأما ما حدث بعدها من أشياء ذكرها الشطنوفي فلم يتحدث عنها ابن رجب ولا ابن العماد لأنها ليست بثابتة.

وهذه الحكاية تتعارض مع ما عرف عن الشيخ عبد القادر الجيلاني من تواضع في معاملة الآخرين، جاء في كتاب عوارف المعارف للسهروردي: (سمعت أن الشيخ عبد القادر رحمه الله كان إذا جاء إليه فقير زائر، يخبر بالفقير، فيخرج ويفتح جانب الباب، ويصافح الفقير، ويسلم عليه، ولا يجلس معه، ويرجع إلى خلوته، وإذا جاء أحد ممن ليس في زمرة الفقراء يخرج ويجلس معه فخطر لبعض الفقراء نوع إنكار لتركه الخروج إلى الفقير، وخروجه لغير الفقير، فانتهى ما خطر للفقير إلى الشيخ فقال: الفقير رابطتنا معه رابطة قلبية، وهو من أهل وليس عنده أجنبية، فنكتفي معه بموافقة القلوب، ونقنع بها عن ملاقاة الظاهر بهذا القدر، وأما من هو من غير جنس الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر، فمتى لم يوف حقه من الظاهر استوحش، فحق المريد عمارة الظاهر والباطن مع الشيخ)(١).

شطحات أخرى:

قال الشعراني عن الجيلاني: وكان رضي الله عنه يقول: (أيما امرئ مسلم عبر على باب مدرستي خفف الله عنه العذاب يوم القيامة)، (وكان رجل يصرخ في قبره ويصيح حتى آذى الناس فأخبروه به فقال: إنه رآني مرة ولابد أن الله تعالى يرحمه لأجل ذلك فمن ذلك الوقت ما سمع له أحد صراخاً!!

وتوضأ رضي الله عنه يوماً فبال عليه عصفور فرفع رأسه إليه وهو طائر فوقع ميتاً فغسل الثوب ثم باعه وتصدق بثمنه وقال هذا بهذا)(٢).

---

(١) عوارف المعارف ص٤٠٩.

(٢) الطبقات الكبرى ١: ١٠٩.

شطحات[1] الجيلاني

نسبت إلى الشيخ الجيلاني أبيات شعر يشتم منها رائحة الدعوى، ومن النظم المنسوب إليه:

على الأولياء ألقيت سري وبرهاني فهاموا بي في سر سري وإعلاني
فأسكرهم كأسي فهاموا بخمرتي سكارى حيارى من وجودي وعرفاني
أنا كنت قبل القبل قطباً مبجلاً تطوف بي الأكوان والرب أسماني
خرقت جميع الحجب حتى وصلته مقاماً به قد كان جدي له داني
وقد كشف الأستار عن نور وجهه ومن خمرة التوحيد بالكاس أسقاني
نظرت إلى المحفوظ والعرش نظرة فلاحت لي الأنوار والرب أعطاني
أنا قطب أقطاب الوجود بأسرها أنا بازهم والكل يدعي بغلماني
ولو أنني ألقيت سري لدجلة لغارت وراح الماء في سر إعلاني
ولو أنني ألقيت سري إلى لظى لأخمدن النيران من عظم سلطاني
ولو أنني ألقيت سري لميت لقام بإذن الله في الحال ناداني
سلو عني السري سلو عني المنى سلو عني القاصي سلو عني الداني
سلو عني العلي سلو عني الثرى وما كان تحت التحت والإنس والجان
فيا معشر الأقطاب هلموا لحضرتي وطوفوا بحاناتي واسعوا لأركاني
وغوصوا لجاري تظفروا بجواهري وتبري وياقوتي ودري ومرجاني
وقفت على الإنجيل جمعاً شرحته أخي ورفيقي كان موسى بن عمران

---

(١) قال الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين جـ١ ص٢٨: (الشطح: كلام يترجم به اللسان عن وجد يفيض عن معدنه، مقرون بالدعوى، إلا أن يكون صاحبه محفوظاً، والشطحات التي نسبت إلى الجيلاني في النظم المنسوب إليه، قد أثبتها عدد من الباحثين، وإن كنا نشك في صحة نسبتها إليه، فالجيلاني لم يعرف بأنه كان من أصحاب الشطحات، ولو كانت هذه الشطحات من شطحاته لتكلم عنها العلماء الأوائل أمثال ابن تيمية وابن القيم.

وحليت رمزاً كان عيسى يحله ... به كان يحيي الموتى والرمز سرياني
وخضت بحار العلم من قبل نشأتي ... وفككت في التوراة زمرة عبراني
فمن في رجال الله نال مكانتي ... وجدي رسول الله في الأصل رباني
ووالدتي الزهراء بنت محمد ... أبوها رسول الله الخلق عز بهم شاني
أنا الكوكب الدري أنا شمس خلتها ... أنا الفرد قد ألبست في الحب تيجاني
أنا قادري الوقت عبد القادر ... واسمي محيي الدين والأصل كيلاني(١)

شطحات شعرية اخرى:

ومن النظم المنسوب للشيخ الجيلاني وفيه شطح الأبيات التالية...

دنوت من المحبوب أعلى المراتب ... فأوهبني أزكى المواهب
وتوجني تاجاً على خلع الرضى ... بأثنى ملابيس فنلت مآربي
وقلدت تصريف الوجود بأسره ... خليفة بالكرسي أجلست نائبي
ونادمني من غير واسطة وقد ... بدا لي جهراً لا حجاب وحاجب
أنا خادم من غير واسطة وقد ... بدا لي جهراً لا حجاب وحاجب
أنا خادم في حضرة نبوية ... قريب لها قرباً كقوس حواجب
فوصف جميعي لا يحاط بقدره ... وهزمي لخاني ينثني وهو هائبي
وحكمني كل الدنان وخانها ... فلا ثمل إلا تلاني عاقب
وما شرب العشاق قدما وبعدنا ... من الحان إلا بعض سؤر مشاربي
سلكت طريقاً ليس يسلكه سالك ... وكان حبيبي لي دليلاً مصاحبي
خلوت بمن أهوى بغير مزاحم ... فيا حبذا ما طبت لي من مآرب
ولي همة تعلو على كل همة ... ومطلب عزمي مهلك كل طالب

---

(١) الجيلاني: فتوح الغيب ط دار الألباب ص١٧١- ١٧٣ ونشك في نسبة هذه القصيدة إلى الشيخ الجيلاني.

أنا في الهوى سلطان كل متيم ... لمملكتي في الأرض حنت ركائبي
لواء لوائي في الوجود مخيم ... مخفق تملأ الخائفين ذوائبي
نشرت بأعلامي على كل عاشق ... مشارق أرض الله ثم المغارب
وأهل الهوى جندي وحكمي عليهم ... وفي سائر الآفاق سارت مواكبي
وجالت خيولي الأرض شرقاً ومغرباً ... وفي طولها والعرض دارت نجائبي
أنا قطب أقطاب الوجود حقيقة ... وجملتهم لي يتبعون مذاهبي
إذا اجتمعوا في جامع العشق جئتهم ... خطيباً أعظهم من بليغ عجائبي
وكلهم بي يقتدون حقيقة ... بعصري وبعدي هكذا كل طالب
قعود جلوس ينظروا تحت منبري ... ويجروا دموعاً بالدماء سواكب
وأقدامهم من بعد ذلك داعياً ... إماماً لهم بي يقتدي كل راغب
وقد أفلح جميع الشموس وشمسنا ... ليوم اللقا إشراقها في كواكب
وبي وله قبل الوجود وكونه ولي ... قدم قد جال في جذب جاذبي
وهذا مقامي واتصالي بخالقي ... وذكري لحظي من حبيب الحبائب
محمد رسول الله جدي وقدوتي ... وعاهدني من كفه وهو طالبي
أتاني مراراً قبل عهدي وقال لي ... أنا جدك افخر بي فخرت بخاطب
ولي خيمة خضراء في مشرق لها ... وفي مغرب أطنابها يتراكب
وتنصب في حشر علينا تظللنا ... رجالي وأصحابي بها في مناصب
وما قلت هذا القول فخراً وإنما ... أتى الإذن حتى تعرفون مراتبي
ودقت لي السادات في الأرض والهوى ... طبولاً لعزي كم لها ألف ضارب
فبلغ سلامي خير من وطئ الثرى ... وأشرف خلق الله ماش وراكب

ومن نظم الشيخ الجيلاني، والذي هو من شطحاته الأبيات التالية:

دفعت من أعلى الورى أعلامنا ... لما بلغنا في الغرام مرامنا

نحن الملوك على السلاطين الملا والكائنات ومن بها خدامنا
فبذلنا للحب نلنا عزة وعلى الرؤوس تنقلت أقدامنا
إنا وإن آخر الزمان فإننا فقنا الذين تقدموا قدامنا
فبقربنا من قاب قوسين لقد رشقت قلوب المنكرين سهامنا
فجمالنا ملأ الوجود وحالنا لا يستطاق ولا يفل حسامنا
ضربت طبول العز في ساحاتنا وعلى السما شرفاً بدت خيامنا
ولأجلنا وجد الزمان وكونه والدهر عبد والزمان فلامنا
ولنا الولاية من (ألست بربكم) وإمامنا المهدي فهو ختامنا
ثم الصلاة على النبي محمد والآل والأصحاب ثم صحابنا(١)

ومن الشطحات المنسوبة إلى الجيلاني الأبيات التالية:

أنا القرآن والسبع المثاني وروح الروح لا روح الأواني
فؤادي عند محبوبي مقيم يناجيه وعندكم لساني
فلا تنظر بطرفك نحو جسمي وعد عن التناغم بالمغاني
وغص في بحر ذات الذات تنظر معاني ما تبدت للعيان
وأسراري قراءة مبهمات مسترة بأرواح المعاني
فمن فهم الإشارة فليصنها وإلا سوف يقتل بالسنان
كحلاج المحبة إذ تبدت له شمس الحقيقة بالتداني
وقال أنا هو الحق(٢) الذي لا يغير ذاته مر الزمان(٣)

---

(١) الجيلاني: فتوح الغيب ط دار الألباب ص١٧٨ـ ١٧٩.
(٢) إشارة إلى قول الحلاج: أنا الحق.
(٣) الجيلاني: فتوح الغيب ط دار الألباب ص١٧٨ـ ١٧٩.

وله أيضاً:

ولما صفا قلبي وطابت سريرتي ... ومني دنا صحوي بفتح البصيرة
شهدت بأن الله مولى الولاية ... وقد من بالتصريف في كل حالة
سقاني ربي من كؤوس شرابه ... فأسكرني حقاً فهمت بسكرتي
وملكني كل الجنان وما حوى ... وكل ملوك العالمين رعيتي
وفي حاننا فادخل ترى الكأس دائراً ... وما شرب العشاق إلا بقيتي
دفعت على من يدعي الحب في الهوى ... فقربني المولى وفزت بنظرتي
وجالت خيولي في الأراضي جميعها ... وزفت لي الكاسات من كل وجهة
ودقت لي الرايات في الأرض والسما ... وأهل السما والأرض تعلم سطوتي
وشاوش ملكي سار شرقاً ومغرباً ... وصرت لأهل الكرب عوناً ورحمة
فمن كان مثلي يدعي فيكم الهوى ... يطاولني إذا كان يقوى لسطوتي
أنا كنت في العليا بنور محمد ... وقاب قوسين اجتماع الأحبة
شربت بكاسات الغرام سلامة ... بها انتعشت روحي وجسمي ومهجتي
وصرت أنا الساقي لمن كان حاضراً ... أدير عليهم كرة بعد كرة
وقمت بباب الله وحدي موحداً ... ونوديت يا جيلاني ادخل لحضرتي
ونوديت من فوق السموات كلها ... ومن تحت بطن الحوت مديت راحتي!
وأعلم نبت الأرض كم من نباته ... وأعلم رمل الأرض كم هو رملة!
وأعلم علم الله أحصي حروفه ... وأعلم موج البحر كم هو موجة
وما قلت هذا القول فخراً وإنما ... أتى الإذن حتى تعرفون حقيقتي
وما قلت حتى قيل لي قل ولا تخف ... فأنت ولي في مقام الولاية
أنا كنت مع نوح بأعلى سفينة ... بحاراً وطوفاناً على كف قدرتي
وكنت وإبراهيم ملقى بناره ... ما برد النيران إلا بدعوتي

وكنت مع إسماعيل في الذبح شاهداً وليس نزول الكبش إلا بفتيتي
وكنت مع يعقوب في غشو عينه وما برئت عيناه إلا بتفلتي
وكنت وموسى في مناجاة ربه وموسى عصاه من عصاي استمدت
وكنت مع عيسى ولي المهد ناطقاً وأعطيت داوداً حلاوة نغمتي
أنا كنت مع أيوب في زمن البلا وما برئت دعواه إلا بدعوتي
ولي نشأة في الحب من قبل آدم وسرى سري في الكون من قبل نشأتي
أنا الذاكر المذكور ذكر الذاكر أنا الشاكر المشكور شكراً بنعمته
أنا العاشق المعشوق في كل مضمر أنا السامع مع المسموع في كل نغمة
أنا الواحد الفرد الكبير بذاته أنا الواصف الموصوف علم الطريقة
ملكت بلاد الله شرقاً ومغرباً وإن شئت أفنيت الأنام بلحظتي
وقالوا أنت القطب قلت مشاهداً ونال كتاب الله في كل ساعة
وناظر ما في اللوح من كل آية وما قد رأيت من شهود بمقلتي
فمن كان يهوانا يجي لمحلنا ويدخل حمى السادات يلق الغنيمة
فلا عالم إلا بعلمي عامل ولا سالك إلا بفرضي وسنتي
وقالوا أيا هذا تركت صلاتك ولم يعلموا أني أصلي بمكة
ولا مسجد إلا ولي فيه ركعة ولا منبر إلا ولي فيه خطبة
ولولا رسول الله بالعهد سابق لأغلقت أبواب الجحيم بعظمتي
مريدي لك البشرى تكون على الوفا إذا كنت ضيف فتنجو بهمتي
مريدي تمسك بي وكن لي واثقاً فأحميك في الدنيا ويوم القيامة
أنا لمريدي حافظ ما يخافه وأحرسه من كل شر بلية
وكن يا مريدي حافظاً لعهودنا أكن حاضر الميزان يوم القيامة
وإن شحت الميزان والله أنا لها فعني عنايات بلطف الحقيقة

حوائجكم مقضية غير أنني ... أريدكم تمشوا الطريقة الحميدة

وأوصيكم كسر النفوس فإنها ... مراتب عز عند أهل الطريقة

ومن حدثته نفسه بتكبر ... تجده صغيراً في عيون الأقلة

ومن كان في حالاته متواضعاً ... مع الله عزته جميع البرية

فجدي رسول الله طه محمد ... أنا عبد قادر وشيخ الطريقة(١)

ومن نظم الجيلاني الشاطح الأبيات التالية:

نظرت بعين الفكر في حان حضرتي ... حبيباً تجلى للقلوب فجنتي

سقاني بكأس من مدامة حبه ... فكان من الساقي خماري وسكرتي

ينادمني في كل يوم وليلة ... ولا يزال يرعاني بعين العناية

ضريحي بيت الله من جاء زاره ... بهرولة يحظى بعز ورفعة

وأمري بأمر الله إن قلت كن يكن ... وكل بأمر الله حكمي وقدرتي

فأصبحت بالوادي المقدس جالساً ... على طود سينا قد سموت بخلوتي

وطافت بي الأكوان من كل جانب ... فصرت لها أهلاً بتحقيق نسبتي

ولي علم في ذروة المجد قائم ... رفيع البنا تأوي إليه كل أمة

فلا علم إلا من بحار وردتها ... ولا نقل إلا من صحيح روايتي

على الدرة البيضاء كان اجتماعنا ... وفي قاب قوسين اجتماع الأحبة

وعاينت إسرافيل واللوح والرضا ... وشاهدت أنوار الجلال بنظرتي

وشاهدت ما فوق السموات كلها ... كذا العرش والكرسي في طي قبضتي

وكل بلاد الله ملكي حقيقة ... وأقطابها من تحت حكمي وطاعتي

---

(١) جاء في كتاب فتوح الغيب أن البيت الأول من هذه القصيدة لم يعرف أنه منها عند أهل الطريقة انظر القصيدة ص١٨٥ـ ١٩٠ ونشك في نسبة القصيدة كلها إلى الجيلاني لأنه لم يعرف عنه هذا النوع من الشعر ولم يتحدث عن ذلك الأوائل من العلماء.

وجودي سرى في سر سر الحقيقة ومرتبتي فاقت على كل رتبة
وذكرى جلاء الأمصار بعد عشائها وأحيا فؤاد الصب بعد القطيعة
حفظت جميع العلم صرت طرازه على خلعة التشريف في حسن خلوتي
قطعت جميع الحجب للحب صاعداً ولا زلت أرقى سائراً بمحبتي
تجلى لي الساقي وقال لي قم فهذا شراب الحب في حان حضرتي
تقدم ولا تخش كشف حجابنا تجلى بحاني والشراب ورؤيتي
شطحت بها شرقاً وغرباً وقبلة وبراً وبحراً من نفائس خمرتي
فلاحت لي الأسرار من كل جانب وبانت لي الأنوار من كل وجهة
وشاهدت معنى لو بدا كشف سره لصم الجبال الراسيات لدكت
ومطلع شمس الأفق ثم مغيبها وأقطع أرض الله في حال خطوتي
أقلبها في راحتي ككورة أطوف بها جمعاً كأسرع لمحة
أنا قطب أقطاب الوجود حقيقة على سائر الأقطاب قولي وحرمتي
توسل بنا في كل هول وشدة أغيثك في الأشياء طرا بهمتي
أنا لمريدي حافظ ما يخافه وأحرسه من كل شر وفتنة
مريدي إذا ما كان شرقاً ومغرباً أغثه إذا ما سار في أي بلدة
فيا منشداً للنظم قله ولا تخف فإنك محروس بعين العناية
وكن قادري الوقت لله مخلصاً تعش سعيداً صادقاً بمحبتي
ونثني صلاة الله ثم سلامه على خير خلق الله جدي ونسبتي

ومن نظم الجيلاني الشاطح الذي نسب إليه الأبيات التالية:

طف بحاني سبعاً ولذ بذمامي وتجرد لزورتي كل عام
أنا سر الأسرار من سر سري كعبتي راحتي وبسطي مدامي
أنا نشر العلوم والدرس شغلي أنا شيخ الورى وكل إمام

أنا في مجلس نرى العرش حقاً ... وجميع الأملاك في قيام
قالت الأولياء جميعاً بعزم ... أنت قطب على جميع الأنام
قلت كفوا ثم اسمعوا نص قولي ... إنما القطب خادمي وغلامي
كل قطب يطوف بالبيت سبعاً ... وأنا البيت طائف بخيامي
كشف الحجب والستور لعيني ... ودعاني لحضرة ومقامي
فاخترقت الستور جمعاً لحبي ... عند عرش الإله كان مقامي
وكساني بتاج تشريف عز ... وطراز وخلعة باختتام
فرس العز تحت سرج جوادي ... وركابي عال وغمدي محامي
وإذا ما جذبت قوس مرامي ... كان نار الجحيم منها سهامي
سائر الأرض كلها تحت حكمي ... وهي في قبضتي كفرخ الحمام
مطلع الشمس ثم أقصى الغروب ... خطوتي وأقلها باهتمام
أمر يدي لك الهنا بدوام عيـ ... ـش عز ورفعة واحترام
ومريدي إذا دعاني بشرق ... أو بغرب أو نازل بحر طام
فأغثه لو كان فوق هواء ... أنا سيف القضا لكل خصام
أنا في الحشر شافع لمريدي ... عند ربي فلا يرد كلامي
أنا شيخ وصالح وولي ... أنا قطب وقدوة للأنام
أنا عبد القادر طاب وقتي ... جدي المصطفى شفيع الأنام
فعليه الصلاة في كل وقت ... وعلى آله بطول الدوام(١)

ومن النظم المنسوب إلى الجيلاني - أيضاً - وفيه رائحة رعونة ودعوى الأبيات التالية:

سقاني حبيبي من شراب ذوي المجد ... فأسكرني حقاً فغبت على وجدي

---

(١) الجيلاني: فتوح الغيب ص٢٠١- ٢٠٣.

وأجلسني في قاب قوسين سيدي ... على منبر التخصيص في حضرة المجد
حضرت مع الأقطاب في حضرة اللقا ... فغبت به عنهم وشاهدته وحدي
فما شرب العشاق إلا بقيتي ... وفضلة كأسات بها شربوا بعدي
ولو شربوا ما قد شربت وعاينوا ... من الحضرة العليا شراب ذوي الود
لأمسوا سكارى قبل أن يقربوا لها ... وأمسوا حيارى من مصادمة الورد
أنا البدر في الدنيا وغيري كواكب ... وكل فتى يهوى فذلكم عبدي
وبحري محيط بالبحار بأسرها ... وعلمي حوى ما كان قبلي وما بعدي
وسري له الأسرار تزفر في الدجا ... كزجر سحاب الأفق من ملك الرعد
فإن شئت أن تحظى بعز وقربة ... فداوم على حبي وحافظ على عهدي[1]

(١) الجيلاني: فتوح الغيب ص٢٠١ـ ٢٠٣.

الفصل الثالث

التوحيد عند الجيلاني

المبحث الأول: توحيد الألوهية

المبحث الثاني: القضاء والقدر

المبحث الأول
توحيد الألوهية

الإقرار بالشهادتين:

يرى المشايخ المعتمدون مثل الشيخ عبد القادر الجيلاني أن أول ما أوجبه الله على لسان رسوله ﷺ هو الإقرار بالشهادتين، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن «إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»(١)، ويرى الجيلاني أن الإقرار بالشهادتين يتضمن معرفة الله سبحانه وتعالى، وهذا هو مذهب السلف الذي خالفه جماعة من أهل الكلام والصوفية وبعض الفقهاء، فقد ذهب جماعة من هؤلاء المتكلمين والصوفية إلى أنه يجب على العبد المعرفة أولاً قبل وجوب الشهادتين (ومنهم من قال يجب على العبد النظر قبل المعرفة، ومنهم من قال يجب القصد إلى النظر) ومنهم من أوجب الشك أولاً!(٢).

---

(١) الحديث بمعناه عن ابن عباس وعن معاذ رضي الله عنهم في البخاري ٢/ ١١٩ كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، مسلم ١/ ٥٠- ٥١ كتاب الإيمان باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين، سنن الترمذي ٢/ ٩٦ كتاب الزكاة، باب ما جاء في كراهية أخذ خيار المال في الصدقة.
سنن ابن ماجه ١/ ٥٦٨ كتاب الزكاة، باب فرض الزكاة.
سنن النسائي ٥/ ٣ كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة.
سنن الدارمي ١/ ٣٧٩ كتاب الزكاة باب في فضل الزكاة.

(٢) الاستقامة لابن تيمية ١/ ١٤١.

معرفة الله عز وجل وتوحيد الأسماء والصفات:

قال الجيلاني: (فأما معرفة[١] الله عز وجل فهو أن يلزم العبد قلبه قربه[٢] عزّ وجل، وقيامه عليه وقدره عليه وشهادته وعلمه به، وأنه رقيب حفيظ، وأنه واحد، ماجد، لا شريك له في ملكه.... ليس له شبه ولا مثيل، وأنه كاف رحيم، ودود، سميع، عليم، وأنه كل يوم هو في شأن، لا يشغله شأن عن شأن، يعلم الخفي وفوق الخفي، والضمير والخطرات والوسوسة والهمة والإرادة والوسواس والحركة والطرفة والغمزة والهمزة، وما فوق ذلك، وما دون ذلك، مما دق فلا يعرف، وجل فلا يوصف، مما كان وما يكون وأنه عزيز حكيم....،)

وقال ابن العماد الحنبلي: قال ابن رجب:.... وكان الشيخ عبد القادر متمسكاً في مسائل الصفات والقدر ونحوهما بالسنة، مبالغاً في الرد على من خالفها، قال في كتابه (الغنية)[٣] المشهور: (وهو بجهة العلو، مستو على العرش، محتو على الملك، يحيط[٤] علمه بالأشياء، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ

---

(١) سئل الجنيد بن محمد عن المعرفة فقال: (هي تردد السر بين تعظيم الحق عن الإحاطة، وإجلاله عن الدرك، وسئل أيضاً عن المعرفة؟ فقال: أن تعلم أن ما تصور في قلبك فالحق بخلافه، فيا لها حيرة، لا له حظ من أحد، ولا لأحد منه حظ، وإنما وجود يتردد في العدم، لا تتهيأ العبارة عنه، لأن المخلوق مسبوق، والمسبوق غير محيط بالسابق وقال الجنيد: المعرفة هي شهود الخاطر بعواقب المصير، وأن لا يتصرف العارف بسرف ولا تقصير.
انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٣٣.

(٢) يقول الجرجاني في تعريفاته (القرب هو القيام بالطاعات، والقرب المصطلح عليه هو قرب العبد من الله تعالى بكل ما تعطيه السعادة لا قرب الحق من العبد فإنه من حيث دلالة الآية ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] قرب عام أسعيداً كان العبد أو شقياً.
انظر: تاريخ التصوف الإسلامي لقاسم غني ص٤٥٩.

(٣) كتاب (الغنية) طبع عدة طبعات، من أشهرها الطبعة المحققة تحقيقاً ممتازاً، والتي حققها فرج توفيق الوليد، أستاذ بكلية الشريعة، جامعة بغداد، وعنوان الكتاب (الغنية لطالبي طريق الحق)، وأما الطبعة الأخرى للكتاب فهي طبعة دار الألباب، سورية، دمشق، ١٩٩٢م، وعنوان الكتاب (الغنية).
- طريق الحق في الأخلاق الإسلامية والتصوف والآداب.

(٤) في كتاب الغنية المحقق: محيط علمه بالأشياء ١/ ٢٥٦.

﴿...﴾ [السّجدَة: ٥][(١)]. ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان بل يقال: إنه في السماء على العرش، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وذكر آيات وأحاديث إلى أن قال: . . . . وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش، قال: وكونه على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، بلا كيف، وذكر كلاماً طويلاً، وذكر نحو هذا في سائر الصفات[(٢)]، وهذا الكلام الذي نقله لنا ابن العماد الحنبلي عن ابن رجب يوضح لنا عقيدة الشيخ عبد القادر السلفية، وكيف أن الشيخ ابن تيمية متفق مع الشيخ عبد القادر في الكلام عن جهة العلو والاستواء على العرش والكلام عن سائر الصفات، فابن تيمية يكرر دائماً أنه لم يقل أحد من الأئمة: إن الله ليس في السماء ولا أنه ليس على العرش، وأن هذا هو اعتقاد الفرقة الناجية إلى يوم القيامة من أهل السنة والجماعة، فإنه يجب أن نؤمن بما وصف الله به نفسه في كتابه الكريم، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل.

وقد تكلم ابن تيمية عن مسألة صفات الله كلاماً يدور حول الاعتقاد السابق في كثير من كتبه ورسائله، منها على سبيل المثال لا الحصر (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم)[(٣)] و(الفتوى الحموية الكبرى)[(٤)] التي تكلم فيها عما يجب الإيمان به وعن صفات الله في إجابته على من استفتاه من مدينة حماة في هذه المسألة وغيرها، وفي رسالته (الإكليل في المتشابه والتأويل)[(٥)] وفي رسالته (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)[(٦)]، وفي كتابه (موافقة صحيح المنقول لصريح

---

(١) الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل (المحقق) ١/ ٢٥٦، وبعد الآية ذكر الجيلاني كلاماً كثيراً ثم قال (ولا يجوز وصفه).

(٢) انظر: الغنية المحقق جـ١ ص٢٦٢ـ ٢٦٥.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ط٢ القاهرة، مطبعة السنة المحمدية ١٣٩٦هـ/ ١٩٥٠م بتحقيق محمد حامد الفقي.

(٤) الفتوى الحموية الكبرى، ط٣ القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبتها ١٣٩٨هـ، نشر قصي محب الدين.

(٥) الإكليل في المتشابه والتأويل ط٢ القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبتها ١٣٩٤هـ.

(٦) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ط١ القاهرة مطبعة السنة المحمدية ١٣٩٨هـ بتحقيق أبو الوفا درويش.

المعقول)[١]، الذي وضح فيه الذي عليه فرسان الكلام والفلسفة، والذي عليه أئمة الهدى، ودافع عن نفسه ووضح أنه ليس من المشبهة كما يتهمه بعض العلماء، ووضح أقسام المسلمين في مسألة الصفات، وركز على الذي عليه أئمة الهدى.

قال ابن تيمية (. . . . . . . ومن متأخريهم الشيخ أبو محمد[٢]، قال في كتابه الغنية: (أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الاختصار فهو أن يعرف ويتقين أن الله واحد أحد. . . إلى أن قال: وهو بجهة العلو، مستو على العرش، محتو على الملك، محيط علمه بالأشياء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة: ٥]، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان[٣]، بل يقال: إنه في السماء على العرش[٤] كما قال: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]. وذكر آيات وأحاديث[٥] إلى أن قال: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش[٦].

(قال) وكونه على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل بلا كيف[٧]، وذكر كلاماً طويلاً لا يحتمله هذا الموضع وذكر في سائر الصفات نحو هذا)[٨].

---

(١) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، ط مطبعة السنة المحمدية القاهرة ١٣٧٠هـ.

(٢) أبو محمد، عبد القادر الجيلاني.

(٣) انظر كتاب الغنية (المحقق) الجزء الأول ص٢٦٢.

(٤) قال ابن تيمية في فتاويه ـ ٤: ٤: (. . . ولما سئل مالك بن أنس رحمه الله تعالى فقيل له: (يا أبا عبد الله ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] كيف استوى فأطرق مالك وعلاه الرحضاء ـ يعني العرق ـ وانتظر القوم ما يجيء منه فيه، فرفع رأسه إلى السائل وقال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأحسبك رجل سوء) وأمر به فأخرج.

(٥) انظر كتاب الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل تحقيق فرج توفيق وليد، جـ١ ص٢٦٢ وما بعدها.

(٦) المرجع السابق ١/ ٢٦٣.

(٧) المرجع السابق ١/ ٢٦٥، ٢٦٦.

(٨) ابن تيمية: الفتاوى ٥/ ٨٥، ٨٦.

وأرى من الخير أن أنقل في هذا المبحث ما قاله الشيخ عبد القادر الجيلاني بكامله، حتى نكون على يقين ومعرفة تامة بعقيدته السلفية، قال الشيخ عبد القادر[١]: (نقول: أما معرفة الصانع عز وجل بالآيات والدلالات على وجه الاختصار فهي: أن يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد فرد صمد، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٣-٤]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] لا شبيه له ولا نظير، ولا عون ولا ظهير، لا شريك ولا وزير، ولا ند ولا مشير، ليس بجسم فيمس، ولا بجوهر فيحس، ولا عرض فيقضى، ولا ذي تركيب أو آلة وتأليف، أو ماهية وتحديد، وهو الله للسماء دافع، وللأرض واضع، لا طبيعة له من الطبائع، ولا طالع له من الطوالع، ولا ظلمة تظهر، ولا نور يزهر، حاضر الأشياء علماً، شاهد لها من غير مماسة، قاهر حاكم قادر، راحم غافر، ساتر معز ناصر، رؤوف خالق فاطر، أول آخر، ظاهر، باطن، فرد، معبود، حي لا يموت، أزلي لا يفوت، أبدي الملكوت، سرمدي الجبروت، قيوم لا ينام، عزيز لا يضام، منيع لا يرام، له الأسماء العظام والمواهب الجسام، قضى بالفناء على جميع الأنام فقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، وهو بجهة العلو مستو على العرش[٢]، محتو على الملك، محيط علمه بالأشياء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ

---

(١) انظر كتاب (الغنية لطالبي طريق الحق عزّ وجل) للشيخ عبد القادر الجيلاني، الذي حققه فرج توفيق وليد، ط مكتبة الشرق الجديد، بغداد، بلا تاريخ، جـ١ ص٢٥٥ـ ٢٧٠، فالنص منقول من هذا الكتاب، وتعمدت أيضاً على طبعة دار الألباب للمقارنة، وهي طبعة غير محققة، وجعلت الطبعة المحققة هي الأصل، وفي حالة الإحالة للطبعة المحققة أقول الغنية (المحقق) وفي حالة الرجوع إلى طبعة دار الألباب أقول: طبعة دار الألباب.

(٢) صفة العلو، قال القحطاني في كتابه عن الشيخ عبد القادر الجيلاني (من صفات الكمال للذات الإلهية صفة العلو، وهي فرع من توحيد الأسماء والصفات، والله سبحانه متصف بالعلو المطلق من جميع المطلق من جميع الوجوه، ذاتاً وقدراً وقهراً، وهذا هو الحق الذي عليه سلف الأمة وأئمتها والتابعون لهم بإحسان، فإنهم يثبتون لله علوه بذاته على جميع خلقه على ما يليق به سبحانه بلا تشبيه ولا تكييف كما هو الشأن في كل ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ، والشيخ عبد القادر يثبت هذه الصفة فيقول (وهو بجهة العلو، مستو على العرش، محتو على الملك، محيط علمه بالأشياء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة: ٥] وهو بهذا يوافق أهل السنة والجماعة فيما ذهبوا إليه من إثبات هذه الصفة وغيرها من صفات الكمال اللائقة بجلاله سبحانه). انظر ص١٧٨ ـ كتاب القحطاني ـ.

ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة: ٥] خلق الخلائق وأفعالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا مقدم لما أخر، ولا مؤخر لما قدم، أراد ما العالم فاعلوه، ولو عصمهم لما خالفوه، ولو شاء أن يطيعوه جميعاً لأطاعوه، يعلم السر وأخفى، عليم بذات الصدور ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: ١٤] هو المحرك، هو المسكن، لم تتصوره الأوهام، ولا تقدره الأذهان، ولا يقاس بالناس، جل أن يشبه بما صنعه، أو يضاف إلى ما اخترعه وابتدعه، محصي الأنفاس، القائم على كل نفس بما كسبت ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٤-٩٥]، ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥]، ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، غني عن خلقه، رازق لبريته، يطعم ولا يطعم، يرزق ولا يرزق، يجير ولا يجار عليه، الخليقة مفتقرة إليه، لم يخلقهم لاجتلاب نفع ولا لدفع ضرر، ولا داع دعاه إليه، ولا خاطر خطر له، وفكر حدث له، بل إرادة مجردة كما قال وهو أصدق القائلين: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البُرُوج: ١٥-١٦]، متفرد بالقدرة على اختراع الأعيان، وكشف الضر والبلوى وتقليب الأعيان، وتغيير الأحوال ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحمٰن: ٢٩]، يسوق ما قدر إلى ما وقت، وأنه تعالى حي بحياة عالم بعلم، وقادر بقدرة، ومريد بإرادة، وسميع بسمع وبصير ببصر، ومدرك بإدراك، ومتكلم بكلام، وآمر بأمر، وناه بنهي، ومخبر بخبر.

وأنه تعالى عادل في حكمه وقضائه، ومحسن متفضل في عطائه وإنعامه، مبدئ ومعيد، محيي ومميت، محدث وموجد، مثيب ومعاقب، جواد لا ينحل، حليم لا يغضب، حفيظ لا ينسى، يقظان لا يسهو، رقيب لا يغفل، يقبض ويبسط، يضحك ويفرح، يحب ويكره، ويبغض ويرضى، ويغضب ويسخط، يرحم ويغفر، ويعطي ويمنع، له يدان وكلتا يديه يمين، قال جلّ وعلا: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]، روي عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قرأ رسول الله ﷺ على المنبر ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]، وقال تكون في يمينه يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة ثم يقول: أنا العزيز، قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يتحرك على المنبر حتى كاد يسقط)[1].

---

(١) حديث قرأ رسول الله ﷺ على المنبر في كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ص٧٢، ٧٣ روي عن عبيد الله بن مقسم بعدة ألفاظ، وليس فيها: يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة، وفي هامشه =

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقبض الأرضين والسماوات جميعاً، فلا يرى طرفهما من قبضته، وعن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «والمقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين»[١].

وخلق آدم عليه السلام بيده على صورته، وغرس جنة عدن بيده، وغرس شجرة طوبى بيده، وكتب التوراة بيده وناولها موسى من يده إلى يده، وكلمه تكليماً من غير واسطة ولا ترجمان، وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن[٢] يقلبها كيف يشاء ويوعيها ما أراد، والسماوات والأرض يوم القيامة في كفه كما جاء في الحديث، ويضع قدمه[٣] على جهنم فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط، قط ويخرج قوماً من النار بيده، وينظر أهل الجنة إلى وجهه يرونه لا يضامون في رؤيته ولا يضارون، كما

= حديث ابن عمر رواه البخاري في باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ولفظه عنده إن الله يقبض يوم القيامة الأرض وتكون السموات مطويات بيمينه ثم يقول: أنا الملك، انظر هامش الغنية (المحقق) جـ ١ ص٢٥٨.

ورواية البخاري لهذا الحديث بلفظ قريب من هذا رقم (٧٤١٢) وهذا الحديث يؤكد ثبوت صفة (اليدين) لله عزوجل، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، الذين يثبتون هذه الصفات إثباتاً بلا تكييف ولا تمثيل وتنزيهاً بلا تحريف ولا تعطيل.

(١) حديث المقسطون عند الله يوم القيامة... في كنز العمال جـ٦ ص٥ رواه ابن حبان عن أبي عمرو، وفي الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٤٥ عن عبد الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا. رواه مسلم وغيره، وفي ذخائر المواريث جـ٢ ص١٧٥ بلفظ: إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين العرش، رواه مسلم في المغازي عن أُبَيّ والنسائي في القضاء.

انظر الغنية (الكتاب المحقق) هامش ص٢٥.

(٢) قال الدكتور القحطاني في كتابه عن الشيخ عبد القادر (يثبت الشيخ عبد القادر الجيلاني صفة الأصابع لله عز وجل لورود الأدلة الصحيحة بشأنها فيقول: وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء وأدلة ثبوت صفة الأصابع كثيرة منها قوله ﷺ: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» ثم قال ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك» رواه مسلم رقم (٢٦٥٤). انظر القحطاني ص١٨٥.

(٣) من الصفات الذاتية التي وردت بها الأدلة الصحيحة صفة القدم لله عز وجل والشيخ عبد القادر بهذا القول يثبت لله هذه الصفة، جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العزة تبارك وتعالى قدمه فتقول قط قط وعزتك ويزوى بعضها إلى بعض». رواه البخاري رقم (٧٣٨٤) ومسلم رقم ٢٨٤٨، وانظر كتاب الدكتور سعيد القحطاني الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية ص١٨٣.

جاء في الحديث «يتجلى لهم ويعطيهم ما يتمنون»[1] وقال عز من قائل ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قيل: الحسنى هي الجنة، والزيادة النظر إلى وجهه الكريم، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] ويعرض عليه العباد يوم الفصل والدين، يتولى حسابهم بنفسه، ولا يتولى ذلك غيره، وإن الله تعالى خلق سبع سماوات، بعضها فوق بعض، وسبع أرضين بعضها أسفل بعض، ومن الأرض العليا إلى السماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام، والماء فوق السماء السابعة وعرش الرحمن فوق الماء، والله تعالى على العرش، ودونه حجب من نار ونور وظلمة، وما هو أعلم به، وللعرش حملة يحملونه، قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر: ٧] وللعرش حد يعلمه الله تعالى، قال عز وجل: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥] وهو من ياقوتة حمراء، وسعته كسعة السموات والأرضين، والكرسي عند العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة، وهو جل وعلا يعلم ما في السموات السبع وما بينهن وما تحتهن، وما في الأرضين السبع وما تحتهن وما بينهن وما تحت الثرى، وما في قعر البحار ومنبت كل ورقة، وعدد ذلك كله، وعدد الحصى، والرمل والتراب، ومثاقيل الجبال ومكاييل البحار، وأعمال العباد وآثارهم، وأنفاسهم وكلامهم، ويعلم كل شيء لا يخفى عليه شيء من ذلك وهو باين من خلقه، ولا يخلو من علمه مكان، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان بل يقال: إنه في السماء على العرش، كما قال جل ثناؤه: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقوله ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، والنبي حكم بإسلام الأمة لما قال لها: أين الله؟ فأشارت إلى السماء، وقال النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لما خلق الله الخلق كتب كتاباً على نفسه، وهو

---

(١) قال محقق كتاب الغنية من هامشها ص٢٦٠: حديث «يتجلى لهم ويعطيهم ما يتمنون» لم تجده بهذا اللفظ، لكن في الدر المنثور جـ٣ ص٣٠٦ أخرج ابن جرير والدارقطني من حديث قتادة بلفظ: «فيتجلى لهم حتى ينظرون إليه...» وأخرجه ابن جرير والدارقطني من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى في قوله ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة أعطوا منها ما شاؤوا، ثم يقال لهم: إنه قد بقي من حقكم شيء لم تعطوه، فيتجلى الله لهم فيصغر ما أعطوا عند ذلك، ثم تلا ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦] قال الجنة، والزيادة نظرهم إلى ربهم عز وجل».

عنده فوق العرش، إن رحمتي تغلب غضبي»، وفي لفظ آخر: «لما قضى الله سبحانه الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»(١)، وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل(٢)، وأنه استواء الذات على العرش، لا على معنى القعود والمماسة كما قالت المجسمة والكرامية، ولا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية، ولا على معنى الاستيلاء والغلبة كما قالت المعتزلة، لأن الشرع لم يرد بذلك ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث، بل المنقول عنهم حمله على الإطلاق، وقد روي عن أم سلمة زوج النبي ﷺ في قوله عز وجل ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] قالت: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به واجب، والجحود به كفر(٣)، وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبي ﷺ في صحيحه، وكذلك في حديث أنس بن مالك

(١) حديث «لما خلق الله الخلق... إلخ»، في دليل الفالحين جـ٤ ص٥٢، ٥٣ متفق عليه، رواه البخاري في الرقاق ومسلم في التوبة، وفي شرح العقيدة الأصفهانية ص٤٦ الحديث في الصحيحين، وانظر كنز العمال جـ ٤ ص١٤٦ـ ١٤٩ وكشف الخفاء جـ ١ ص٢٧ والعلو للعلي الغفار ص٤٠ـ ٤١. انظر هامش كتاب الغنية المحقق ١٢/ ٢٦٣.

(٢) قال القحطاني في كتابه عن الجيلاني (الاستواء وهو من الصفات الثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة وإجماع السلف ـ رحمهم الله ـ الذين يعتقدون بأن الله مستو على عرشه استواء يليق بعظمه وجلاله من غير تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل قد أخذ الشيخ عبد القادر الجيلاني في مسألة الاستواء بالمعنى الذي أثبته النص القرآني من غير تأويل ولا تعطيل مخالفاً بذلك ما ذهب إليه أهل الضلال الذين تأولوا النص وعطلوا هذه الصفة الثابتة له سبحانه بما يليق به، فدفع الشيخ عبد القادر الجيلاني أقوالهم في رده عليهم بقوله: (وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش لا على معنى القعود والمماسة كما قالت المجسمة والكرامية، ولا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية ولا على معنى الاستيلاء والغلبة كما قالت المعتزلة. المرجع المذكور ص١٩٤، ١٩٥.

(٣) قال فرج توفيق محقق كتاب الغنية في هامش ص٢٦٤ جـ١ (حديث أم سلمة: الكيف غير معقول إلخ في العلو للعلي الغفار ص٦٥ ذكر إسناده عنها ثم قال: لا يصح عنها، لأن أبا كنانة أحد رواة الحديث ليس بثقة، وأبو عمير لا أعرفه) وفي الدر المنثور جـ٣ ص٩١ وتفسير المنار جـ٨ ص٤٥٢ أخرجه ابن مردويه واللالكائي في السنة عنها، ولم يشر إلى صحيح مسلم، بل لم نر من أشار إليه في مصادرنا.

وقال الدكتور القحطاني في تخريجه لهذا الحديث ص١٩٥ (هذا الأثر لم يرد في شيء من الكتب الستة، ولا المسند، وإنما ورد في كتب أخرى، فقد رواه اللالكائي برقم (٦٦٣) موقوفاً عليها، ولكنه لم يصح السند فيها، قال ابن تيمية بعد إيراده للأثر عن مالك: وقد روي هذا =

رضي الله عنه وقال أحمد بن حنبل رحمه الله قبل موته بقريب: أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل.

وقال أيضاً في رواية بعضهم: لست بصاحب كلام، ولا أرى الكلام في شيء من هذا، إلا ما كان في كتاب الله عز وجل، أو حديث عن النبي ﷺ، أو عن أصحابه رضي الله عنهم، أو عن التابعين، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود، فلا يقال في صفات الرب عز وجل: كيف ولم، ولا يقول ذلك إلا شاك.

وقال أحمد رحمه الله في رواية عنه في موضع آخر نحن نؤمن بأن الله عز وجل على العرش، كيف شاء وكما شاء، بلا حد ولا صفة يبلغها واصف، أو يحده حاد، لما روي عن سعيد بن المسيب[1] عن كعب الأحبار[2] قال الله تعالى في التوراة: أنا الله فوق عبادي، ولا يخفى عليَّ شيء من عبادي.

وكونه عز وجل على العرش مذكوراً في كل كتاب أنزل على نبي أرسل، بلا كيف، ولأن الله تعالى فيما لم يزل موصوف بالعلو والقدرة والاستيلاء والغلبة على جميع خلقه من العرش وغيره، فلا يحمل الاستواء على ذلك، فالاستواء من صفات الذات بعدما أخبرنا به، ونص عليه، وأكده في سبع آيات من كتابه، والسنة المأثورة به، وهو صفة لازمة له، ولائقة به كاليد والوجه والعين، والسمع والبصر والحياة والقدرة وكونه خالقاً ورازقاً ومحيياً ومميتاً، موصوف بها، ولا نخرج من الكتاب والسنة، تقرأ الآية والخبر، ونؤمن بما فيهما، ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله

= الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفاً ومرفوعاً، ولكن ليس إسناده مما يعتمد عليه) الفتاوى ٥/ ٣٦٥.

وقد ذكره الذهبي عن أم سلمة ثم علق بقوله: هذا القول محفوظاً عن جماعة كربيعة الرأي ومالك الإمام وأبي جعفر الترمذي، فأما أم سلمة فلا يصح لأن أبا كنانة ليس بثقة وأبو عمير لا أعرفه) الذهبي (٦٥).

(١) سعيد بن المسيب بن حزن القرشي، أحد فقهاء التابعين توفي سنة ٩٤هـ على خلاف، انظر ترجمته في: الشعراني: الطبقات الكبرى جـ١ ص٢٦، أبو نعيم: حلية الأولياء جـ٢ ص١٦١ـ ١٧٥.

(٢) كعب بن مانع الحميري، أبو إسحاق، أصله من يهود اليمن، أسلم في خلافة أبي بكر وقيل في خلافة عمر، مات بحمص سنة ٣٢هـ على أرجح الأقوال.
انظر: الشعراني: الطبقات الكبرى جـ١ ص٤٩.
: أبو نعيم: حلية الأولياء جـ٥ ص٣٦٤.

عز وجل، كما قال سفيان بن عيينة رحمه الله، كلما وصف الله تعالى نفسه في كتابه فتفسيره قراءته لا تفسير له غيرها، ولا نتكلف غير ذلك، فإنه غيب، لا مجال للعقل في إدراكه ونسأل الله تعالى العفو والعافية، ونعوذ به من أن نقول فيه وفي صفاته ما لم يخبرنا به هو أو رسوله ﷺ وأنه تعالى ينزل في كل ليلة إلى سماء الدنيا، كيف شاء وكما شاء[(١)]، فيغفر لمن أذنب وأخطأ وأجرم وعصى، لمن يختار من عباده ويشاء، تبارك وتعالى العلي الأعلى، لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، لا بمعنى نزول رحمته وثوابه على ما ادعته المعتزلة والأشعرية، لما روى عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حيث يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: هل من سائل؟ فيعطى سؤله، هل من مستغفر؟ فيغفر له، هل من عان، فيفك عانيه، حتى يصبح الصبح، ثم يعلو ربنا تبارك وتعالى على كرسيه»[(٢)]، وفي لفظ آخر عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

---

(١) قال الدكتور القحطاني في كتابه عن الجيلاني في حديثه عن صفة النزول: (من الصفات الثابتة لله ـ عز وجل ـ صفة النزول من غير تكييف ولا تمثيل بل على وجه يليق بجلال الله لا يعلمه إلا هو إذ هو القائل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ـ والشيخ عبد القادر الجيلاني كعادته في إثبات الصفات يثبت هذه الصفة وينفي أن تكون بمعنى نزول رحمته وثوابه على ما ذهبت إليه الفرق المبتدعة الزائفة عن طريق الحق فيقول: (وأنه تعالى ينزل في كل ليلة إلى سماء الدنيا، كيف شاء وكما شاء......) وهذا الإثبات هو معتقد أهل السنة والجماعة الذين يثبتون لله هذه الصفة كما يليق بجلاله سبحانه وإليك بعض أقوالهم رحمهم الله:
أ ـ قال الإمام أحمد: (وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف يشاء ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) طبقات الحنابلة (١/ ٢٩).
ب ـ يقرر الإمام الترمذي ـ رحمه الله ـ هذا المعتقد فيقول: وما يشبه هذا من الروايات من الصفات ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا قالوا: (قد ثبتت الروايات في هذا، ويؤمن بها ولا يتوهم ولا يقال كيف، هكذا روي عن مالك وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك إنهم قالوا في هذه الأحاديث أمروها بلا كيف وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة، وأما الجهمية فأنكرت هذه الروايات وقالوا هذا تشبيه) انظر القحطاني ص٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حيث يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»
رواه البخاري رقم (١١٤٥) ومسلم رقم (٧٥٨).

«. . .الليل الأخير فيقول: ألا عبد من عبادي يدعوني فأستجيب له؟ ألا ظالم لنفسه يدعوني فأغفر له؟ ألا مقتر عليه رزقه يدعوني فأرزقه؟ ألا مظلوم يذكرني فأنصره؟ ألا عان يدعوني فأفكه؟ قال: فيكون كذلك إلى أن يطلع الصبح ويعلو على كرسيه»، وقد روي هذا الحديث بألفاظ مختلفة عن أبي هريرة[١] وجابر ابن عبد الله[٢] وعلي رضي الله عنهم[٣]، وعن عبد الله بن مسعود[٤]، وأبي الدرداء[٥]، وابن عباس وعائشة رضوان الله عليهم، كلهم عن رسول الله ﷺ، ولهذا كانوا يفضلون صلاة آخر الليل على أوله.

وروى أبو بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ينزل الله عز وجل ليلة النصف من شعبان[٦] إلى سماء الدنيا فيغفر لكل نفس إلا لإنسان في قلبه شحناء أو شرك بالله عز وجل»، وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله عز وجل إذا ذهب شطر الليل الأول ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى ينشقّ الفجر.

---

(١) في المغني عن حمل الأسفار جـ١ ص ٣١٢ حديث أبي هريرة في النزول متفق عليه، وفي نيل الأوطار جـ٣ ص٦٦ ورد الحديث عنه بلفظ آخر رواه الجماعة كلهم أيضاً بألفاظ أخرى عنه انظر جامع الأصول جـ٤ ص١٣٨- ١٤٠ والمسند ج٢ ص٩٦٧، والعلو للعلي الغفار ص٨٩.

(٢) حديث جابر رواه الدارقطني وأبو الشيخ، لكن في إسناده محمد بن إسماعيل منكر الحديث قاله أبو حاتم، انظر نيل الأوطار جـ٣ ص٦٦، ٦٧.

(٣) حديث علي رضي الله عنه في مجمع الزوائد جـ١٠ ص١٥٤.

(٤) حديث ابن مسعود رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح، انظر مجمع الزوائد جـ١٠ ص٥٣ وفي نيل الأوطار جـ٣ ص٦٦- ٦٧: حديث ابن مسعود عند الإمام أحمد.

(٥) حديث أبي الدرداء رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزار وفي إسناد البزار، محمد الأنصاري وهو منكر الحديث، انظر مجمع جـ١٠ ص١٥٥ وفي حادي الأرواح لابن القيم ص٩٤: حديث نزول الرب آخر الليل رواه الطبراني في معجمه عن أبي الدرداء.

(٦) حديث «ينزل الله عز وجل ليلة النصف. . . . إلخ» في الدر المنثور جـ٦ ص٢٧: حديث أبي بكر أخرجه البيهقي عن القاسم بن محمد بن أبي بكر عن أبيه أو عن عمه أو عن جده أبي بكر، وفي جامع الأصول جـ٩ ص٢٦٥ (بالهامش) قال الترمذي في الباب ـ أي نزول الرب ـ عن أبي بكر الصديق وحديث أبي بكر رواه البزار والبيهقي ـ بإسناد لا بأس به كما قال المنذري، في الترغيب والترهيب.

انظر القحطاني ص٢٦٩ (الهامش).

وقيل لإسحاق بن راهويه[١]: ما هذه الأحاديث التي تحدث بها أن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا، والله يصعد ويتحرك، قال للسائل: تقول إن الله تعالى يقدر على أن ينزل ويصعد، ولا يتحرك؟ قال نعم، قال: فلم تنكره؟

وقال يحيى بن معين إذا قال لك الجهمي كيف ينزل؟ فقل له كيف صعد؟

وقال الفضيل بن عياض[٢] رحمه الله: إذا قال لك الجهمي: أنا أكفر برب ينزل،

---

(١) إسحاق بن راهويه، الحنظلي، المروزي، أحد أعلام نيسابور، فقيه، محدث ثقة، له مسند مشهور، توفي سنة ٢٣٨هـ.
انظر: طبقات الحنابلة جـ١ ص١٠٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص٩٤، حلية الأولياء جـ٩ ص٢٣٤، وفيات الأعيان جـ١ ص١٧٩.

(٢) الفضيل بن عياض هو أبو علي التميمي الخراساني، شيخ الإسلام، ولد بخراسان، وقدم الكوفة وهو كبير، ثم انتقل إلى مكة، ونزلها إلى أن مات في أول سنة ١٨٧هـ، (وكان محدثاً، ثقة، سيداً فاضلاً عابداً ورعاً، أسند الحديث عن جماعة من التابعين وغيرهم منهم الأعمش، ومنصور بن المعتمر، وحصين بن عبد الرحمن وآخرون، وأخذ عنه خلق كثير، ومن أعيانهم سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، ويحيى بن سعيد القطان، وحسن بن علي الجعفر وعبد الرحمن بن مهدي، ويحيى بن يحيى النيسابوري وروى له أصحاب الكتب الستة سوى ابن ماجه).
ـ انظر هامش كتاب الأربعين في شيوخ الصوفية الذي حققه دكتور عامر حسن صبري، ص١٢٨ وقد اعتبر السلمي الفضيل بن عياض أول صوفية الإسلام على الإطلاق، وكان الفضيل مهتماً بدراسة الحديث وقد روي له أصحاب الكتب الستة عدا ابن ماجة، وكان مهتماً بتلاوة القرآن الكريم، وكان الفضيل يتبع أوامر الله ويجتنب نواهيه ويتبع رسوله ﷺ، ويخاف من عذاب الله ويرجو رحمته، ويطمع في جنته ويخاف من ناره، ولا يقول مثلما يقول بعض الصوفية في شطحاتهم عن الجنة والنار، بل هو لشدة خوفه تمنى في مرة أن يكون كلباً لو كان ذلك يخلصه من أهوال القيامة.
عن أبي إسحاق: قال الفضيل: (لو خيرت بين أن أعيش كلباً أو أموت كلباً ولا أرى يوم القيامة لاخترت أن أعيش كلباً أو أموت كلباً، ولا أرى يوم القيامة).
ـ ابن الجوزي في صفة الصفوة، جـ٢ ص١٣٤
وقد كان الفضيل زاهداً مشهوراً وعالماً عاملاً بعلمه، ولم يكن من أولئك الذين أدمنوا الوقوف بأبواب السلاطين والملوك، فقد كان يؤمن أن الزهد في الدنيا هو الطريق إلى جنة الآخرة، وزهد الفضيل يختلف عن زهد الآخرين، فهو زهد من يستطيع أن ينال من الدنيا ما يريد، ولكنه رفض ذلك، قال الفضيل: (لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علي على أن لا أحاسب، لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه) ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤٨ـ٥٠ وذكر ابن الجوزي في كتابه صفة الصفوة أن إبراهيم بن أحمد الخزاعي قال: سمعت الفضيل يقول: لو أن الدنيا بحذافيرها جعلت لي حلالاً لكنت أتقذرها.

=

فقل له: أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء(١).

وعن شريك بن عبد الله رحمه الله: لما قيل له: إن عندنا قوماً ينكرون هذه الأحاديث في الصفات، وأن الله ينزل إلى سماء الدنيا، فقال: إنما جاءنا بهذه الأحاديث من جاءنا بالسنن عن رسول الله ﷺ الصلاة والصيام والزكاة والحج، وإنما عرفنا الله عز وجل بهذه الأحاديث(٢)، ولقد تلقى أئمة السنة ما قاله الفضيل بن عياض في مسأل الصفات بالقبول، فقد ذكر ابن تيمية أن البخاري في خلق الأفعال قد ذكر ما قاله الفضيل، وأن شيخ الإسلام أبو إسماعيل قد نقل الكلام نفسه في كتابه الفاروق عن الفضيل.

= ويحكى ابن خلكان أن الرشيد قال للفضيل يوماً ما أزهدك! فقال الفضيل: (أنت أزهد مني، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأني أزهد في الدنيا وأنت تزهد في الآخرة، والدنيا فانية والآخرة باقية) انظر: د. شوقي بشير: نقد ابن تيمية للتصوف ط دار الفكر الخرطوم هامش ص٢١١.

(١) هذا القول الذي نقله الشيخ عبد القادر عن الفضيل واستدل به في حديثه عن الصفات تخيره الشيخ ابن تيمية وتلقاه بالقبول التام، وأشار إليه في أكثر من موضع قال ابن تيمية في كتابه موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ط٢، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٠هـ، القاهرة، ص١٥، قال الفضيل بن عياض: (ليس لنا أن نتوهم في الله كيف وكيف، لأن الله وصف نفسه فأبلغ قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص: ١-٤] فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه، وكل هذا النزول والضحك، وهذه المباهاة، وهذا الاطلاع، كما شاء أن ينزل، وكما شاء أن يضحك، فليس لنا أن نتوهم في الله كيف وكيف، وإذا قال لك الجهمي: أنا أكفر برب يزول عن مكانه، فقل أنت: أنا أؤمن برب يزول يفعل ما يشاء). انظر أيضاً الكتب الآتية:

(أ) ابن تيمية: الكلمات النقيات ورقة ٤٤ (مخطوط) وهو الكتاب الذي حققه الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم تحت عنوان الاستقامة والذي طبع في جزئين.

(ب) ابن تيمية: الفتوى الحموية الكبرى ص٣٧ وما بعدها.

(ج) شوقي بشير: نقد ابن تيمية للتصوف ص١٠١.

(٢) نهاية كلام الشيخ عبد القادر عن معرفة الصانع.

المبحث الثاني
الإيمان بالقضاء والقدر

تعريف القضاء والقدر:

قال الجرجاني في تعريفاته (القدر هو تعلق الإرادة الذاتية في أوقاتها الخاصة، فتعليق كل حال من أحوال الأعيان بزمن معين وسبب معين عبارة عن القدر).

وقال الجرجاني: (القضاء لغة الحكم، وفي الاصطلاح عبارة عن الحكم الكلي الإلهي في أعيان الموجودات على ما هي عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلى الأبد، وفي اصطلاح الفقهاء: القضاء تسليم مثل الواجب بالسبب)، (والفرق بين القضاء والقدر هو أن القضاء وجود جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة، والقدر وجودها متفرقة في الأعيان بعد حصول شرائطها وقيل: القدر هو خروج الممكنات من العدم إلى الوجود واحداً بعد واحد مطابقاً للقضاء، والقضاء في الأزل والقدر فيما لا يزال)(١).

فهم الجيلاني لمسائل القضاء والقدر:

كانت أحوال الشيخ عبد القادر الجيلاني سنية وكان متبعاً للشريعة الإسلامية، وكان كلامه يدور على اتباع المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور، ولا يثبت طريقة تخالف ذلك أصلاً وكان موضع تقدير علماء السلف خاصة في فهمه للقضاء والقدر، فقد تكلم في هذه المسألة على لسان المحمدية، ودل على فهمه العميق للسنة النبوية التي وضحت أنه لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع فيما نزل ولم ينزل البلاء من الأشياء المقدورة، فالدعاء والبلاء يلتقيان فيتعالجان، وإذا نزل البلاء يكون أخف من نفس البلاء إذا نزل قبل الدعاء.

---

(١) التعريفات للجرجاني ص١١٦ وص١١٩.

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: (كثير من الرجال إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي فيه روزنة، فنازعت أقدار الحق بالحق، للحق، والولي من يكون منازعاً للقدر لا من يكون موافقاً له).

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن قول الشيخ عبد القادر: (نازعت أقدار الحق بالحق للحق...) فأجاب: (الحمدلله... جميع الحوادث كائنة بقضاء الله وقدره، وقد أمرنا الله سبحانه أن نزيل الشر بالخير بحسب الإمكان، ونزيل الكفر بالإيمان والبدعة بالسنة، والمعصية بالطاعة من أنفسنا ومن عندنا، فكل من كفر أو فسق أو عصى فعليه أن يتوب وإن كان ذلك بقدر الله، وعليه أن يأمر غيره بالمعروف وينهاه عن المنكر بحسب الإمكان، ويجاهد في سبيل الله، وإن كان ما يعمله من المنكر والكفر والفسوق والعصيان، بقدر الله، ليس لإنسان أن يدع السعي فيما ينفعه الله به متكلاً على القدر، بل يفعل ما أمر الله ورسوله كما روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، إحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان».

فأمر النبي ﷺ أن يحرص على ما ينفعه والذي ينفعه يحتاج إلى منازعة شياطين الإنس والجن، ودفع ما قدر من الشر بما قدره الله من الخير، وعليه مع ذلك أن يستعين بالله فإنه لا حول ولا قوة إلا به، وأن يكون عمله خالصاً لله، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وهذه حقيقة قولك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] والذي قبله حقيقة: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فعليه أن يعبد الله بفعل المأمور وترك المحظور، وأن يكون مستعيناً بالله على ذلك، وفي عبادة الله وطاعته فيما أمر إزالة ما قدر من الشر بما قدر من الخير ودفع ما يريده شيطان ويسعى فيه من الشر قبل أن يصل بما يدفعه الله به من الخير، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] كما يدفع شر الكفار والفجار الذي في نفوسهم والذي سعوا فيه بالحق كإعداد القوة ورباط الخيل، وكالدعاء والصدقة الذين يدفعان البلاء كما جاء في الحديث «إن الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والأرض» فالشر تارة يكون قد انعقد سببه وخيف فيدفع وصوله، فيدفع الكفار إذا قصدوا بلاد الإسلام، وتارة يكون قد وجد فيزال وتبدل السيئات بالحسنات وكل هذا من باب دفع

ما قدر من الشر بما قدر من الخير، وهذا واجب تارة ومستحب تارة[1]، فالذي ذكره الشيخ رحمه الله[2] هو الذي أمر الله به ورسوله، والمقصود من ذلك أن كثيراً من أهل السلوك والإرادة يشهدون ربوبية الرب وما قدره من الأمور التي ينهى عنها فيقفون عند شهود هذه الحقيقة الكونية، ويظنون أن هذا من باب الرضا بالقضاء والتسليم، وهذا جهل وضلال قد يؤدي إلى الكفر والانسلاخ من الدين فإن الله لم يأمرنا أن نرضى بما يقع من الكفر والفسوق والعصيان، بل أمرنا أن نكره ذلك وندفعه بحسب الإمكان كما قال النبي ﷺ «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[3].

والله تعالى قد قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] وقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] فكيف يأمرنا أن نرضى لأنفسنا ما لا يرضاه لنا، وهو جعل ما يكون من الشر محنة لنا وابتلاءً كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠] وقال تعالى بعد أمره بالقتال ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤] وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»، فالمؤمن إذا كان صبوراً شكوراً يكون ما يقضى عليه من المصائب خيراً له، وإذا كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر مجاهداً في سبيله كان ما قدر له من كفر الكفار سبب للخير في حقه، وكذلك إذ دعاه الشيطان والهوى كان ذلك سبباً لما حصل له من الخير، فيكون ما يقدر من الشر إذا نازعه ودافعه كما أمره الله ورسوله سبباً لما يحصل له من البر والتقوى وحصول الخير والثواب وارتفاع الدرجات فهذا وأمثاله مما يبين معنى هذا الكلام والله أعلم.

الحقائق الدينية والحقائق الكونية:

لم يكن الشيخ عبد القادر الجيلاني من أولئك الذين يكتفون بالحقائق الكونية ويتركون الحقائق الدينية، بل لم يكن من أولئك الذين يكتفون بالحقائق الدينية في

(١) الفتاوى ٨: ٥٤٨.
(٢) عبد القادر الجيلاني.
(٣) انظر الفتاوى ٥: ٥٤٨ وما بعدها.

بعض الأمور دون بعض، أو يعملون بها في بعض الأحوال ويتركونها في أحوال أخرى، أو في مقام معين دون المقامات الأخرى، لعلمه أن من ترك الحقائق الدينية اتباعاً للكونية قد أصبح من الكافرين برب العالمين، والمتبعين لإبليس اللعين، وأن الذين يكتفون بالحقائق الدينية في مسائل معينة نقص إيمانهم بحسب ما نقصوا من الحقائق الدينية، والحقائق الدينية داخلة في عبادة الله ودينه وأمره الشرعي، وهي التي يحبها الله ويرضاها ويوالي أهلها ويكرمهم.

والحقائق الكونية يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر، والإرادة الكونية هي مشيئة الله لما خلقه، وجميع المخلوقات داخلة في مشيئته وإرادته الكونية.

والإرادة الدينية هي المتضمنة لمحبته ورضاه، والمتناولة لما أمر الله به، وجعله شرعاً وديناً، وهذه مختصة بالإيمان والعمل الصالح قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] (١)، وقد أخطأ كثير من الرجال في فهم هذه المسألة فمن الرجال من يشهد ما يقدر عليه من المعاصي والذنوب أو ما يقدر للناس من ذلك، ويشهد أنه من مشيئة الله وقدره، فيظن أن الاستسلام لذلك هو الرضا بالقضاء.

وقد أشار الشيخ عبد القادر إلى هؤلاء وأشار إلى نفسه وبين فهمه للحقائق الدينية والكونية، فبين أن كثيراً من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا أو استسلموا، وأما هو فقد انفتحت له فيه روزنة فنازع أقدار الحق بالحق للحق، والمسلم من يكون منازعاً للقدر (قبل وقوعه) لا من يكون موافقاً له، وذكر كلاماً كثيراً في هذه المسألة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والذي ذكره الشيخ رحمه الله هو الذي أمر الله به ورسوله، لكن كثيراً من الرجال غلطوا، فإنهم قد يشهدون ما يقدر على أحدهم من المعاصي والذنوب، أو ما يقدر على الناس من ذلك، بل من الكفر، ويشهدون أن هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدره، داخل في حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته، فيظنون

---

(١) انظر: ابن تيمية: الفتاوى ١١: ٢٦٦، ٢٦٧ وقد تكلم ابن تيمية في فتاويه (١١: ٢٦٦ وما بعدها) عن الأمر الكوني والأمر الديني، والإذن الكوني والإذن الديني، والقضاء الكوني والقضاء الديني، والبعث الكوني والبعث الديني، والإرسال الكوني والإرسال الديني، والجعل الكوني والجعل الديني، والكلمات الكونية، والكلمات الدينية، والتحريم الكوني والتحريم الديني.

الاستسلام لذلك موافقته والرضا به ونحو ذلك ديناً وطريقاً وعبادة فيضاهون المشركين الذين قالوا ﴿لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨](١)، وقالوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧] وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠] ومعنى كلام ابن تيمية وعبد القادر الجيلاني أن القدر واقع لا محالة، ومع هذا فإننا لا نستسلم له، ولا نقول إنه ما دام مقدر علينا أن يحصل كذا فلا نفعل شيئاً لدفع القدر الإلهي، فهذا المسلك من قبيل التواكل والتخاذل والضعف فإن على المرء مدافعة الأسباب والله يأمرنا بذلك وينهانا عن الارتكاز للقدر دون جهد منا أو عمل قد يخفف من وقعه أو يزيله، والصبر والرضا بعد وقوع المصائب التي تصيبنا كالفقر والمرض والخوف.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] قال بعض السلف: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم.

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]...(٢).

وقال ابن تيمية: (ولابد للإنسان من شيئين: طاعته بفعل المأمور وترك المحظور، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور، فالأول هو التقوى والثاني هو الصبر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨] إلى قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦]وقد قال يوسف: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

---

(١) انظر الفتاوى ١٠: ١٥٨، ١٥٩.

(٢) انظر: ابن تيمية: الفتاوى ١٠: ١٥٨، ١٥٩.

ولهذا كان الشيخ عبد القادر ونحوه من المشايخ المستقيمين يوصون في عامة كلامهم بهذين الأصلين: المسارعة إلى فعل المأمور، والتقاعد من فعل المحظور، والصبر والرضا إن وقع المقدور وذلك أن الموضع غلط فيه كثير من العامة بل ومن السالكين، فمنهم من يشهد القدر فقط، ويشهد (الحقيقة الكونية) دون (الدينية) فيرى أن الله خالق كل شيء وربه، ولا يفرق بين ما يحبه الله ويرضاه، وبين ما يسخطه ويبغضه، وإن قدره وقضاه ولا يميز بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية فيشهد الجمع الذي يشترك فيه المخلوقات ـ سعيدها وشقيها ـ مشهد الجمع الذي يشترك فيه المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والنبي الصادق والمتنبي الكاذب، وأهل الجنة وأهل النار، وأولياء الله وأعداؤه، والملائكة المقربون والمردة الشياطين، فإن هؤلاء كلهم يشتركون في هذا الجمع، وهذه (الحقيقة الكونية) وهو أن الله ربهم وخالقهم ومليكهم لا رب لهم غيره، ولا يشهد الفرق الذي فرق الله به بين أوليائه وأعدائه، وبين المؤمنين والكافرين، والأبرار والفجار، وأهل الجنة وأهل النار، وهو توحيد الألوهية، وهو عبادته وحده لا شريك له، وطاعته وطاعة رسوله، وفعل ما يحبه ويرضاه، وهو ما أمر الله به ورسوله، أمر إيجاب أو أمر استحباب، وترك ما نهى الله عنه ورسوله، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين بالقلب واليد واللسان فمن لم يشهد هذه (الحقيقة الكونية) الفارقة بين هؤلاء وهؤلاء، ويكون مع أهل الحقيقة الدينية وإلا فهو من جنس المشركين، وهو شر من اليهود والنصارى، فإن المشركين يقرون بالحقيقة الكونية[1] إذ هم يقرون بأن الله رب كل شيء كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩] ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦] قال بعض السلف: تسألهم من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله، وهم مع هذا يعبدون غيره، فمن أقر بالقضاء والقدر دون الأمر والنهي الشرعيين فهو أكفر من اليهود والنصارى، فإن أولئك

---

(١) أي أنهم يؤمنون بتوحيد الربوبية.

يقرون بالملائكة والرسل الذين جاؤوا بالأمر والنهي الشرعيين، لكن آمنوا ببعض وكفروا ببعض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]، وأما الذي يشهد الحقيقة الكونية وتوحيد الربوبية الشاملة للخليقة، ويقر أن العباد كلهم تحت القضاء والقدر، ويسلك هذه الحقيقة فلا يفرق بين المؤمنين والمتقين الذين أطاعوا أمر الله الذي بعث به رسله، وبين من عصى الله ورسوله من الكفار والفجار، فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى، لكن من الناس من قد لمحوا الفرق في بعض الأمور دون بعض، بحيث يفرق بين المؤمن والكافر، ولا يفرق بين البر والفاجر، أو يفرق بين بعض الأبرار وبين بعض الفجار، ولا يفرق بين آخرين اتباعاً لظنه وهواه، فيكون ناقص الإيمان بحسب ما سوى بين الأبرار والفجار، ويكون معه من الإيمان بدين الله تعالى الفارق بحسب ما فرق بين أوليائه وأعدائه)[1].

التحذير من ملاحظة القدر المحض بدون اتباع الأمر والنهي:

حذر الشيخ عبد القادر الجيلاني المسلمين من ملاحظة القدر المحض بدون اتباع الأمر والنهي، وقد أشار إلى هذا التحذير ابن تيمية في فتاويه.

الحقيقة القدرية المحضة والحقيقة الشرعية:

أشار الشيخ عبد القادر الجيلاني في حديثه عن الأمر والنهي إلى أن لله الخلق والأمر، فمن عرف الأمر كان معه، وإن لم يعرف العبد الأمر كان مع القدر، فالإنسان مع أمر الرب إن عرف وإلا فمع خلقه (وهذا يقتضي أن من الحوادث ما ليس فيه أمر ولا نهي، فلا يكون لله فيه حكم لا باستحباب ولا كراهة) وقد يصل السالك إلى أمور لا يكون فيها حكم شرعي لا بأمر ولا نهي، وفي هذه الحالة يقف العبد مع القدر، وهذا هو الموضع الذي يكون فيه السالك مع الحقيقة القدرية المحضة، إذ ليس هنا حقيقة شرعية.

قال ابن تيمية: (وهذا مما ينازعهم فيه أهل العلم بالشريعة ويقولون (الفعل) إما أن يكون بالنسبة إلى الشرع وجوده راجحاً على عدمه، وهو الواجب والمستحب، وإما أن

(١) الفتاوى لابن تيمية، ١٠/ ٦٦٧، ٦٧٠.

يكون عدمه راجحاً على وجوده وهو المحرم والمكروه، وإما أن يستوي الأمران وهو المباح، وهذا التقسيم بحسب الأمر المطلق، ثم الفعل المعين الذي يقال هو مباح إما أن تكون مصلحته راجحة للعبد لاستعانته به على طاعته ولحسن نيته، فهذا يصير أيضاً محبوباً راجح الوجود بهذا الاعتبار وإما أن يكون مفوتاً للعبد ما هو أفضل له كالمباح الذي يشغله عن مستحب فهذا عدمه خير له، والسالك المتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض لا يكون المباح المعين في حقه مستوى الطرفين، فإنه إذا لم يستعن به على طاعته كان تركه وفعل الطاعة مكانه خيراً له، وإنما قدر وجوده وعدمه سواء إذا كان مع عدمه يشتغل بمباح مثله، فيقال: لا فرق بين هذا وهذا، فهذا يصلح للأبرار أهل اليمين الذين يتقربون إلى الله بالفرائض كأداء الواجبات، وترك المحرمات، ويشتغلون مع ذلك بمباحات، فهؤلاء قد يكون المباح المعين يستوي وجوده وعدمه في حقهم، إذا كانوا عند عدمه يشتغلون بمباح آخر، ولا سبيل إلى أن تترك النفس فعلاً إذا لم تشتغل بفعل آخر يضاد الأول، إذ لا تكون معطلة عن جميع الحركات والسكنات)(١).

الإرادة الشرعية:

وقال ابن تيمية: (والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق والقدر، ومن أعظم المشائخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية فإن الخطأ في الإرادة من حيث هي إرادة إنما تقع من هذه الجهة، فهو يأمر السالك أن لا تكون له إرادة من جهة هواه أصلاً، بل يريد ما يريد الرب عزَّ وجلَّ: إما إرادة شرعية تبين له ذلك وإلا جرى مع الإرادة القدرية، فهو إما مع أمر الرب وإما مع خلقه وهو سبحانه له الخلق والأمر، وهذه طريقة شرعية صحيحة إنما يخاف على صاحبها من ترك إرادة شرعية لا يعلم أنها شرعية أو من تقديم إرادة قدرية على الشرعية، فإنه إذا لم يعلم أنها شرعية فقد يتركها، وقد يريد ضدها، فيكون ترك مأموراً وترك محظوراً وهو لا يعلم فإن طريقة الإرادة يخاف على صاحبها من ضعف العمل، وما يقترن بالعلم من العمل والوقوع في الضلال كما أن طريق العلم يخاف على صاحبها من ضعف العمل، وضعف العمل الذي يقترن بالعمل لكن لا يكلف الله نفساً إلا وسعها من هذا وهذا)(٢).

---

(١) انظر الفتاوى ١٠ : ٤٨٧ وما بعدها.

(٢) الفتاوى: ١٠ : ٤٨٨، ٤٨٩.

المراد الشرعي:

قال محيي الدين بن النحاس إنه رأى الشيخ عبد القادر في منامه وهو يقول إخباراً عن الحق تعالى: (من جاءنا تلقيناه من البعيد، ومن تصرف بحولنا ألنا له الحديد، ومن اتبع مرادنا أردنا ما يريد، ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد).

قال ابن تيمية: (هذا من جهة الرب تبارك وتعالى فالأولتان العبادة والاستعانة والآخرتان الطاعة والمعصية، فالذهاب إلى الله هي عبادته وحده كما قال تعالى: «من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»، والتقرب بحوله هو الاستعانة، والتوكل عليه، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وفي الأثر من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله) وعن سعيد بن جبير (التوكل جماع الإيمان) وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] وقال ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] وهذا على أصح القولين في أن التوكل عليه ـ بمنزلة الدعاء على أصح القولين أيضاً ـ سبب لجلب المنافع ودفع المضار، فإنه يفيد قوة العبد وتصريف الكون ولهذا هو الغالب على ذوي الأحوال متشرعهم وغير متشرعهم وبه يتصرفون ويؤثرون (تارة) بما يوافق الأمر وتارة بما يخالفه.

وقوله[١]: (ومن اتبع مرادنا) يعني المراد الشرعي كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨] وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، هذا هو طاعة أمره، وقد جاء في الحديث «وأنت يا عمر لو أطعت الله لأطاعك» وفي الحديث الصحيح «ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه» وقد قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٦] وقوله: «ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد» يعني ترك ما كره الله من المحارم والمكروه لأجل الله: رجاء ومحبة وخشية أعطيناه فوق المزيد لأن هذا مقام الصبر، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠][٢].

الأمر والنهي الشرعيان:

ذكر ابن تيمية في رسالته (الاحتجاج بالقدر) أن الشيخ عبد القادر الجيلاني كان

(١) أي قول الشيخ عبد القادر الجيلاني رواية عن ربه، في الرواية المنامية.
(٢) الفتاوى: ١٠: ٥٤٩، ٥٥٠.

يعظم الأمر والنهي ويوصي باتباع أوامر الله سبحانه وتعالى ورسوله، وينهى عن الاحتجاج بالقدر وأن الشيخ حماد الدباس (شيخه) كان كذلك أيضاً[١].

قال ابن تيمية: (وأما أئمة الصوفية والمشايخ المشهورون من القدماء مثل الجنيد بن محمد وأتباعه، ومثل الشيخ عبد القادر وأمثاله، فهؤلاء من أعظم الناس لزوماً للأمر والنهي وتوصية باتباع ذلك، وتحذيراً من المشي مع القدر...)[٢].

وقال ابن تيمية: (..... والشيخ عبد القادر كلامه كله يدور على اتباع المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور، ولا يثبت طريقاً تخالف ذلك أصلاً، لا هو ولا عامة المشايخ المقبولين عند المسلمين، ويحذر من ملاحظة القدر المحض بدون اتباع الأمر والنهي)[٣].

قال الشيخ عبد القادر: (وإن لم تجد في الكتاب والسنة تحريمه ولا إباحته بل هو أمر لا تعقله، مثل أن يقال لك ائت موضع كذا وكذا، الق فلاناً الصالح: ولا حاجة لك هناك ولا في الصالح: لاستغنائك عنه بما أولاك الله تعالى من نعمه من العلم والمعرفة، فتوقف في ذلك ولا تبادر إليه هل هذا إلهام إلا من الحق فاعمل به؟ بل انتظر الخير في ذلك، وفعل الحق أن يتكرر ذلك الإلهام وتؤمر بالسعي، أو علامة تظهر لأهل العلم بالله تبارك وتعالى يفعلها العقلاء من أولياء الله، والمؤيدون من الأبدال، وإنما لم تبادر إلى ذلك لأنك لا تعلم عاقبته وما يؤول الأمر إليه وربما كان نية فتنة وهلاك ومكر من الله وامتحان فاصبر حتى يكون الله عز وجل هو الفاعل فيك، فإذا تجرد الفعل وحملت إلى هناك واستقبلتك فتنة كنت محفوظاً فيها، لأن الله تعالى لا يعاقبك على فعله وإنما تنظر في العقوبات نحوك لكونك في الشيء)[٤].

---

(١) ابن تيمية: الاحتجاج بالقدر، ص٦.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى ٨/ ٣٦٩.

وقال ابن تيمية في موضع آخر من الفتاوي: (قال الشيخ أبو محمد (عبد القادر) في كتاب فتوح الغيب لابد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء: أمر يمتثله، ونهي يجتنبه، وقدر يرضى به، فأقل حاله لا يخلو المؤمن فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة فينبغي له أن يلزم بها قلبه ويحدث بها نفسه، ويأخذ بها الجوارح في كل أحواله).

قال ابن تيمية معلقاً على كلام عبد القادر: (هذا كلام شريف، جامع، يحتاج إليه كل أحد، وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبد) وهي مطابقة لكثير من آيات القرآن الكريم.

(٣) المرجع السابق.

(٤) ابن تيمية: الفتاوى ١٠: ٥٢٠، ٥٢١.

قال ابن تيمية: (فقد أمر ـ رضي الله عنه ـ بأن ما كان محظوراً في الشرع يجب تركه ولابد وما كان معلوماً أنه مباح بعينه لكونه يفعل بحكم الهوى لا بأمر الشارع فيترك أيضاً، وأما ما لم يعلم هل هو بعينه مباح لا مضرة فيه أو فيه مضرة مثل السفر إلى مكان معين، فإن جنس هذا العمل ليس محرماً ولا كل أفراده مباحة، بل يحرم على الإنسان أن يذهب إلى حيث يحصل له ضرر في دينه فأمره بالكف عن الذهاب حتى يظهر أو يتبين له في الباطن أن هذا مصلحة، لأنه إذا لم يتبين له أن الذهاب واجب أو مستحب لم ينبغ له فعله، وإذا خاف الضرر ينبغي له تركه، فإذا أكره على الذهاب لم يكن عليه حرج فلا يؤاخذ بالفعل بخلاف ما إذا فعله باختياره أو شهوته، وإذا تبين له أنه مصلحة راجحة كان حسناً، وقد جاءت شواهد السنة: بأن من ابتلي بغير تعرض منه أعين، ومن تعرض للبلاء خيف عليه، مثل قوله ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها» ومنه قوله: «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا» وفي السنن: «من سأل القضاء واستعان عليه بالشفعاء وكل إليه، ومن لم يسأل القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكاً يسدده ـ وفي رواية ـ وإن أكره عليه».

وفي الصحيحين أنه ﷺ قال في الطاعون: «إذا سمعتم بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه» وعنه أنه ﷺ «نهى عن النذر» ومنه قوله: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[(١)].

وحال حال الحق، وقد فسر مقصوده بأنه لابد للعبد في كل حال من أن يريد فعل ما أمر به في الشرع وترك ما نهى عنه في الشرع ـ وأنه إذا أمر العبد بترك إرادته فهو فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه، وهذا حق، فإنه لم يؤمر به فتكون له إرادة في وجوده ولا نهي عنه فتكون له إرادة في عدمه فيخلو في مثل هذا عن إرادة النقيض.

وقد بين أن صاحب الحقيقة عليه أن يلزم الأمر دائماً الأمر الشرعي الظاهر إن عرفه، أو الأمر الباطن، وبين أن الأمر الباطن إنما يكون فيما ليس بواجب في الشرع ولا محرم، وإن مثل هذا ينتظر فيه الأمر الخالص حتى يفعله بحكم الأمر، فإن قلت: فما الفرق بين هذا وبين صاحب التقوى الذي قبله؟ وصاحب الحق الذي بعده؟، قيل:

---

(١) الفتاوى: ١٠: ٥٢١، ٥٢٢.

أما الذي بعده الذين سماهم الأبدال فهم الذين لا يفعلون إلا بأمر الحق، ولا يفعلون إلا به فلا يشهدون لأنفسهم فعلاً فيما فعلوه من الطاعة، بل يشهدون أنه هو الفاعل بهم ما قام بهم من طاعة أمره، ولهذا قال: فاتباع الأمر فيها مخالفتك إياك بالتبرؤ من الحول والقوة، فهؤلاء يشهدون توحيد الربوبية مع توحيد الإلهية، فيشهدون أن الله هو الذي خلق ما قام بهم من أفعال البر والخير، فلا يرون لأنفسهم حمداً ولا منة على أحد، ويرون أن الله خالق أفعال العباد فلا يرون أحداً مسيئاً إليهم، ولا يرون أن لهم حقاً على أحد إذ قد شهدوا أن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها، وهم يعلمون أن العباد لا يستحقون من أنفسهم ولا بأنفسهم على الله شيئاً، بل هو الذي كتب على نفسه الرحمة، ويشهدون أنه يستحق أن يعبد، ولا يشرك به شيئاً، وأنه يستحق أن يتقى حق تقاته، وحق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى ويشكر ولا يكفر، فيرون إنما قام بهم من العمل الصالح فهو جوده وفضله وكرمه له الحمد في ذلك، ويشهدون: أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأما ما قام بالعباد من أذاهم فهو خلقه وهو من عدله، وما نزله الناس من حقوقهم التي يستحقونها على الناس فهو الذي لم يخلقه وله الحمد على كل حال على ما فعل وما لم يفعل، ولهذا كانوا منكسرة قلوبهم، لشهودهم وجوده الكامل وعدمهم المحض، ولا أعظم انكساراً ممن لم ير لنفسه إلا لعدم لا يرى له شيئاً ولا يرى به شيئاً وصاحب الحقيقة الذي هو دون هذا قد شاركه في إخلاص الدين لله، وأنه لا يفعل إلا ما أمر به، فلا يفعل إلا لله، لكن قصر عنه في شهود توحيد الربوبية ورؤيته، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه ليس في الحقيقة شيء، بل الرب هو الخالق الفاعل لكل ما قام به، وأن كمال هذا الشهود لا يبقي شيئاً من العجب ولا أكبر ونحو ذلك، فكلاهما قائم بالأمر مطيع لله، كل هذا يشهد أن الله هو الذي جعله مسلماً مصلياً، وأنه في الحقيقة لم يحدث شيئاً، وذاك وإن كان يؤمن بهذا ويصدق به إذ كان مقراً بأن الله خالق أفعال العباد لكن قد لا يشهده شهوداً يجعله فيه بمنزلة المعدوم، و(أيضاً) بينهما فرق من جهة ثانية: وهي أن الأول تكون له إرادة وهمة في أمور فيتركها، فهو يميز في مراداته بينما يؤمر به وما ينهى عنه، وما لا يؤمر به ولا ينهى عنه، ولهذا لم يبق له مراداً أصلاً إلا ما أراد الرب، إما أمراً به فيمتثله هو بالله، وإما فعلاً فيه فيفعله الله به، ولهذا شبهه بالطفل مع الظئر في غير الأمر والنهي، وأما (الأول) الذي هو في مقام التقوى العامة، فإن له شهوات

للمحرمات، وله التفات إلى الخلق، وله رؤية نفسه فيحتاج إلى المجاهدة بالتقوى، بأن يكف عن المحرمات، وعن تناول الشهوات بغير الأمر، فهذا يحتاج أن يميز بين ما يفعله وما لا يفعله، وهو التقوى، وصاحب الحقيقة لم يبق له ما يفعله إلا ما يؤمر به فقط، فلا يفعل إلا ما أمر به الشرع، وما كان مباحاً لم يفعل إلا ما أمر به، وأما (الثالث) فقد تم شهوده في أنه لا يفعل إلا لله وبالله، فلا يفعل إلا ما أمر الله به لله، ويشهد أن الله هو الذي فعل ذلك في الحقيقة، ولا تكون له همة أراد أن يفعل لنفسه ولا لغير الله، ولا يفعل بنفسه ولا بغير الله، والثلاثة مشتركون في الطريق: في أن كلاً منهم لا يفعل إلا الطاعة لكن يتفاوتون بكمال المعرفة والشهادة وبصفاء النية والإرادة والله أعلم»[١].

عدم الخروج عن الأمر الشرعي:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاويه: (فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة - رضي الله عنهم - بأن لا يريد السالك مراداً قط، وأنه لا يريد مع إرادة الله عز وجل سواها، بل يجري فعله فيه، فيكون هو مراد الحق، إنما قصدوا فيه فيما لم يعلم العبد مراد الحق، إنما قصدوا فيه فيما لم يعلم العبد أمر الله ورسوله فيه، فأما ما علم أن الله أمر به فعليه أن يريده ويعمل به، وقد صرحوا بذلك في غير موضع، وإن كان غيرهم من الغالطين يرى أن القيام بالإرادة الخلقية هو الكمال، وهو الفناء في توحيد الربوبية، وأن السلوك إذا انتهى إلى هذا الحد فصاحبه إذا قام بالأمر فلأجل غيره، أو أنه لا يحتاج أن يقوم بالأمر فتلك أقوال وطرائق فاسدة، قد تكلم عليها في غير هذا الموضع[٢]، فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل ابن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ حماد الدباس والشيخ أبي البيان[٣]، وغيرهم من المتأخرين فإنهم لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى

(١) الفتاوى: ١٠: ٥٢٥-٥٢٨.

(٢) تكلم ابن تيمية عن هذه المسائل في كثير من فتاويه، خاصة في حديثه عن الإرادة الكونية والإرادة الدينية، ومراد الله، وأفعال العباد، والأمر والنهي الشرعيين.

(٣) يعرف أتباعه بالبيانية وهم غير البيانية أتباع بيان بن سمعان الحلولي.

أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يفعل المأمور، ويدع المحظور إلى أن يموت، وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف)[١]، وقال الشيخ عبد القادر في كتابه (فتوح الغيب): (اخرج من نفسك وتنح عنها، وانعزل عن ملكك وسلم الكل إلى الله، تبارك وتعالى، وكن بوابه على قلبك، وامتثل أمره تبارك وتعالى في إدخال من يأمرك بإدخاله، وانته نهيه في صد من يأمرك بصده، فلا تدخل الهوى قلبك بعد أن خرج منه، وإخراج الهوى من القلب بمخالفته وترك متابعته في الأحوال كلها، وإدخاله في القلب بمتابعته وموافقته فلا ترد إرادة غير إرادته تبارك وتعالى وغير ذلك منك غير، وهو واد الحمقى، وفيه حتفك وهلاكك وسقوطك من عينه تبارك وتعالى وحجابك عنه، احفظ أبداً أمره، وانته أبداً نهيه، وسلم إليه أبداً مقدوره، ولا تشركه بشيء من خلقه، فإرادتك وشهواتك خلقه فلا ترد ولا تهوى ولا تشته لئلا يكون شركاً، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، ليس الشرك عبادة الأصنام فحسب، بل هو أيضاً متابعتك لهواك، وأن تختار مع ربك شيئاً سواه من الدنيا وما فيها، والآخرة وما فيها فما سواه تبارك وتعالى غيره فإذا ركنت إلى غيره فقد أشركت به غيره، فاحذر ولا تركن، وخف ولا تأمن، وفتش ولا تغفل فتطمئن، ولا تضف إلى نفسك حالاً ومقاماً. . . .)[٢].

وقال الشيخ عبد القادر أيضاً: (إنما هو الله ونفسك وأنت المخاطب، والنفس ضد الله وعدوته، والأشياء كلها تابعة لله، فإذا وافقت الحق في مخالفة النفس وعداوتها كنت خصماً له على نفسك. . . . . إلى أن قال: (فالعبادة في مخالفتك نفسك وهواك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. . . إلى أن قال: والحكاية المشهورة عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله لما رأى رب العزة في المنام فقال له: كيف الطريق إليك فقال: اترك نفسك كما تنسلخ الحية من جلدها، فإذا ثبت أن الخير كله في معاداتها في الجملة في الأحوال كلها، فإن كنت في حال التقوى فخالف النفس، بأن تخرج من أجرام الخلق وشبههم ومنتهم والاتكال عليهم، والثقة بهم، والخوف منهم، والرجاء لهم، والطمع فيما عندهم من حطام الدنيا، فلا ترج عطاءهم

(١) الفتاوى، ط١ الرياض ١٣٨١هـ، ج١٠ ص٥١٦، ٥١٧.
(٢) الفتاوى، ١٠: ٥١٧، ٥١٨.

عن طريق الهدية أو الزكاة أو الصدقة أو الكفارة أو النذور، فاقطع همك منهم من سائر الوجوه والأسباب، فاخرج عن الخلق جداً، واجعلهم كالباب يرد ويفتتح، وكالشجرة توجد فيها ثمرة تارة وتحيل أخرى، كل ذلك بفعل فاعل وتدبير مدبر هو الله تبارك وتعالى، فإذا صح لك هذا كنت موحداً له تبارك وتعالى، ولا تنسى مع ذلك كسبهم لتتخلص من مذهب الجبرية، واعتقد أن الأفعال لا تتم لهم دون الله تبارك وتعالى لكيلا تعبدهم، وتنسى الله تعالى، ولا تقبل فعلهم دون الله فتكفر وتكون قدرياً، ولكن قل هي لله خلقاً وللعباد كسباً، كما جاءت به الآثار لبيان موضع الجزاء من الثواب والعقاب، وامتثل أمر الله فيهم، وخلص قسمك منهم بأمره ولا تجاوزه، فحكمه قائم يحكم عليك وعليهم، فلا تكن أنت الحاكم، وكونك معهم قدر، والقدر ظلمة، فادخل في الظلمة بالمصباح وهو الحكم: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا تخرج عنهما، فإن خطر خاطر أو وجدت إلهاماً فاعرضهما على الكتاب والسنة، فإن وجدت فيهم تحريم ذلك مثل أن تلهم بالزنا أو الربا أو مخالطة أهل الفسوق والفجور وغير ذلك من المعاصي فادفعه عنك، واهجره، ولا تقبله، ولا تعمل به واقطع بأنه من الشيطان اللعين، وإن وجدت فيهما إباحته كالشهوات المباحة من الأكل والشرب واللبس والنكاح فاهجره أيضاً ولا تقبله، واعلم أنه من إلهام النفس وشهواتها وقد أمرت بمخالفتها وعداوتها)[١].

قال ابن تيمية: (ومراده[٢] بهجر المباح إذا لم يكن مأموراً به كما قد بين مراده في غير هذا الموضع، فإن المباح المأمور به إذا فعله بحكم الأمر كان ذلك من أعظم نعمة الله عليه، وكان واجباً عليه، وقد قدمت أنه يدعو إلى طريق السابقين المقربين، لا يقف عند طريقة الأبرار أصحاب اليمين[٣])[٤].

---

(١) الفتاوى ١٠: ٥١٩، ٥٢٠.

(٢) أي مراد عبد القادر الجيلاني.

(٣) أي أن الجيلاني في حديثه عن الخاطر النفساني ووجوب مخالفته وإن كان يدعو إلى المباح، يدعو إلى طريق السابقين ولا يقف عند طريقة الأبرار أصحاب اليمين.

(٤) الفتاوى ١٠: ٥٢٠.

الفصل الرابع

التصوف عند الجيلاني

المبحث الأول: المتصوف والصوفي

المبحث الثاني: المريد والمراد والإرادة

المبحث الثالث: الكشف والخواطر والمشاهدة والذوق

المبحث الرابع: الفناء عند الجيلاني

المبحث الأول
المتصوف والصوفي(١)

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه (الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل): (أما المتصوف(٢) فهو الذي يتكلف أن يكون صوفياً، ويتوصل بجهده إلى أن يكون صوفياً، فإذا تكلف وتقمص بطريق القوم، وأخذ به، يسمى متصوفاً كما يقال لمن لبس القميص تقمص، ولمن لبس الدراعة تدرع، ويقال: متقمص ومتدرع، وكذلك يقال لمن دخل في الزهد متزهد، فإذا انتهى في زهده وبلغ وبغضت الأشياء إليه وفنى عنها فترك كل واحد منهما صاحبه سمي حينئذ زاهداً، ثم تأتيه الأشياء وهو لا يريدها ولا يبغضها، بل يمتثل أمر الله فيها، وينتظر فعل الله فيها، فيقال له متصوف وصوفي إذا اتصف بهذا المعنى، فهو في الأصل صوفي على وزن فوعل، مأخوذة من المصافاة يعني عبداً صافاه الله عز وجل، ولهذا قيل: الصوفي من كان صافياً من آفات النفس، خالياً من مذموماتها، سالكاً لحميد مذاهبه، ملازماً للحقائق غير ساكن بقلبه إلى أحد من الخلائق.

---

(١) يقول السراج صاحب اللمع (إن اللفظ تصوف وصوفية أطلق على أهله نسبة إلى ردائهم، ولأنهم جماع المعارف والعلوم، فلهم جميع الأحوال، وتتغير أحوالهم هذه دائماً، فلا يثبت عليهم اسم مطلقاً، ولهذا استحسن إطلاق اسم ردائهم عليهم للتعرف بهم)
ـ الحركة الصوفية في الإسلام لأبي ريان، ص ١١ ـ

(٢) يقول الهجويري في كتابه (كشف المحجوب): (والذين هم في هذه الدرجة (درجة الروحانية) على ثلاث مراتب، أولاها الصوفي، وثانيها المتصوف، وثالثها المستوصف).
فالصوفي هو من كان فانياً في نفسه وباقياً في الحق، ومنطلقاً من قبضة الطبائع، ومتصلاً بحقيقة الحقائق، والمتصوف هو من يبغي هذه الدرجة بطريق المجاهدة، ويجعل نفسه جديرة بمتابعتهم في المعاملة أما المستوصف فهو عند الصوفية كالذباب وعند غيرهم كالذئاب.
انظر تاريخ التصوف في الإسلام لقاسم غني ص٢٨١.

وقيل: إن التصوف: الصدق مع الحق، وحسن الخلق مع الخلق، وأما الفرق بين المتصوف والصوفي: فالمتصوف المبتدئ، والصوفي[١] المنتهي، المتصوف الشارع في طريق الوصل، والصوفي من قطع طريق الوصل ووصل إلى من إليه القطع والوصل.

المتصوف محمل والصوفي محمول، حمل المتصوف كل ثقيل وخفيف، فحمل حتى ذابت نفسه، وزال هواه، وتلاشت إرادته وأمانيه، فصار صافياً فسمي صوفياً، فحمل فصار محمول القدر كرة المشيئة، مربى النفس، منبع العلوم والحكم، بيت الأمن والنور، كهف الأولياء والأبدال[٢] وموئلهم ومرجعهم ومتنفسهم ومسرتهم، إذ هو عين القلادة درة التاج منظر الرب.

---

(١) قال الكلاباذي: وقال بشر بن الحارث: الصوفي من صفا قلبه لله، وقال بعضهم: الصوفي من صفت لله معاملته، فصفت له من الله عز وجل كرامته، وقال قوم: إنما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع هممهم إليه وإقبالهم بقلوبهم عليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه.
وقال قوم: (إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وقال قوم: إنما سموا صوفية للبسهم الصوف).
انظر كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف ص٢١.

(٢) جاء في دائرة المعارف الإسلامية: (أبدال جمع بدل إحدى المراتب في الترتيب الطبقي للأولياء عند الصوفية، لا يعرفهم عامة الناس (أهل الغيب)، وهم يشاركون بما لهم من اقتدار له أثره في حفظ نظام الكون، ولا تتفق الروايات المختلفة الواردة في كتب الصوفية على رأي في تفصيلات هذا النظام الطبقي، وكذلك يوجد خلاف كبير في الرأي حول عدد الأبدال)، فالهجويري في كتابه كشف المحجوب يرى أنهم أربعون، ويقول أبو طالب المكي إنهم ثلاثمائة ويقول ابن عربي إنهم سبعة (والرأي الغالب أن الأبدال في الطبقة الخامسة من طبقات الأولياء التي تنحدر من القطب الأعظم.... ويتقدم عليهم بعد القطب الذي يأتي في المرحلة الأولى:
٢ـ الإمامات، ٣ـ الأوتاد الخمسة، ٤ـ الأفراد السبعة، ويأتي بعد الأبدال الذين هم في الطبقة الخامسة، ٦ـ النجباء السبعون، ٧ـ النقباء الثلاثمائة، ٨ـ العصائب الخمسمائة، ٩ـ الحكماء أو المفردون وعددهم غير محدد، ١٠ـ الرجبيون، وكل طبقة من هذه الطبقات العشر لهم إقليم خاص ومجال عمل خاص، فإذا خلا مكان في طبقة ملأ بعضٌ من أعضاء الطبقة التي هي مباشرة.... ويسمى الفرد من الأبدال البدل).
دائرة المعارف الإسلامية النسخة العربية إعداد إبراهيم زكي خورشيد وآخرون ط. الشعب ١/ ١٤٢.
وجاء الدكتور عبد الحليم محمود في هامش كتاب لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري بأحاديث قال عنها إنها وردت في السنة المطهرة، وإنها صحيحة وحسنة عن الأبدال، ومنها قوله ﷺ: «الأبدال في هذه الأمة ثلاثون رجلاً، قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن كلما
=

والمريد المتصوف مكابد لنفسه وهواه وشيطانه وخلق ربه ودنياه وأخراه، متعبد لربه عز وجل بمفارقة الجهات الست والأشياء وترك العمل لها وموافقتها، والقبول منها وتصفية باطنه من الميل إليها والاشتغال بها، فيخالف شيطانه ويترك دنياه، ويفارق أقرانه وسائر خلق ربه بحكمه عز وجل لطلب أخراه، ثم يجاهد نفسه وهواه بأمر الله عز وجل فيفارق أخراه، وما أعد عز وجل لأوليائه فيها من جنة لرغبته في مولاه، فيخرج من الأكوان فيصفى من الأحداث ويتجوهر لرب الأنام، فتنقطع منه العلائق والأسباب والأهل والأولاد، فتنسد عنه الجهات، وتنفتح في وجهه جهة الجهات وباب الأبواب، وهو الرضا بقضاء رب الأنام ورب الأرباب، ويفعل فيه فعل العالم بما هو كان وما هو آت، والخبير بالسرائر والخفيات، وما تتحرك به الجوارح، وما تضمره القلوب والنيات، ثم يفتح تجاه هذا الباب باب يسمى باب القربة إلى المليك الديان، ثم يرفع منه إلى مجالس الإنس، ثم يجلس على كرسي التوحيد، ثم يرفع عنه الحجب ويدخل دار الفردانية، ويكشف عنه الجلال والعظمة، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بلا هو، فانياً عن نفسه وصفاته[1]، عن حوله وقوته وحركته وإرادته ومناه ودنياه وأخراه، فيصير كإناء بلور مملوء ماء صافياً، تتبين فيه الأشباح،

= مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً» ـ رواه الإمام أحمد ـ «الأبدال في أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض وبهم تمطرون وبهم تنصرون» رواه الإمام أحمد. «الأبدال من أهل الشام، وبهم ينصرون وبهم يرزقون» رواه الطبري عن عوف بن مالك، ورمز له السيوطي بالحسن، ـ ص١٤ هامش لطائف المنن ـ وقال ابن تيمية: (والذين تكلموا باسم البدل فسروه بمعان: منها أنهم أبدال الأنبياء، ومنها أنه كلما مات منهم رجل أبدل الله مكانه رجلاً، ومنها أنهم أبدلوا السيئات من أخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بحسنات وهذه الصفات كلها لا تختص بأربعين ولا بأقل ولا بأكثر ولا تحصر بأهل بقعة من الأرض) الفتاوى ١١: ٤٤٢.

وقال ابن تيمية: (وكذلك من فسر الأربعين الأبدال بأن الناس إنما ينصرون ويرزقون بهم فذلك باطل، بل النصر والرزق يحصل بأسباب من آكدها دعاء المؤمنين وصلاتهم وإخلاصهم، ولا يتقيد ذلك بأربعين ولا بأقل ولا بأكثر كما جاء في الحديث المعروف أن سعد بن أبي وقاص قال: يا رسول الله الرجل يكون حامية القوم أيسهم له مثل ما يسهم لأضعفهم؟

فقال: (يا سعد وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم، وقد يكون للرزق والنصر أسباب أخر، فإن الفجار والكفار أيضاً يرزقون وينصرون. . . .)

الفتاوى ١١: ٤٤٢، ٤٤٣.

(١) قال الخركوشي في تعريف الفناء (هو فناء المعاصي) وقال في تعريف البقاء (هو بقاء الطاعات)، انظر: تهذيب الأسرار ص٤٣٨.

فلا يحكم عليه غير القدر ولا يوجد غير الأمر، فهو فان عنه وعن حظه، موجود لمولاه وأمره، لا يطلب خلوه لأن الخلوة للموجود، فهو كالطفل لا يأكل حتى يطعم، ولا يلبس حتى يلبس، فهو مسترسل مفوض ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨]. هو كائن بين الخليفة بالجسمان، بائن عنهم بالأفعال والأعمال والسرائر والضمائر والنيات، فحينئذ يسمى صوفياً، على معنى أنه يصفى من التكدر بالخليقة والبريات وإن شئت سميته بدلاً من الأبدال، وعيناً من الأعيان، عارفاً بنفسه وربه الذي هو هو محيي الأموات، المخرج أولياءه من ظلمات النفوس والطباع والأهوية والضلالات إلى ساحات الذكر والمعارف والعلوم والأسرار ونور القربة، ثم إلى نوره عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥] ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فالله تعالى تولى إخراجهم من الظلمات، وهو عز وجل أطلعهم على ما أضمرت قلوب العباد، وانطوت عليه النيات، إذ جعلهم ربي جواسيس القلوب والأمناء على السرائر والخفيات، وحرسهم من الأعداء في الخلوات والجلوات، لا شيطان مضل ولا هوى متبع يميل بهم إلى الضلالات، قال الله عز وجل ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، ولا في نفس أمارة بالسوء، ولا شهوة غالبة متبعة تدعوه إلى اللذات المردية في الدركات المخرجة من أهل السنة والجماعة قال الله عز من قائل ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فحرسهم ربي وقمع رعونات نفوسهم وضراوتها سلطان الجبروت فثبتهم في مراتبهم ووفقهم للوفاء بشرطه بعد أن وفقهم للوفاء بالصدق في سيرهم، وبالصبر في محل انقاطعهم واضطرارهم، فأدوا الفرائض وحفظوا الحدود والأوامر، وألزموا المراتب حتى قوموا، وهذبوا ونقوا وأدبوا وطهروا ووسعوا وزكوا وشجعوا وعوذوا فتمت لهم ولاية الله وتوليته ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] فنقلوا من مراتبهم إلى مالك الملك، فرتب لهم ذلك بين يديه، فصار نجواهم كفاحاً يناجونه بقلوبهم وأسرارهم، فاشتغلوا به عمن سواه، ونهوا عن نفوسهم، وعن كل شيء هو رب كل شيء ومولاه، فصيرهم في قبضته وقيدهم بعقولهم وجعلهم أمناء، فهم في قبضته وحصنته وحراسته، يتشممون روح القرب، ويعيشون في فسحة التوحيد والرحمة، فلا يشتغلون بشيء إلا بما أذن لهم من الأعمال، فإذا جاء وقت عمل أبدانهم دون قلوبهم، مضوا مع الحرس في تلك الأعمال، كي لا تضرهم شياطينهم ونفوسهم وأهويتهم، فتسلم أعمالهم من حظ الشياطين، وهنات النفوس من الرياء والنفاق

والعجب وطلب الأعراض، والشرك بشيء من الأشياء، والحول والقوة، بل يرون جميع ذلك فضلاً من الله وتوفيقاً من الله خلقاً، ومنهم بتوفيقه كسباً كيلا يخرجوا بهذه العقيدة من سنن الهدى، ثم يردون بعد أداء تلك الأوامر، وفراغ تلك الأعمال إلى مراتبهم التي ألزموها، فوقفوا معها وحفظوها بالقلوب والضمائر، وقد ينقلون إلى حالة بعد أن جعلوا الأمناء، وخوطب كل واحد منهم بالانفراد في حالته ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يُوسُف: ٥٤] فلا يحتاجون فيها إلى إذن، لأنهم صاروا كالمفوض إليهم أمرهم، فهم في قبضته حيثما ذهبوا في شيء من أمورهم، يحققه قول النبي ﷺ فيما يحكيه عن جبريل عليه السلام عن الله عز وجل أنه قال: «ما تقرب عبدي بمثل أداء فرائضي وأنه ليتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وفؤاده، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي ينطق، وبي يعقل، وبي يبطش»[(١)] فهذا الخبر قد ذكرناه في مواضع من هذا الكتاب[(٢)]، فهذا لأنه أصل هذا المقام، فيمتلئ قلب هذا العبد بحب ربه عز وجل ونوره وعلمه والمعرفة فلا يصح غير ذلك.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه»[(٣)] فظاهره متحرك متصرف بفعل الله تعالى، وباطنه مملوء بالله عز وجل.

وقد قال موسى عليه السلام: «يا رب أين أبغيك قال: يا موسى في أي بيت يسعني وأي مكان يحملني؟ فإن أردت أن تعلم أين فإني في قلب التارك العفيف»[(٤)] فالتارك هو الذي يترك بجهد وفيه بقية، ثم من عليه ربه فودعه موتاً عنه ثم عفا، فلا يلتفت إلى شيء سوى مولاه، فما تلك المنة التي من بها ربه عليه؟ وذلك أنه عز وجل أقامه المرتبة على شرطية اللزوم لها ليقوم بها، فلما وفى له بالشرط ولم يبلغ عملاً

---

(١) حديث: «ما تقرب إلي عبدي... إلخ» سيأتي تخريجه في الكلام عن المريد والإرادة.

(٢) هذا كلام الجيلاني والكتاب هو الغنية.

(٣) حديث «من أحب....» في حلية الأولياء ١/ ١٧٧ الحديث بإسناده إلى عبد الله بن أرقم يقول: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ وذكر سالماً مولى أبي حذيفة فقال: إن سالماً شديد الحب لله عزوجل وفيه أيضاً عن عمر بإسناده لو استخلفت سالماً مولى أبي حذيفة فسألني عنه ربي ما حملك على ذلك لقلت رب سمعت نبيك ﷺ يقول: إنه يحب الله تعالى حقاً من قلبه... إلخ.

(٤) حيث «يا رب أين أبغيك...» في الدر المنثور ٣/ ١١٦ أي رب أين أبغيك قال ابغني عند المنكسرة قلوبهم إني أدنو منهم كل يوم باعاً ولولا ذلك لانهدموا، أخرجه أحمد عن عمران القصير.

وحركة غير ذلك وحفظه ولم يتجاوز نقله منها إلى ملك الجبروت ليقوم، فجبر نفسه ثم قمعها بسلطان الجبروت حتى ذلت وخشعت ثم نقله منها إلى الملك السلطان ليهذب، فذابت تلك الغدد التي في نفسه وهي أصول تلك الشهوات التي قد صارت غدة ثابتة فيها، ثم نقله منها إلى ملك الجلال فأدب ثم نقله منها إلى ملك الجمال فنقى، ثم نقله منها إلى ملك العظمة فطهر، ثم إلى ملك البهاء فطيب، ثم إلى ملك البهجة فوسع، ثم إلى ملك الهيبة فربي، ثم إلى ملك الرحمة فرطب وقوي وشجع ثم إلى ملك الفردية فعوذ.

فاللطف يعذبه، والرأفة تجمعه وتكتنفه، والمحبة تقويه والشوق يدنيه، والمشيئة تؤديه إليه، والجواد العزيز يقبله فيقر به ثم يدنيه ثم يمهله ثم يؤدبه ثم يناجيه ثم يبسطه بمنه ثم يقبض عليه، فأينما صار وفي كل مكان خال وفي كل حال لربه دان فهو في قبضته، وأمين من أمنائه على أسراره، وما يؤديه من ربه إلى خلقه، فإذا صار إلى هذا المحل فقد انقطعت الصفات وانقطع الكلام والعبارات، فهذا هو منتهى العقول والقلوب وغاية ما تبلغ حالات الأولياء إليه وتؤول، وما وراء ذلك مختص بالأنبياء والرسل عليهم السلام؛ لأن نهاية الولي بداية النبي على الجميع صلوات الله وتحياته ورأفته ورحمته.

والفرق بين النبوة والولاية أن النبوة كلام بفضل من الله تعالى ووحي، معه روح من الله يقضي الوحي، ويختمه بالروح، منه تعالى قبوله فيقبله، هو هذا الذي يلزم تصديقه، ومن رده فهو كافر لأنه راد لكلام الله عز وجل، وأما الولاية فهي لمن تولى الله عز وجل حديثه عن الإلهام[1] فأوصله إليه فله الحديث، فينفصل ذلك الحديث من الله على لسان الحق معه السكينة فتلقاه السكينة التي في قلب المجذوب فيقبله ويسكن إليه، فالكلام للأنبياء، والحديث للأولياء، فمن رد الكلام كفر، لأنه رد على الله كلامه ووحيه ومن رد الحديث لم يكفر، بل يخيب ويصير وبالاً عليه ويبهت قلبه لأنه رد على الحق على ما جاء به محبة الله تعالى ممن علم الله في نفسه فأودعه الحق، وجعله مؤدياً إلى القلب، لأن الحديث ما طهر من علمه الذي برز في وقت المشيئة، فيصير حديثاً في النفس كالنسر، إنما يقع ذلك الحديث بمحبة من الله لهذا العبد فيمضي مع الحق إلى قلبه فيقبله القلب بالسكينة.

(١) الإلهام: سيأتي الكلام عنه في الحديث عن الكشف والمشاهدة والخواطر عند الجيلاني.

المبحث الثاني
في الإرادة والمريد والمراد

كتب الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه آداب المريدين[١] فصلاً عن الإرادة والمريد والمراد، قال فيه: (أما الإرادة: فترك ما عليه العادة، وتحقيقها نهوض القلب

---

(١) هو كتاب (آداب المريدين من الفقراء الصادقين سالكي طريق الصوفية الذين صفوا عن الأهوية المضلة، وأمسكوا عن الأخلاق الردية فأدخلوا في زمرة الأبدال وأهل الولاية، واتصفوا بالعينية على وجه الاختصار والإقلال خشية السآمة والملال)، ويحتوي على الأبواب والفصول التالية:
أ ـ فصل في الإرادة والمريد والمراد.
ب ـ فصل (ما المتصوف ومن الصوفي)
ج ـ باب فيما يجب على المبتدئ في هذه الطريقة أولاً،
وما يجب عليه من الأدب من الشيخ ثانياً، وما يجب على الشيخ في تأديب المريد فصل: في أدبه مع شيخه
باب: في صحبة الإخوان والصحبة مع الأجانب وكيف الصحبة مع الأغنياء والفقراء.
فصل: في سؤال الفقير.
فصل: في آداب العشرة.
فصل: في آداب الفقراء عند الأكل.
فصل: في آدابهم فيما بينهم.
فصل: في آدابهم مع الأهل والولد.
فصل: في آدابهم في السفر.
فصل: عن المجاهدة.
فصل: في التوكل.
فصل: عن الشكر.
فصل: عن الصبر.
فصل: عن الرضا.
فصل: عن الصدق.
وهذه الأبواب والفصول هي القسم الخامس من كتاب الغنية وهو عن التصوف.

في طلب الحق سبحانه وترك ما سواه، فإذا ترك العبد العادة التي هي حظوظ الدنيا والأخرى فتجردت حينئذ إرادته، فالإرادة مقدمة على كل أمر، ثم يعقبها القصد، ثم الفعل، فهي بدء طريق كل سالك واسم أول منزلة كل قاصد، قال الله عز وجل لنبيه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] فنهى نبيه ﷺ عن طردهم وإبعادهم، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨] فأمره بالصبر معهم وملازمتهم، وتصبر النفس في صحبتهم ووصفهم بأنهم يريدون وجهه، ثم قال: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨] فبان بذلك أن حقيقة إرادة وجه الله فحسب، دون زينة الحياة الدنيا والأخرى.

فأما المريد والمراد[١]، فالمريد[١] من كانت فيه هذه الجملة، واتصف بهذه الصفة، فهو أبداً مقبل على الله عز وجل وطاعته، مول عن غيره وإجابته، يسمع من ربه عز وجل فيعمل بما في الكتاب والسنة، ويصم عما سوى ذلك، ويبصر بنور الله عز وجل فلا يرى إلا فعله فيه، وفي غيره من سائر الخلائق، ويعمي غيره فلا يرى فاعلاً على الحقيقة غيره عز وجل بل يرى آلة وسبباً محركاً مدبراً مسخراً، قال النبي ﷺ: «حبك الشيء يعمي ويصم»[٢] أي يعميك من غير محبوبك، ويصمك عنه

---

(١) بين الترمذي في كتابه معرفة الأسرار الفرق بين المريد والمراد، ويتلخص ذلك في الآتي:
المريد: يطلب الله بجهده، ويطلب الله بمعاملته، وإن جنى في البين باعدوه.
والمراد: تطلبه الأحوال، ويريد الله بجهده، وإن جنى لم يباعدوه ولم يطردوه، وإن ذهب لم يتركوه، ولكن حبسوه وربطوه، وإن دنا يغارون عليه من غيره، وإن التفت إلى غيره منعوه، وعلى أسراره يطلعونه.
والمريد يجد ألم السير، والمراد لا يجد ألم السير،
والمريد يسير إلى الله تعالى قصداً.
والمراد يسير إلى الله تعالى سيفاً.
والمراد لا يطلب الغوص، والمريد في طلب الله مدلل، والمراد مع الله مدلل حتى يفيق المراد من سكرته حتى يتجلى له الجليل بهيبته فيفيق من سكرته، ويكون أسيراً في قبضته.
انظر: معرفة الأسرار، تحقيق ودراسة دكتور محمد إبراهيم الجيوشي، الناشر دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٧م ص٥٧.
وتكلم ابن تيمية في فتاويه عن المريد.
انظر الفتاوى ١٠ : ٤٨٦ـ ٤٨٩.

(٢) حديث «حبك الشيء يعمي ويصم» في الجامع الصغير ١/ ٢٥١، رواه الإمام أحمد في مسنده، =

لاشتغالك بمحبوبك، فما أحب حتى أراد، وما أراد حتى تجردت إرادته، وما تجردت إرادته حتى قذفت في قلبه جمرة الخشية فأحرقت كل ما هنالك قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤] كما قيل: إنها لوعة تهون كل روعة فنومه غلبة وأكله فاقة، وكلامه ضرورة ينصح نفسه أبداً فلا يجيبها إلى محبوبها ولذاتها، وينصح عباد الله ويأنس بالخلوة مع الله، ويصبر عن معاصي الله، ويرضى بقضاء الله، ويختار أمر الله، ويستحي من نظر الله، ويبذل مجهوده في محاب الله تعالى ويتعرض أبداً لكل سبب يوصله إلى الله عز وجل، ويقنع بالخمول والاختفاء فلا يختار حمد عباد الله(١) ويتحبب إلى ربه بكثرة النوافل، مخلصا لله حتى يصل إلى الله عز وجل، ويحصل في زمرة أحباب الله ومريديه فحينئذ يسمى مراداً، فتحط عنه أثقال سالكي طريق الله، ويغسل بماء رحمة الله ورأفته ولطفه، فيبني له بيت في جوار الله، وتخلع عليه أنواع الخلع، وهي المعرفة بالله والأنس به، والسكون والطمأنينة إليه، وينطق بحكمة الله وأسرار الله بعد الإذن الصريح، بل الخبر من الله عز وجل، ويلقب بألقاب يتميز بها بين أحباب الله تعالى، فيدخل في خواص الله، ويسمى بأسماء لا يعلمها إلا الله، ويطلع على أسرار تخصه، فلا يبوح بها عند غير الله عز وجل، فيسمع به، ويبصره به، وينطق بالله، ويبطش بقوة الله، ويسعى في طاعة الله، ويسكن إلى الله، وينام مع طاعة الله وذكر الله في كلاءة الله، وحرز الله، فيكون من أمناء الله وشهدائه وأوتاد أرضه ومنجي عباده وبلاده وأحبائه وأخلائه، قال النبي ﷺ حاكياً عن

= ورواه البخاري في التاريخ ورواه أبو داود عن أبي الدرداء الخرائطي في اعتلال القلوب عن أبي برزة وابن عساكر عن عبد الله ابن أنس: وهو حديث حسن.
انظر هامش الغنية ص١٢٦٦.

(١) جاء في كتاب عوارف المعارف للسهروردي أنه سمع أن الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله كان إذا جاء إليه فقير زائر، يخبر بالفقير فيخرج ويفتح الباب، ويصافح الفقير، ويسلم عليه، ولا يجلس معه، ويرجع إلى خلوته، وإذا جاء أحد ممن ليس في زمرة الفقراء يخرج ويجلس معه، فخطر لبعض الفقراء نوع إنكار لتركه الخروج إلى الفقير وخروجه لغير الفقير، فانتهى ما خطر للفقير إلى الشيخ فقال: الفقير رابطتنا معه رابطة قلبية، وهو من أهل، وليس عنده أجنبية فنكتفي معه بموافقة القلوب، ونقنع بها عن ملاقاة الظاهر بهذا القدر، وأما من هو من جنس غير الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر، فمتى لم يوف حقه من الظاهر استوحش، فحق المريد عمارة الظاهر والباطن مع الشيخ...)
ـ عوارف المعارف ص٤٠٩ ـ

الله تعالى «لا يزال عبدي المؤمن يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وفؤاده، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي ينطق، وبي يعقل وبي يبطش» الحديث(١).

فهذا عبد حمل عقله العقل الأكبر، وسكنت حركاته الشهوانية لقبضة الحق عز وجل، فصار قلبه خزانة الله عز وجل، فهذا هو مراد الله تعالى إن أردت أن تعرفه يا عبد الله، وقد قال من تقدم من عباد الله: إن المريد والمراد واحد، إذ لو لم يكن مراد الله عز وجل بأن يريده لم يكن مريداً، إذ لا يكون إلا ما أراد، لأنه إذا أراد الحق بالخصوصية وفقه بالإرادة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ [الإنسان: ٣٠] وقال آخرون: المريد المبتدى والمراد المنتهى.

المريد: الذي نصب بعين التعب وألقى في مقاساة المشاق، والمراد(٢) الذي لقي الأمر من غير مشقة، المريد متعب والمراد مرفوق به مرفه، فالأغلب في حق القاصدين

---

(١) حديث «لا يزال عبدي المؤمن... إلخ» في المغني عن حمل الأسفار ١/ ٧٧، متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ كنت سمعه وبصره، وفي سنن ابن ماجه ج٢ ص١٢٥٥ باب فضل العمل ح٣٨٢١ بلفظ «من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً...» وفي نيل الأوطار ٢/ ٦٢ رواه البخاري عن أبي هريرة، وانفرد البخاري بزيادة عن باقي الكتب الستة، ورواه ابن حبان في صحيحه، وأبو داود خارج السنن فيما رواه عن ابن الأعرابي، ورواه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الزهد، وابن عدي في الكامل وآخرون، وهذا الحديث من الأحاديث القدسية التي يستدل بها ابن تيمية دائماً في فتاويه في حديثه عن الاتحاد الوصفي، ولفظ الحديث في الفتاوى هكذا: قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح فيما يروي عن ربه: «لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته، ولابد له منه»
قال ابن تيمية في شرح هذا الحديث «.... فبين سبحانه أنه يتردد؛ لأنه يحب ما يحبه عبده، ويكره ما يكرهه، وهو يكره الموت فهو يكرهه، كما قال: وأنا أكره مساءته، وهو سبحانه قد قضى بالموت فهو يريد أن يموت فسمى ذلك تردداً، ثم بين أنه لابد من وقوع ذلك، وهذا اتفاق واتحاد في المحبوب المرضي المأمور به والمبغض المكره المنهي عنه، وقد يقال له اتحاد نوعي وصفي، وليس ذلك اتحاد الذاتين، فإن ذلك محال ممتنع، والقائل به كافر، وهو قول النصارى والغالية من الرافضة والنساك كالحلاجية ونحوهم» انظر الفتاوى ١٠/ ٩٥.

(٢) تكلم الكلاباذي في كتابه التعرف لمذهب أهل التصوف في باب عن قول الصوفية في المريد =

المبتدئين في سنة الله تعالى ما قد تم وجرى من توفيق الله تعالى للمجاهدات، ثم إيصالهم إليه وحط الأثقال عنهم، والتخفيف عنهم في كثير من النوافل وترك الشهوات، والاقتصار على القيام بالفرائض والسنن من جميع العبادات، وحفظ القلوب ومحافظة الحدود والمقام والانقطاع عما سوى الحق عز وجل بالقلوب، فيكون ظواهرهم مع خلق الله تعالى، وبواطنهم مع الله عز وجل، ألسنتهم بحكم الله، وقلوبهم بعلم الله، فألسنتهم لنصح عباد الله، وأسرارهم لحفظ ودائع الله، فعليهم سلام

= والمراد فقال: (المريد مراد في الحقيقة، والمراد مريد؛ لأن المريد لله تعالى لا يريد إلا بإرادة من الله عزوجل تقدمت له).

قال الله تعالى ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨].

فكانت إرادته لهم سبب إرادتهم له، إذ علة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، ومن أراده الحق فمحال أن لا يريده العبد، فجعل المريد مراداً والمراد مريداً، غير أن المريد هو الذي سبق اجتهاده كشوفه، والمراد هو الذي سبق كشوفه اجتهاده فالمريد هو الذي قال الله تعالى عنه ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وهو الذي يريده الله تعالى فيقبل بقلبه ويحدث فيه لطفاً يثير منه الاجتهاد فيه والإقبال عليه والإرادة له، ثم يكاشفه الأحوال كما قال حارثة: عزفت نفسي عن الدنيا فأظمأت نهاري وأسهرت ليلي، ثم قال: وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً.

فأخبر أن كشوف أحوال الغيب له كان عقيب عزوفه عن الدنيا.

والمراد: هو الذي يجذبه الحق جذبة القدرة، ويكاشفه بالأحوال، فيثير قوة الشهود منه اجتهاداً فيه وإقبالاً عليه وتحملاً لأثقاله، كسحرة فرعون: لما كوشفوا بالحال في الوقت، سهل عليهم تحمل ما توعدهم به فرعون فقالوا ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢].

وكقصة إبراهيم بن أدهم: خرج يطلب الصيد متلهياً فنودي: ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت، مرتين، ونودي في الثالثة من سرجه فقال: والله لا عصيت الله بعد يومي هذا ما عصمني ربي.

هذه جذبة القدرة، كوشفوا بالأحوال، فأسقطوا عن النفوس والأموال أنشدني الفقيه أبو عبد الله البرقي لنفسه:

مريد صفا منه سر الفؤاد ... فهام به السر في كل واد

ففي أي واد سعى لم يجد ... له ملجأ غير مولى العباد

أراد وما كان حتى أريد ... فطوبى له من مريد مراد

الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف ١٣٩ـ ١٤١.

الله وتحياته وبركاته ورحمته وتحيته ما دامت أرضه وسماؤه، وقام العباد بطاعته وحقه وحفظ حدوده.

وسئل الجنيد[1] رحمه الله عن المريد والمراد فقال: المريد[2] تتولاه سياسة العلم، والمراد[3] تتولاه رعاية الحق، لأن المريد يسير، والمراد يطير، فمتى يلحق السائر الطائر؟

وينكشف ذلك بموسى ونبينا ﷺ، كان موسى عليه السلام مريداً ونبينا ﷺ مراداً، انتهى سير موسى عليه السلام إلى جبل طور سيناء، وطيران نبينا ﷺ إلى العرش واللوح المسطور.

فالمريد طالب، والمراد مطلوب[4]، عبادة المريد مجاهدة وعبادة المراد موهبة، المريد موجود، والمراد فان، المريد يعمل للعوض، والمراد لا يرى العمل بل يرى

---

(١) هو أبو القاسم، الجنيد بن محمد الجنيد الخزاز، ويقال له القواريري، كان أبوه قواريرياً وكان هو خزازاً، أصله من نهاوند، ولد ببغداد ونشأ بها، وكانت وفاته سنة ثمان وتسعين ومائتين، وذكر ابن كثير أنها كانت سنة سبع وتسعين ومائتين
انظر ترجمته في:
(أ) ابن خلطان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، المجلد الأول ص٣٧٢ وما بعدها.
(ب) السلمي: طبقات الصوفية، يسره ورتبه أحمد الشرباصي ط القاهرة ١٣٨٠هـ ص٣٦.
(ج) البغدادي: تاريخ بغداد ط الخانجي بالقاهرة، مصر ١٣٤٢هـ، المجلد السابع ص٢٤١-٢٤٧.
(د) الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة المجلد ١٤ ص٦٦ وما بعدها.
(هـ) الخوانساري: روضات الجنات ٢: ٢٣٧ وما بعدها.
(و) ابن الجوزي: صفة الصفوة ٢: ٢٣٥ وما بعدها.
(ز) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٢/ ٢٨.

(٢) قال الخركوشي في كتابه تهذيب الأسرار ص٤٣٨ في تعريف المريد: (هو الذي صحت إرادته لمراده ابتداء، وشهدت بصحة إرادته قلوب الصادقية).

(٣) قال الخركوشي في تعريف المراد: (وهو أبلغ حالاً من المريد، وهو الذي انتهت إرادته حتى لم تبق له إرادة).

(٤) مراد الحق هو الذي يكون فيه مراد العبد مطابقاً لما أمر الله به، فيعمل العبد ويريد فعل ما أمر الله به لا كما يعتقد بعض الغلاة من أن يكون إرادة العبد هي إرادة الله، ويكون المريد واحد، والإرادة واحدة، والمراد واحد.

التوفيق والمنن، المريد يعمل في سلوك السبيل، والمراد قائم على مجمع كل سبيل، المريد ينظر بنور الله والمراد ينظر بالله، المريد قائم بأمر الله والمراد قائم بفعل الله، المريد يخالف هواه والمراد يتبرأ من إرادته ومناه، المريد يتقرب والمراد يقرب به[١]، والمريد يحمى والمراد يدلل وينعم ويغذى ويشهى، المريد محفوظ، والمراد يحفظ به المريد في الترقي، والمراد قد أوصل وبلغ إلى الرب الذي هو المرقي، ونال عنده كل طريف ونفيس ولطيف ونقي فجاز على كل طائع عايد متقرب بار تقي)[٢].

(١) قال الشيخ عبد القادر الجيلاني (من لم يعتقد في شيخه الكمال لا يفلح على يديه أبداً) ـ كتاب الأنوار القدسية ص١٧٤ ـ

(٢) الغنية، لعبد القادر الجيلاني من ص١٢٦٥ إلى ص١٢٦٩ فصل في الإرادة والمريد والمراد.

المبحث الثالث
الكشف والمشاهدة والذوق والخواطر(١)

يطلق الصوفية على ما يقع لهم من الغيب، والحديث عن الخواطر(٢) فراسة وكشفاً، ولا يقصدون بعبادتهم هذه الفراسة أو الكشف وإنما يقع لهم ذلك بالعرض إذ لو كان مقصوداً لكان شركاً(٣)، ولقد تكلم المؤرخ الصوفي السراج الطوسي عن المشاهدة والمكاشفة وعرفهما.

فالمشاهدة: حال رفيع وهي من لوائح زيادات اليقين، واليقين هو المكاشفة، والمكاشفة على ثلاثة أوجه:

(أ) مكاشفة العيان بالإبصار يوم القيامة.

---

(١) انظر: شوقي بشير: نقد ابن تيمية للتصوف ط١ دار الفكر، الخرطوم ١٩٨٧م ص٣٨ـ ٤٨.

(٢) قال الكاشاني في كتابه اصطلاحات الصوفية ص١٦٧، ١٦٨: (الخاطر هو ما يرد على القلب من الخطاب والوارد الذي لا تعمد للعبد فيه، وما كان خطاباً فهو على أربعة أقسام: رباني وهو أول الخواطر، ويسميه سهل السبب الأول ونقر الخاطر، وهو لا يخطئ أبداً، وقد يعرف بالقوة والتسلط وعدم الاندفاع بالدفع، وملكي وهو الباعث على مندوب أو مفروض، وفي الجملة كل ما فيه صلاح، ويسمى إلهاماً، ونفساني وهو ما فيه حظ النفس، ويسمى هاجساً وشيطاني، وهو ما يدعو إلى مخالفة الحق، قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] وقال النبي ﷺ: «لمة الشيطان تكذيب بالحق وإبعاد بالشر» ويسمى وسواساً...).
وتقاس هذه الخواطر بميزان الشرع: (... فما فيه قربة فهو من الأولين، وما فيه كراهة أو مخالفة الشرع فهو من الأخيرين، ويشتبه في المباحات فما هو أقرب إلى مخالفة النفس فهو من الأولين، وما هو أقرب إلى الهوى وموافقة النفس فهو من الأخيرين...)
ـ الكاشاني: اصطلاحات الصوفية ص١٦٧، ١٦٨ وقال الكاشاني في تعريف الذوق: هو أول درجات شهود الحق بالحق في أثناء البوارق المتتالية عند أدنى لبث من التجلي البرقي، فإذا زاد وبلغ أوسط مقام الشهود سمي شرباً...) اصطلاحات الصوفية ص١٧٢.

(٣) عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، المجلد الأول ص٨٦٧.

(ب) مكاشفة القلوب بحقائق الإيمان بمباشرة اليقين بلا كيف ولا حد.

(ج) مكاشفة الآيات بإظهار القدرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالمعجزات ولغيرهم بالكرامات والإجابات وأهل المشاهدة على ثلاث أحوال:

١ـ الأصاغر: وهم المريدون وهؤلاء يشاهدون الأشياء بعين العبر ويشاهدونها بأعين الفكر.

٢ـ الأوساط: وهم الذين أشار إليهم أبو سعيد الخراز[١] بقوله: (الخلق في قبضة الحق وفي ملكه، فإذا وقعت المشاهدة فيما بين الله وبين العبد لا يبقى في سره ولا في همه غير الله تعالى).

٣ـ الحال الثالث في المشاهدة ما أشار إليه عمر بن عثمان المكي[٢] في كتابه المشاهدة، فقال: (إن في قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبيت، فشاهدوه بكل شيء، وشاهدوا كل الكائنات به، فكانت مشاهدتهم لديه ولهم به، فكانوا غائبين حاضرين وحاضرين غائبين على انفراد الحق في الغيبة والحضور فشاهدوه ظاهراً وباطناً وظاهراً وآخراً وأولاً، وأولاً وآخراً كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾ [الحديد: ٣]...)[٣].

وعرف الجرجاني الكشف في تعريفاته بأنه في اللغة رفع الحجاب، وفي الاصطلاح هو الاطلاع على ما وراء الحجاب في المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً[٤].

وقال الجنيد بن محمد، سيد الطائفة الصوفية (الرين من جملة الوطنات والغين من جملة الخطرات)، قال الهجويري في كتابه كشف المحجوب في شرحه للرين والغين،

(١) أبو سعيد الخراز، الصوفي المعروف، صاحب كتاب الصدق الذي حققه الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود، انظر ترجمته في مقدمة الكتاب، وفي كتب التراجم، ويعتبر العلماء أبا سعيد الخراز أول من استخدم مصطلح الفناء في كتابه (السر) الذي أشار إليه العطار في تذكرة الأولياء.

(٢) عمر بن عثمان المكي، صاحب كتاب التعرف بأحوال العباد والمعبدين، من أقواله (من أعظم ما يوسوس الشيطان لهم في التوحيد بالتشكيك أو في صفات الرب بالتمثيل والتشبيه أو بالجحد لها والتعطيل) توفي سنة ٢٩٧هـ.

(٣) السراج الطوسي: اللمع، تحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي ص١٠٠ـ ١٠٢.

(٤) الجرجاني: التعريفات ص٢٣٥.

وفي حديثه عن الكشف (إن الحجاب حجابان: حجاب ريني وهو لا ينكشف أبداً، وحجاب غيني وهو سرعان ما ينكشف ولتوضيح ذلك أن عبداً قد تكون ذاته حجاباً للحق فيستوي لديه الحق والباطل، وعبداً تكون صفته حجاباً للحق وطبعه وسره يطلبان الحق دائماً ويفران من الباطل، فالحجاب الذاتي هو الريني لا ينكشف أبداً، ومعنى الرين والختم والطبع واحد كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين: ١٤] وحجاب الصفة هو الغيني وتغيير الذات غير ممكن، أما تبديل الصفة فجائز)[(١)].

أما الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ فقد ذكر أن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون أصواتاً، ويقتبسون فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق[(٢)].

وقال الغزالي: (.... اعلم أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوف في القلب من حيث لا يدري، فقد صار عارفاً بصحة الطريق، ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينفي أن يؤمن به، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جداً، ويشهد لذلك شواهد من الشرع والتجارب والحكايات، أما الشواهد فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والإلهام، وقال ﷺ: «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم[(٣)] ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل».

جاء في كتاب الشيخ جميل بن خميس الرباضي (قاموس الشريعة الحاوي طرقها الوسيعة) أن الإمام الغزالي قال: (ينبغي أن يعلم أن الخواطر تنقسم إلى ما يعلم قطعاً

---

(١) الهجويري: كشف المحجوب ص١٩٤، وص٦٦٣.
(٢) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال.
(٣) «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم» هذا القول ورد به الاستدلال كثيراً في كتب الصوفية تدعيماً لكلامهم عن الإلهام والكشف والخواطر وإمكانية تحصيل الإنسان للعلم اللدني، وقد قال أبو نعيم في حليته: (هذا الحديث ليس بمرفوع بل هو من كلام بعض التابعين كما ذكر ذلك الإمام أحمد بن حنبل).
وقد أورد الشيخ محمد ناصر الدين الألباني هذا ا لحديث في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة تحت رقم (٤٢٢) وقد أخرجه أبو نعيم ثم قال ذكر الإمام أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى ابن مريم فوهم بعض الرواة أنه ذكر عن النبي ﷺ.

أنه داع إلى الشر فلا يخفى كونه ووسوسته، وإلى ما يعلم أنه داع إلى الخير فلا يشك في كونه إلهاماً، وإلى ما يتردد فيه فلا يدري أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان، فإن كان من مكائد الشيطان أن يعرض الشر في معرض الخير، والتمييز في ذلك غامض، وأكثر العباد يهلكون، فإن الشيطان لا يقدر على دعوتهم إلى الشر الصريح فيصور الشر بصور الخير)[١].

وكلام الغزالي عن المكاشفة وعلم الكشف لم يعجب ابن الجوزي ولم يعجب ابن تيمية أيضاً، فابن الجوزي يرى أن أبا حامد الغزالي في كلامه عن علم المكاشفة خرج من قانون الفقه واستدل على ذلك بما قاله الغزالي عن وصول بعض الصوفية إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، وقال ابن تيمية (ما أسماه الغزالي علم المكاشفة فكلامه فيه ألوان فتارة يذكره بصوت الجهمية، وتارة بصوت هو من تصويت أهل الحديث والمعرفة[٢]، وتارة يطعن على هؤلاء، وتارة يذكر ما هو غير ذلك. . .)[٣]، وما ذكره الغزالي عن مشاهدة الأولياء للملائكة وأرواح الأنبياء قد تبعه فيه بعض الصوفية الفلاسفة، فقد ذكر الصدر القونوي الرومي[٤] أن لابن عربي ثلاثة طرق للاتصال:

---

(١) الشيخ جميل بن خميس، السعدي، الرياضي، : قاموس الشريعة الحاوي طرقها الوسيعة، ط. سلطنة عُمان وزارة التراث ١٤٠٣هـ جـ١٠ ص٤٠٠، ٤٠١ وانظر أيضاً نثار الجوهر للشيخ الرواحي جـ١ ص٧.

(٢) من كلام الغزالي الجميل عن المشاهدة والمكاشفة والذي لم يخرج فيه عن طريق السلف ما قاله في كتابه إحياء علوم الدين فقد قال: (. . . . المشاهدة ثلاثة: مشاهدة بالحق وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد، ومشاهدة للحق وهي رؤية الحق في الأشياء، ومشاهدة الحق وهي حقيقة اليقين بلا ارتياب، والمكاشفة أتم من المشاهدة وهي ثلاث: مكاشفة بالعلم وهي تحقيق الإصابة بالفهم، ومكاشفة بالحال وهي تحقيق رؤية زيادة الحال، ومكاشفة بالتوحيد وهي تحقيق صحة الإشارة).
ـ إحياء علوم الدين ١/ ٢٩.

(٣) ابن تيمية: بغية المرتاد، طبع ضمن الفتاوى الكبرى، المجلد الخامس، ص١٩.

(٤) هو محمد بن إسحاق بن محمد بن يوسف بن علي القونوي الروسي، صدر الدين، صوفي من تلاميذ ابن عربي، تزوج ابن عربي أمه ورباه، وكان الصدر شافعي المذهب ولد بقونية، وإليها ينسب وتوفي بها سنة ٦٧٣هـ وله عدد من المؤلفات ذكرها الزركلي في كتابه الأعلام ـ انظر (الأعلام ٦: ٢٥٦) ـ وقد اعتبر ابن تيمية الصدر القونوي الرومي من القائلين بوحدة الوجود، وهو في رأي ابن تيمية أقل علماً وإيماناً وأكثر كفراً من ابن عربي، وكان ابن سبعين يقول عن القونوي إنه أقل تحقيقاً من شيخه ابن عربي.
انظر: شوقي بشير (دكتور): نقد ابن تيمية للتصوف ص١٦٨ وهامشها.

أ ـ إن شاء استنزل روحانيته في هذا العالم وأدركه متجسداً في صورته الحسية التي كانت له في حياته الدنيا!!

ب ـ إن شاء أحضره في نومه.

ج ـ وإن شاء انسلخ من هيكله واجتمع به!![1] والصدر القونوي بكلامه هذا فيلسوف بعيد كل البعد عن الشريعة، وأما الكشف والمشاهدات والمخاطبات عند السلف فمن جنس الخوارق العلمية، ولا ينكر السلف الكشف فقد تكلموا عنه وعن إنكار بعض العلماء له وغلو الآخرين كالصدر القونوي الرومي والغزالي في بعض كتاباته فيه وبينوا أن خيار الأمة أوساطها[2].

والكشف ليس طريقاً للأحكام، وذلك لأن الأحكام طرقها مضبوطة، وأكثر الفقهاء نفوا أن يكون الكشف طريقاً للأحكام، إلا أن طائفة من الصوفية وبعض الفقهاء ذكروا أن مقصودهم أن التصرف بناء على ذلك جائز وإن لم يجز الرجوع إليه في الأحكام[3]، ولقد تلقى ابن تيمية معظم ما قاله الجيلاني في الكشف[4] والمشاهدة والخواطر بالقبول التام، بل شرح كلمات منه خاصة تلك التي وردت في فتوح الغيب.

وكلام الجيلاني في هذه المسائل يتفق مع السلف، ويختلف عن كلام أبي حامد الغزالي وغيره من الصوفية الذين وجه لهم عبد الرحمن بن الجوزي وابن تيمية وغيرهما النقد.

أقوال الشيخ الجيلاني في الكشف والمشاهدة:

قال رضي الله عنه وأرضاه: يكشف للأولياء والأبدال[5] من أفعال الله ما يبهر العقول ويخرق العادات والرسوم، فهي على قسمين: جلال وجمال، فالجلال

---

(١) شوقي بشير: نقد ابن تيمية للتصوف ص١٦٩ وص٤٥.

(٢) شوقي بشير: نقد ابن تيمية للتصوف ص١٦٩ وص٤٥.

(٣) ابن تيمية: الاختيارات العلمية ص١١١.

(٤) الكشف في اللغة دفع الحجاب، وفي الاصطلاح هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً. (التعريفات ص١٢٤).

(٥) يرى الشيخ عبد القادر أن الأبدال سموا بذلك لأن طلبهم الفناء عن إرادتهم والرغبة في أن تبدل إرادتهم بإرادة الحق عزوجل، فيريدون بإرادة الحق أبداً إلى الوفاة.
انظر فتوح الغيب ص١٦.

والعظمة يورثان الخوف المقلق والوجل المزعج، والغلبة العظيمة على القلب بما يظهر على الجوارح، كما روي عن النبي ﷺ «كان يسمع من صدره أزيز كأزيز المرجل في الصلاة من شدة الخوف»[١] لما يرى من جلال الله وينكشف له من عظمته، ونقل مثل هذا عن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه وعمر الفاروق رضي الله عنه.

أما مشاهدة الجمال فهي تحلي القلوب بالأنوار والسرور، والألطاف والكلام اللذيذ والحديث الأنيس، والبشارة بالمواهب الجسام والمنازل العالية والقرب منه عز وجل مما سيؤول أمرهم إلى الله، وجف به القلم من أقسامهم في سابق الدهور فضلاً منه ورحمة، وإثباتاً منه لهم في الدنيا إلى بلوغ الأجل وهو الوقت المقدور، لئلا تفرط بهم المحبة من شدة الشوق إلى الله تعالى فتنفطر مرائرهم فيهلكون ويضعفون عن القيام بالعبودية إلى أن يأتيهم اليقين الذي هو الموت، فيفعل ذلك بهم لطفاً منه ورحمة ومداواة، وتربية لقلوبهم ومداراة لها ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: ٢٥] لطيف بهم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه كان يقول لبلال المؤذن رضي الله عنه «أرحنا يا بلال بالإقامة لندخل في الصلاة»[٢] لمشاهدة ما ذكرناه من الحال، ولهذا قال «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[٣]..[٤].

قال ابن تيمية ـ وهو يشرح هذه الكلمات من فتوح الغيب ـ (قلت: ـ أي ابن تيمية ـ فقد أمر رحمه الله بأن ما كان محظوراً في الشرع يجب تركه ولابُدّ، وما كان معلوماً أنه مباح بعينه لكونه يفعل بحكم الهوى لا بأمر الشارع فيترك أيضاً، وأما ما لم يعلم هل هو بعينه مباح لا مضرة فيه أو منه مثل السفر إلى مكان معين أو شخص معين، فإن جنس هذا العمل ليس محرماً ولا كل أفراده مباحة بل يحرم على الإنسان أن يذهب

---

(١) جاء في هامش كتاب فتوح الغيب، ط دار الألباب: وجدته بلفظ آخر عن عبد الله بن الشيخة رضي الله عنه: «أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل» رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

(٢) جاء في هامش فتوح الغيب ص٢١ ط دار الألباب «وجدته بلفظ عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا قال بلال قد قامت الصلاة نهض فكبر» رواه الطبراني من الكبير من طريق حجاج بن فروخ وهو ضعيف جداً.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط والصغير عن أنس، رفعه، ورواه النسائي عن أنس بلفظ الترجمة ورواه الحاكم بدون وجعلت، وقال صحيح على شرط مسلم.

(٤) الجيلاني: فتوح الغيب، المقالة التاسعة في الكشف والمشاهدة.

إلى حيث يحصل له ضرر في دينه، فأمره بالكف عن الذهاب حتى يُقهر أو يتبين له في الباطن أن هذا مصلحة، لأنه إذا لم يتبين له أن الذهاب واجب أو مستحب لم ينبغ له فعله، وإذا خاف الضرر انبغى له تركه، فإذا أكره على الذهاب لم يكن عليه حرج، فلا يؤاخذ بالفعل، بخلاف ما إذا فعله باختياره وقد جاءت شواهد السنة بأن من ابتلي بغير تعرض منه أعين، ومن تعرض للبلاء خيف عليه، مثل قوله ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها» ومنه قوله: «لا تتمنوا لقاء العدوا واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا» وفي السنن: «من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه، ومن لم يسأل القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكاً يسدده»، وفي رواية: «وإن أكره عليه» وفي الصحيحين أنه ﷺ قال في الطاعون: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه» ومنه أنه ﷺ نهى عن النذر)[1].

الإلهام والخواطر عند الجيلاني:

يرى الشيخ عبد القادر أنه يجب أن يعتمد المسلم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإذا حدث للولي إلهام[2] أو خاطر فيجب عرضه على الكتاب والسنة، فإن خالفهما لا يعمل به وإذا وافقهما حمد الله على ذلك، فالجيلاني لا يعتبر الإلهام أو الخواطر أو الكشف أو المشاهدة حقاً يجب اتباعه قبل موافقة الشرع.

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه فتوح الغيب وهو يتحدث عن النفس وأحوالها: (... فإن خطر خاطر أو وجد إلهام فاعرضه على الكتاب والسنة، فإن وجدت فيه تحريم ذلك مثل أن تلهم بالزنا والربا ومخالطة أهل الفسق والفجور وغير ذلك من المعاصي فادفعه عنك واهجره ولا تقبله ولا تعمل به، واقطع بأنه من الشيطان اللعين[3]، وإن وجدت فيه إباحة كالشهوات المباحة من الأكل أو الشرب أو اللبس أو

---

(١) شرح فتوح الغيب للجيلاني شرح ابن تيمية، ط بعناية حسن السماحي سويدان ط دار القادري، ١٩٩٥م ص٥٨، ٥٩.

(٢) ذكر ابن الجوزي في كتاب تلبيس إبليس أن الإلهام من ثمار العلوم الشرعية والعمل بها، والعلم الإلهامي الملقى في القلوب والذي لا يكون بالكسب لا يكفي عن العلم المنقول، كما أن العلوم العقلية لا تكفي عن العلوم الشرعية، فإن العقلية ـ كما يقول ابن الجوزي ـ كالأغذية والشرعية كالأدوية، ولا ينوب هذا عن هذا.

(٣) فصل الجنيد بن محمد الكلام عن الخواطر فقال عن الخاطر الشيطاني (أما الخاطر الشيطاني =

النكاح، فاهجره أيضاً ولا تقبله، واعلم أنه من إلهام النفس[١] وشهواتها، وقد أمرت بمخالفتها وعداوتها، وإن لم تجد في الكتاب والسنة تحريمه وإباحته بل هو أمر لا تعقله مثل القائل لك ائت موضع كذا وكذا الق فلاناً صالحاً، ولا حاجة لك هناك ولا في الصالح لاستغنائك عنه بما أولاك الله من نعمته من العلم والمعرفة فتوقف في ذلك ولا تبادر إليه فتقول هذا إلهام من الحق جل وعلا فاعمل به، بل انتظر الخير كله في ذلك وفعل الحق عز وجل بأن يتكرر ذلك الإلهام وتؤمر بالسعي، أو علامة تظهر لأهل العلم بالله عز وجل يعقلها العقلاء من الأولياء والمؤيدون من الأبدال، وإنما لم تبادر إلى ذلك لأنك لا تعلم عاقبته وما يؤول الأمر إليه، وما كان فيه فتنة وهلاك ومكر من الله وامتحان فاصبر حتى يكون هو عز وجل الفاعل فيك، فإذا تجرد الفعل وحملت إلى هناك واستقبلتك فتنة كنت محمولاً محفوظاً فيها، لأن الله تعالى لا يعاقبك على فعله، وإنما تتطرق العقوبة نحوك لكنك في الشيء، وإن كنت في حالة الحقيقة وهي حالة الولادية فخالف هواك واتبع الأمر في الجملة[٢].

أنواع الخواطر عند الجيلاني:

قال الجيلاني[٣]: (وفي القلب خواطر ستة[٤]:

= فباعثه الشهوة وطلب الراحة والشهوة تنقسم إلى نفسانية محبة للعلو والجاه والتشفي عند الغيظ...، وإلى جسمانية كالطعام والشراب والنكاح واللباس، والخاطر الشيطاني له علامتان إحداهما تنبيه ببعض ما تحتاج النفس إليه بداعي الشهوة، أو داعي الراحة في الأوقات المألوفات والفرق بينه وبين النفساني في هذا الباب أن النفساني يلح ولا يذهب... وهذا يذهب تارة...).

(١) إلهام النفس هو الخاطر النفساني الذي باعثه الشهوة وطلب الراحة
انظر: الجنيد بن محمد: رسائل الجنيد في التصوف والأخلاق مخطوطة بمكتبة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية رقم ٢ م١٠٣٦ ب لوحة ٦٧، ٦٨.
وانظر شوقي بشير: نقد ابن تيمية للتصوف ص٤٨.

(٢) فتوح الغيب للجيلاني ص٢٣.

(٣) الجيلاني: الغنية جـ٢ ص٤٨٢.

(٤) قال الكلاباذي في كتابه التعرف لمذهب أهل التصوف ص٩٠ (قال بعض الشيوخ: الخاطر على أربعة أوجه، خاطر من الله عزوجل، وخاطر من الملك، وخاطر من النفس، وخاطر من العدو، فالذي من الله تنبيه، والذي من الملك حث على الطاعة، والذي من النفس مطالبة الشهوة، والذي من العدو تزيين المعصية، فبنور التوحيد يقبل من الله، وبنور المعرفة يقبل من الملك، وبنور الإيمان ينهى النفس، وبنور الإسلام يرد على العدو).

أحدها: خاطر النفس.

والثاني: خاطر الشيطان[١].

والثالث: خاطر الروح.

والرابع: خاطر الملك.

والخامس: خاطر العقل.

والسادس: خاطر اليقين.

فخاطر النفس يأمر بتناول الشهوات ومتابعة الهوى المباح منه والجناح.

وخاطر الشيطان يأمر في الأصل بالكفر والشرك والشكوى والتهمة لله عز وجل في وعده، وفي الفزع بالمعاصي والتسويف بالتوبة وما فيه هلاك النفس في الدنيا والآخرة، فالخاطران مذمومان محكوم لهما بالسوء وهما لعموم المؤمنين.

وخاطر الروح، وخاطر الملك: يردان بالحق والطاعة لله عز وجل، وما يكون عاقبته سلامة الدنيا والآخرة وما يوافق العلم، فهما محمودان لا يعدمهما خصوص الناس.

وأما خاطر العقل فتارة يأمر بما تأمر به النفس والشيطان، وأخرى بما يأمر به الروح والملك، وذلك حكمة من الله وإتقان لصنعه، ليدخل العبد في الخير والشر بوجود معقول وصحة شهود وتمييز فيكون عاقبة ذلك من الجزاء والعقاب عائداً له وعليه، لأن الله تعالى جعل الجسم مكاناً لجريان أحكامه، ومحلاً لنفاذ مشيئته في مباني حكمته كذلك جعل العقل مطية الخير والشر، يجري معهما في خزانة الجسم إذ كان مكاناً للتكليف وموضعاً للتصريف وسبباً للتعريف العائد إلى لذة النعيم أو عذاب أليم.

وأما خاطر اليقين، وهو روح الإيمان ومورد العلم فيرد من الله تعالى[٢] ويصدر عنه، وهو مخصوص بخواص من الأولياء الموقنين الصديقين والشهداء والأبدال لا

---

(١) قال القشيري: الوارد ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة، مما لا يكون للعبد فيه تحمل، والواردات أعم من الخواطر، لأن الخواطر تختص بنوع خطاب أو ما تضمن معناه، والواردات تكون وارد سرور، ووارد حزن، ووارد قبض، ووارد بسط، إلى غير ذلك من المعاني وهو قريب من الحال.

(٢) سئل الشيخ عبد القادر الجيلاني عن صفات الواردات الإلهية والطوارق الشيطانية فقال: الوارد الإلهي لا يأتي باستعداد، ولا يذهب بسبب، ولا يأتي على نمط واحد ولا في وقت واحد، والطوارق الشيطانية بخلاف ذلك غالباً،

=

يرد إلا بالحق، وإن خفي وروده ودق مجيئه، ولا ينقدح إلا بعلم لدني وأخبار الغيوب وأسرار الأمور، فهو للمحبوبين والمرادين والمختارين الفانين بالله فيه عنهم، الغائبين عن ظواهرهم، الذين انقلبت عبادتهم الظاهرة إلى الباطنة، ما خلا الفرائض والسنن المؤكدات فهؤلاء أبداً في مراقبة بواطنهم والله تعالى يتولى تربية ظواهرهم كما قال عز وجل في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: ١٩٦]، تولاهم وكفاهم، وأشعل قلوبهم بمطالعة أسرار الغيوب، ونورها بالتجلي في كل قريب فاصطفاهم لمحادثته اختصهم بالأنس بالتجلي في كل قريب فاصطفاهم لمحادثته واختصهم بالأنس به والسكون إليه والطمأنينة لديه، فهم في كل يوم في مزيد علم ونمو معرفة، وتوفير نور وقرب من محبوبهم ومعبودهم وهم في نعيم لا نفاد له، وآلاء لا انقطاع لها، وسرور لا غاية له ولا منتهى، فإذا بلغ الكتاب أجله وانتهى ما قدر لهم من البقاء في دار الفناء نقلهم منها بأحسن الانتقال كما ينقل العروس من حجرة إلى دار من الأدنى إلى الأعلى، فالدنيا في حقهم جنة وفي الآخرة لأعينهم قرة وهو النظر إلى وجهه الكريم من غير حجاب ولا باب ولا حاجب ولا بواب ولا مانع ولا جدال، ولا من ولا امتنان ولا ضيم ولا أضرار، ولا انقطاع ولا نفاد كما قال عزّ من قائل ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤-٥٥]، وكما قال ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [يونس: ٢٦]، أحسنوا في الدنيا له بالطاعة، فجازاهم في العقبى بالجنة والكرامة، وأعطاهم النعمة والسلامة، وزادوا له بتطهير القلوب وترك العمل لما سواه، فجازاهم سبحانه وتعالى بالزيادة في دار البقاء والمنة، وهو دوام النظر إلى وجهه الكريم كما أخبر في كتابه المبين لعباده أولي الألباب والعقول.

وللنفس والروح مكانان لإلقاء الملك والشيطان فالملك يلقي التقوى في القلب، والشيطان يلقي الفجور إلى النفس، فتطالب النفس القلب باستعمال الجوارح بالفجور، وفي مكانين في البنية: العقل والهوى: يتصرفان بمشيئة حاكم وهو التوفيق والإغواء.

وفي القلب نوران ساطعان: وهما العلم والإيمان فجميع ذلك أدوات القلب وحواسه وآلاته، والقلب في وسط كالملك وهذه جنوده تؤدي إليه، أو كالمرآة المجلوة، وهذه الآلات حولها تظهر فيراها ويقدح فيها فيجدها.

= انظر إيقاظ الهمم في شرح الحكم ط المكتبة التجارية بيروت ص١٤٢.

المبحث الرابع
الفناء عند الجيلاني

تمهيد: تعريف المصطلحات

تحتاج المصطلحات التي تستخدم في هذا المبحث إلى بيان حتى لا يتبادر إلى الذهن معنى يخالف المعنى المراد، والمصطلحات هي: الفناء، البقاء، الصحو، الوجد، الغلبة، الاستتار، التجلي.

أولاً: الفناء:

الفناء مصدر فني يفنى فناءً إذا اضمحل وتلاشى وعُدم، وقد يطلق على من تلاشت قواه وأوصافه مع بقاء عينه، كما قال الفقهاء: (لا يقتل في المعركة شيخ فانٍ)، وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرَّحمـٰن: ٢٦] أي هالك وذاهب، ولكن الصوفية اصطلحوا على وضع هذه اللفظة لتجريد الحقيقة الكونية والغيبية عن شهود الكائنات، فالفناء الذي يشير إليه القوم ويعملون عليه (أن تذهب المحدثات في شهود العبد، وتغيب في أفق العدم كما كانت قبل أن توجد، ويبقى الحق تعالى كما لم يزل، ثم تغيب صورة المشاهدة ورسمه أيضاً، فلا يبقى له صورة ولا رسم، ثم يغيب شهوده أيضاً فلا يبقى له شهود ويصير الحق هو الذي يشاهد نفسه بنفسه كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات، وحقيقته أن يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل)[1].

(١) انظر: الفناء تعريفه وأقوال العلماء فيه، للدكتور شوقي بشير، مجلة دراسات دعوية، عدد يوليو ١٩٩٩م، ص١٥٨.
وانظر: مدارج السالكين، لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الرشاد الحديثة ١: ١٥٤.
وانظر شذرات الذهب لابن العماد ٦/ ١٦٩ وانظر: كشف المحجوب ص٢٣١.

ثانياً: الغلبة:

(الغلبة حال تبدو للعبد لا يمكنه معها ملاحظة السبب، ولا مراعاة الأدب، ويكون مأخوذاً عن تمييز ما يستقبله، فربما خرج إلى بعض ما ينكر عليه من لم يعرف حاله، ويرجع على نفسه صاحبه إذا سكنت غلبات ما يجده ويكون الذي غلب عليه خوف، أو هيبة، أو إجلال، أو حياء، أو بعض هذه الأحوال)[1].

ثالثاً: الوجد:

قال الكلاباذي (ومعنى الوجد: هو ما صادف القلب من فزع، أو غم، أو رؤية معنى من أحوال الآخرة، أو كشف حالة بين العبد والله عز وجل).

والتواجد: (ظهور ما يجد في باطنه على ظاهره، ومن قوي تمكن فسكن)[2] وعرّف الوجد بأنه حرقة المريدين، والوجد هو أصل الأعمال الظاهرة وثمرة الأعمال الباطنة، وقد تكلم ابن تيمية في فتاويه عن الوجد الديني والمحبة الإيمانية الموجبة له، واستدل بحديث «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان في قلبه. . . .» الحديث[3] وقال أبو عبد الله بن خفيف: (ونعتقد أن الواجد المتحقق محفوظ، وأهل الغلبات تجري عليهم أحوال تفوتهم بها الواجبات، فإن أفاقوا عادوا، وإن مضوا في سكرهم عذروا)[4].

رابعاً: السكر:

هو أن يغيب عن تمييز الأشياء ولا يغيب عن الأشياء، وهو أن لا يميز بين الملاذ وغيرها في مرافقة الحق، فإن غلبات وجود الحق تسقطه عن التمييز بين ما يؤلمه ويلذه[5].

يقول أبو عبد الله بن خفيف: (والسكر للمريدين حق وللعارفين باطل، وغلبات

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص١١٤.
(٢) التعرف ص١١٣ وص١١٧.
(٣) انظر: ابن تيمية: الفتاوى ج١٠ ص٦٩٢ وما بعدها.
وانظر: مجلد توحيد الربوبية ص٤٥٣ عن الوجد الديني.
(٤) التصوف في تراث ابن تيمية، للطبلاوي، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤، ص١٧٢ نقلاً عن منهاج السنة النبوية ٣: ٨٥، ٨٦.
(٥) التعرف ص١١٣ وص١١٧.

الحق على سائر الخلق جائز في الأحوال للمتوسطين والمقامات للعارفين والشدة للمريدين، والصحو أفضل. . . والإفاقة أفضل من السكر)[١].

خامساً: الصحو:

هو الحال التي تأتي عقيب السكر وهو أن يميز العارف فيعرف المؤلم من الملذ فيختار المؤلم موافقة الحق، ولا يشهد الألم، بل يجد لذة المؤلم.

سادساً: البقاء:

قال الخركوشي في كتابه: (تهذيب الأسرار) في تعريف الفناء والبقاء، البقاء: (هو بقاء الطاعات)[٢] والفناء: (هو فناء المعاصي)، والبقاء هو شهود الحقائق بإشهاد الحق كما قال تعالى فيما يروي عنه رسوله ﷺ: «لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه. . . .» الحديث[٣].

سابعاً: التجلي والاستتار:

قال الكلاباذي في كتابه التعرف لمذهب أهل التصوف قال سهل: التجلي على ثلاثة أحوال: تجلي ذات، وهي المكاشفة، وتجلي صفات الذات وهي موضع النور، وتجلي حكم الذات وهي الآخرة وما فيها.

قال الكلاباذي: معنى قوله تجلي ذات وهي المكاشفة كشوف القلب في الدنيا كقول عبد الله بن عمر: كنا نتراءى الله في ذلك المكان، يعني في الطواف، وقال النبي ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه» وكشوف العيان في الآخرة.

ومعنى قوله: تجلي صفات الذات، وهي موضع النور: هو أن تتجلى له قدرته عليه، فلا يخاف غيره، وكفايته له فلا يرجو سواه، وكذلك جميع الصفات كما قال حارثة: كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، كأنه تجلى له كلامه في أخباره فصار الخبر كالمعاينة وتجلي حكم الذات يكون في الآخرة فريق في الجنة وفريق في السعير[٤].

---

(١) التصوف في تراث ابن تيمية، للطبلاوي، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤، ص١٧٢ نقلاً عن منهاج السنة النبوية ٣: ٨٥، ٨٦.

(٢) تهذيب الأسرار ص٤٣٨.

(٣) انظر: الفتاوى، مجلد علم السلوك ص٢٢٠ و٣٤١.

(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٢١.

الفناء والبقاء عند الكلاباذي:

عقد الكلاباذي في كتابه التعرف لمذهب أهل التصوف فصلاً عن الفناء والبقاء[1] قال فيه: (فالفناء هو أن يفنى عنه الحظوظ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التمييز، فناء عن الأشياء كلها شغلاً بما فني به كما قال عامر بن عبد الله: ما أبالي امرأة رأيت أم حائطاً.

والحق يتولى تصريفه، فيصرّفه في وظائفه وموافقاته، فيكون محفوظاً فيما لله عليه، مأخوذاً عمّا له وعن جميع المخالفات فلا يكون له إليها سبيل، وهو العصمة وذلك معنى قوله ﷺ: «كنت له سمعاً وبصراً» الخبر.

والبقاء هو الذي يعقبه، هو أن يفنى عما له ويبقى بما لله، قال بعض الكبار: البقاء مقام النبيين ألبسوا السكينة، لا يمنعهم ما حل بهم عن فرضه ولا عن فضله ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، والباقي: هو أن تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً، فتكون كل حركاته في موافقات الحق دون مخالفاته، فيكون فانياً عن المخالفات، باقياً في الموافقات، وليس معنى أن تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً أن تصير المخالفات له موافقات فيكون ما نهي عنه كما أمر به، ولكن على معنى: أن لا يجري عليه إلا ما أمر به وما يرضاه الله تعالى، دون ما يكرهه، ويفعل ما يفعل لله لا لحظ له فيه في عاجل أو آجل، وهذا معنى قولهم: يكون فانياً عن أوصافه، باقياً بأوصاف الحق؛ لأن الله تعالى إنما يفعل الأشياء لغيره لا له، لأنه لا يجر به نفعاً ولا يدفع به ضراً تعالى الله عن ذلك وإنما يفعل الأشياء لينفع الأغيار أو يضرهم.

فالباقي بالحق: الفاني عن نفسه، يفعل الأشياء لا لجر منفعة إلى نفسه، ولا لدفع مضرة عنها، بل على معنى: أنه لا يقصد في فعله جر المنفعة ودفع المضرة، قد سقطت عنه حظوظ نفسه ومطالبة منافعها بمعنى القصد والنية ولا بمعنى أنه لا يجد حظاً فيما يعمل مما لله عليه يفعله الله، لا يطمع لثواب ولا لخوف عقاب، وهما أعني الخوف والطمع: باقيان معه قائمان فيه، غير أنه يرغب في ثواب الله لموافقة الله تعالى، لأنه رغّب فيه وأمر أن يسأل ذلك منه، ولا يفعله للذة نفسه ويخاف عقابه

(١) الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، ط١ دار الإيمان دمشق، بيروت ١٤٠٧هـ ص١٢٣-١٣٢.

إجلالاً له وموافقة له، لأنه خوّف عباده، ويفعل سائر الحركات لحظ الغير لا لحظ نفسه كما قيل المؤمن يأكل بشهوة عياله.

أنشدونا لبعضهم:

أفناه عن حظه فيما ألم به ... فظل يبقيه في رسم ليبديه

ليأخذ الرسم عن رسم يكاشفه ... والسر يطفح عن حق يراعيه

فجملة الفناء والبقاء: أن يفنى عن حظوظه ويبقى بحظوظ غيره. فمن الفناء فناء عن شهود المخالفات والحركات بها قصداً وعزماً وبقاء في شهود الموافقات والحركات بها قصداً وفعلاً، وفناء عن تعظيم ما سوى الله وبقاء في تعظيم الله تعالى[1].

ومن فناء تعظيم ما سوى الله: حديث أبي حازم حيث قال: ما الدنيا؟ أما ما مضى فأحلام، وأما ما بقى فأمان وغرور وما الشيطان حتى يهاب منه؟ لقد أطيع فيما نفع، وعصى فما ضر، فكان كأنه لا ديناً عنده ولا شيطان.

ومن فناء الحظوظ: حديث عبد الله بن مسعود حيث قال: ما علمت أن في أصحاب رسول الله ﷺ من يريد الدنيا حتى قال الله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. الآية، فكان فانياً عن إرادة الدنيا.

ومن ذلك حديث حارثة قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، فنى عن العاجلة بالآجلة وعن الأغيار بالجبار، وحديث عبد الله بن عمر: سلم عليه إنسان وهو في الطواف، فلم يرد عليه، وشكاه إلى بعض أصحابه فقال عبد الله: إنا كنا نتراءى الله في ذلك المكان.

ومنها حديث عامر بن عبد القيس قال: لأن تختلف فيّ الأسنة أحبّ إلي من أن أجد ما تذكرون يعني في الصلاة حتى قال الحسن: ما اصطنع الله ذلك عندنا، والفناء هو الغيبة عن الأشياء رأساً، كما كان فناء موسى عليه السلام حين تجلى ربه للجبل ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] فلم يخبر في الثاني من حاله عن حاله، ولا أخبر عنه مغيبة عنها، وقال أبو سعيد الخراز: علامة الفاني ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى، ثم يبدو باد من قدرة الله تعالى فيريه ذهاب حظه من الله تعالى

(١) نهاية ص١٢٤ـ كتاب التعرف ـ

إجلالاً لله، ثم يبدو له باد من الله تعالى فيريه ذهاب حظه من رؤية ذهاب حظه، ويبقى رؤية ما كان من الله لله، ويتفرد الواحد الصمد في أحديته، فلا يكون لغير الله مع الله فناء ولا بقاء.

معنى ذهاب حظه من الدنيا مطالبة الأعراض، ومن الآخرة مطالبة الأعواض فيبقى حظه مع الله، وهو رضاه عنه وقربه منه، ثم يرد عليه حاله من إجلال الله تعالى: أن يقرب مثله، أو يرضى عن مثله استحقاراً لنفسه، وإجلالاً لربه، ثم ترد عليه حالة فيستوفيه حق الله تعالى، فيغيبه عن رؤية صفته التي هي رؤية ذهاب حظه فلا يبقى فيه إلا ما من الله إليه، ويفنى عنه ما منه إلى الله فيكون كما كان: إذا كان في علم الله تعالى قبل أن يوجده، وسبق له منه ما سبق من غير فعل كان منه.

وعبارة أخرى عن الفناء: أن الفناء هو الغيبة عن صفات البشرية بالحمل المولّه من نعوت الإلهية، وهو أن يفنى عن أوصاف البشرية التي هي: الجهل والظلم لقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢] ومن أوصافه الكنود والكفور وكل صفة ذميمة تفنى عنه، بمعنى أن يغلب علمه جهله وعدله ظلمه، وشكره كفرانه وأمثالها.

قال أبو القاسم فارس: الفناء حال من لا يشهد صفته، بل يشهدها مغمورة بمغيبها.

وقال: فناء البشرية ليس على معنى عدمها بل على معنى أن تغمد بلذة توفى على رؤية الألم واللذة الجارية على العبد في الحال كصواحبات يوسف عليه السلام ﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١] لفناء أوصافهم، ولما ورد على أسرارهن من لذة النظر إلى يوسف مما غيبهن عن ألم ما دخل عليهن من قطع أيديهن.

ولبعض أهل العصر:

غبت صفاتُ القاطعات أكفَّها ... في شاهد هو في البرية أبدع

ففنين عن أوصافهن فلم يكن ... من نعتهن تلذذ وتوجع

وقيام امرأة العزيز بيوسف ... يد نفسه ما كان يوسف يقطع

وأنشدونا في الفناء:

ذكرنا وما كنا لننسى فنذكر ولكن نسيم القرب يبدو فيبهر

فأفنى به عني وأبقى به له إذا الحق عنه مخبر ومعبر

ومنهم من جعل هذه الأحوال كلها حالاً واحدة وإن اختلفت عباراتها، فجعل الفناء بقاء، والجمع تفرقة، وكذلك الغيبة والشهود والسكر والصحو.

وذلك أن الفاني عما له باق بما للحق، والباقي بما للحق فان عما له، والمفارق مجموع لأنه لا يشهد إلا الحق، والمجموع مفارق، لأنه لا يشهد إياه ولا الخلق، وهو باق لدوامه مع الحق، وهو جامعه به، وهو فان عما سواه، مفارق لهم، وهو غائب سكران لزوال التمييز عنه، ومعنى زوال التمييز عنه هو ما قلناه بين الآلام والملاذ وبمعنى أن الأشياء تتواحد له فلا يشهد مخالفة إذ لا يصرفه الحق إلا في موافقاته، وإنما تميز بين الشيء وغيره، فإذا صارت الأشياء شيئاً واحداً سقط التمييز.

وعبر جماعة عن الفناء بأن قالوا: يؤخذ العبد من كل رسم كان له وعن كل مرسوم فيبقى في وقته بلا بقاء بعلمه ولا فناء يشعر به، ولا وقت يقف عليه، بل يكون خالقه عالماً ببقائه وفنائه، ووقته، وهو حافظ له عن كل مذموم واختلفوا في الفاني هل يرد إلى بقاء الأوصاف أم لا؟

قال بعضهم: يرد الفاني إلى بقاء الأوصاف، وحالة الفناء لا تكون على الدوام؛ لأن دوامها يوجب تعطيل الجوارح عن أداء المفروضات وعن حركاتها من أمور معاشها ومعادها، ولأبي العباس بن عطاء في ذلك كتاب سماه كتاب عودة الصفات وبدئها، وأما الكبار منهم والمحققون فلم يروا رد الفاني إلى بقاء الأوصاف منهم الجنيد والخراز والنوري وغيرهم.

فالفناء فضل من الله عز وجل، وموهبة للعبد، وإكرام منه له واختصاص له به، وليس هو من الأفعال المكتسبة، وإنما هو شيء يفعله الله عز وجل بمن اختصه لنفسه واصطنعه له، فلو رده إلى صفته كان في ذلك سلب ما أعطى، واسترجاع ما وهب وهذا غير لائق بالله عز وجل، أو يكون من جهة البداء، والبداء صفة من استفاد العلم، وهذا من الله عز وجل منفي أو يكون ذلك غروراً وخداعاً، والله تعالى لا يوصف بالغرور، ولا يخادع المؤمنين، وإنما يخادع المنافقين والكافرين.

وليس مقام الفناء يدرك بالاكتساب، فيجوز أن يكتسب ضده، فإن عورض بالإيمان والرجوع عنه، وهو أفضل المراتب وبه يدرك جميع المقامات أجيب عنه: أن الإيمان

الذي يجوز الرجوع عنه هو الذي اكتسبه العبد من إقرار لسانه والعمل بأركانه، ولم يخامر الإيمان حقيقة سره لا من قبل الشهود، ولا من صحة العقود، لكنه أقر بشيء وهو لا يدري حقيقة ما أقر به، كما جاء في الحديث: إن الملك يأتي العبد إذا وضع في لحده فيقول: ما قولك في هذا الرجل؟ فيقول: سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته. فهذا شاك غير متيقن، أو يكون أقر بلسانه وانطوى على تكذيبه كالمنافق الذي أقر بلسانه وكذبه بقلبه وأضمر خلافه، ولكنه أقر بلسانه ولم يكذبه بقلبه ولا أضمر خلافه، ولكن لم يقع له صحة ما أقر به اكتساباً ولا مشاهدة، لم يكتسب تحقيقه من جهة العلم فتقوم له الدلائل على صحته، ولا شاهد بقلبه حالاً أزال عنه الشكوك وقد سبق له من الله الشقاء، فاعترضت له شبهة من خاطر أو ناظر ففتنته فانتقل عنه إلى ضده، فأما من سبق له من الله الحسنى، فإن الشبهات لا تقع له، والعوارض تزول عنه إما اكتساباً من علم الكتاب والسنة ودلائل العقل فيزيل خواطر السوء عنه تتردد شبهات الناظر له، إذ لا يجوز أن يكون لما خالف الحق دلائل الحق، فهذا لا تعترضه الشكوك، أو يكون ممن وقع له صحة الإيمان، ويرد الله تعالى عنه خواطر السوء باعتصامه بالجملة، ويرد عنه الله الناظر المشك له لطفاً به فلا يقابله فيسلم له صحة إيمانه وإن لم يكن عنده من البيان ما يحتاج مناظرة ناظره ولا ما يزيل خاطره، أو يكون ممن وقع له صحة ما أقر به شهوداً أو كشوفاً، كما أخبر حارثة عن نفسه من شهوده ما أقر به حتى جل ما غاب عنه من ذلك محل ما حضر وأكثر، لأنه أخبر أنه عزف عن الشاهد، فصار الغيب له شهوداً، والشاهد غائباً كما قال الداراني[1]: انفتحت عيون قلوبهم، فانطبقت عيون رؤوسهم، فمن وقع له صحة ما أقر به من هذه الجهة لمن يرجع عن الآخرة إلى الدنيا، ولا ترك الأولى للأدنى، وهذا كله أسباب العصمة من الله له، وتصديق ما وعد بقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فقد صح أن المؤمن الحقيقي لا ينتقل عن الإيمان، لأنه موهبة له من الله عز وجل، وعطاء وفضل واختصاص، وحاشا الحق عز وجل أن يرجع فيما ذهب أو يسترد ما

(١) أبو سليمان، الداراني، عبد الرحمن بن عطية، أحد علماء الصوفية، ومن اتبع المشايخ للشرع ـ كما يذكر عنه ابن تيمية، من أهل داريا ـ قرية من قرى دمشق، توفي رضي الله عنه سنة ٢١٥هـ انظر هامش تهذيب الأسرار ص٣٢.

أعطى وصورة الإيمان الحقيقي والرسمي في الظاهر صورة واحدة وحقائقها مختلفة.

فأما الفناء وغيره من مقامات الاختصاص، فإن صورها مختلفة وحقائقها واحدة، لأنها ليست من جهة الاكتساب لكن من جهة الفضل.

وقول من قال: إن الفاني يرد إلى أوصافه، محال: لأن القائل إذا أقر بأن الله تعالى اختص عبداً واصطنعه لنفسه ثم قال: إنه يرده فكأنه قال: يختص ما لا يختص، ويصطنع ما لا يصطنع، وهذا محال، وجوازه من ناحية التربية والحفظ عن الفتنة لا يصح أيضاً لأن الله تعالى لا يحفظ على العبد ما آتاه من جهة السلب ولا بأن يرده إلى الأوضع عن الأرفع، ولو جاز هذا جاز أن لا يحفظ مواضع الفتن من الأنبياء بأن يردهم من مرتبة النبوة إلى رتبة الولاية أو ما دونها وهذا غير جائز.

ولطائف الله تعالى في عصمة أنبيائه وحفظ أوليائه من الفتنة أكثر من أن تقع تحت الإحصاء والعد وقدرته أتم من أن تحصر على فعل دون غيره، فإن عورض بالذل آتاه آياته ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥][1] لم يعترض لأن الذي انسلخ لم يكن قط شاهد حالاً، ولا وجد مختصاً قط ولا مصطنعاً، بل كان مستدرجاً مخدوعاً ممكوراً به.

وإنما أجرى على ظاهره من أعلام المختصين، وهو في الحقيقة من المردودين، وإنما حلى ظاهره بالوظائف الحسنة والأوراد الزكية، وهو القلب محجوب السر، لم يجد قط طعم الخصوص، ولا ذاق لذة الإيمان، ولا عرف الله قط من جهة الشهود، كما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] وكما أخبر عن إبليس بقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

قال الجنيد: إن إبليس لم ينل مشاهدته في طاعته، وآدم لم يفقد مشاهدته في معصيته.

وقال أبو سليمان: والله ما رجع من رجع إلا من الطريق ولو وصلوا إليه ما رجعوا عنه.

والفاني يكون محفوظاً في وظائف الحق كما قال الجنيد، وقيل له: إن أبا الحسين النوري قائم في مسجد الشونيزي منذ أيام لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، وهو يقول: الله، الله، ويصلي الصلوات لأوقاتها، فقال بعض من حضره: إنه صاح فقال الجنيد:

---

(١) الآية كاملة هي قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾ [الأعراف: ١٧٥].

لا، ولكن أرباب المواجيد محفوظون بين يدي الله في مواجيدهم، فإن رُدَّ الفاني إلى الأوصاف لم يرد إلى أوصاف نفسه، ولكن يقام مقام البقاء بأوصاف الحق.

وليس الفاني بالصعق ولا المعتوه، ولا الزائل عن أوصاف البشرية فيصير ملكاً أو روحانياً، ولكنه من فني عن شهود حظوظه، كما أخبرنا قبل.

والفاني أحد عينين: إما عين لم ينصب إماماً ولا قدوة فيجوز أن يكون فناؤه عن أوصافه، فيرى بعين العتاهة وزوال العقل لزوال تمييزه في مرافق نفسه وطلب حظوظه، وهو على ذلك محفوظ في وظائف الحق عليه، وقد كان في الأمة منهم كثير:

منهم هلال الحبشي، عبد كان للمغيرة بن شعبة في حياة النبي ﷺ، نبه عنه النبي ﷺ، وأويس القرني في أيام عمر بن الخطاب نبه عليه عمر وعلي رضي الله عنهما وخلق كثير، إلى أن كان عليان المجنون وسعدون وغيرهما.

أو يكون إماماً يقتدى به ويربط به غيره ممن يسوسه فأقيم مقام السياسة والتأديب، فهذا ينقل إلى حالة البقاء فيكون تصرفه بأوصاف الحق لا بأوصاف نفسه.

والمتصرف بأوصاف الحق هو ما ذكرناه قبل، وسئل الجنيد عن الفراسة؟ فقال: هي مصادفة الإصابة فقيل له: هي للمتفرس في وقت المصادفة أو على الأوقات؟ قال: لا بل على الأوقات، لأنها موهبة، فهي معه كائنة دائمة، فأخبر أن المواهب تكون دائمة، ومن يتتبع كتب القوم وفهم إشاراتهم علم أن قولهم ما حكيناه عنهم، فإن هذه المسألة وأمثالها ليست منصوصات لهم ولا مفردات، بل يعرف ذلك من قولهم بفهم رموزهم ودرك إشاراتهم والله أعلم.

قال الكلاباذي: وأنشدونا للشبلي:

الوجد عندي جحود ... ما لم يكن عن شهودي
وشاهد الحق عندي ... يُفني شهود الوجود[1]

(١) التعرف ص١١٣.

الفناء عند الجيلاني

الفناء عن عبادة السوى(١) عند الجيلاني:

عقد شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاويه فصلاً عن كلام الشيخ عبد القادر الجيلاني عن الفناء الشرعي، وتناول ذلك الكلام بالشرح والبيان، وسوف ننقل ما قاله ابن تيمية بنصه: (قال الشيخ عبد القادر، قدس الله روحه: افن عن الخلق بحكم الله، وعن هواك بأمره(٢)، وعن إرادتك بفعله، فحينئذ يصلح أن تكون وعاء لعلم الله)، قلت (أي ابن تيمية): (فحكمه يتناول خلقه وأمره، أي افن عن عبادة الخلق والتوكل عليهم بعبادة الله والتوكل عليه، فلا تطعهم في معصية الله تعالى، ولا تتعلق بهم في جلب منفعة، ولا دفع مضرة، وأما الفناء عن الهوى بالأمر وعن الإرادة بالفعل، بأن يكون فعله موافقاً للأمر الشرعي لا لهواه، وأن تكون إرادته لما يخلق تابعة لفعل الله، لا لإرادة نفسه، فالإرادة تارة تتعلق بفعل نفسه وتارة بالمخلوقات، فالأول يكون بالأمر، والثاني لا تكون له إرادة، ولابد في هذا أن يقيد بأن لا تكون له إرادة لم يؤمر بها،

---

(١) الفناء عن عبادة السوى، هو الفناء الكامل المحمدي النبوي، الديني، الشرعي، الذي يشهد فيه العبد فعل المأمورات مع كثرتها، وترك الشبهات مع كثرتها لله وحده لا شريك له، وهو فناء الكاملين، وهو الفناء المحمود، وهو المقصود، وهو حال البقاء، قال ابن تيمية في فتاويه (٢: ٣١٤): (وأما النوع الثالث وهو الفناء عن عبادة السوى فهذا حال النبيين وأتباعهم، وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبحبه عن حب ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه....)
انظر الفتاوى ٢: ٣١٤
ولم يكن الجيلاني أول من تكلم في الفناء فقد سبقه أبو يزيد البسطامي المتوفى سنة ٢٦١هـ، فقد كان البسطامي أسبق من تكلم في موضوع الفناء واعتبره الدرجة القصوى في سلم معراجه الروحي، وفناؤه هو الفناء عن شهود السوى.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للشعراني ١: ١١١، ١١٢، فقد أورد الجزء الأول من هذا النص: (افن عن الخلق بحكم الله، وعن هواك بأمره)، وانظر المقالة السادسة (في الفناء) في كتاب فتوح الغيب فقد جاء النص هكذا (افن عن الخلق بإذن الله تعالى، وعن هواك بأمر الله تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] وعن إرادتك بفعل الله تعالى، وحينئذ تصلح أن تكون وعاء لعلم الله تعالى.

وإلا فإذا أمر بأن يريد من المقدورات شيئاً دون شيء فليرد ما أمر بإرادته سواء كان موافقاً للقدر أم لا، وهذا الموضع قد يغلط فيه طائفة من السالكين، والغالب على الصادقين منهم أنهم لم يعرفوا الإرادة الشرعية في ذلك المعين، وهم ليس لهم إرادة نفسانية، فتركوا إرادتهم لغير المقدور، قال الشيخ[١]: (فعلامة فنائك عن خلق الله انقطاعك عنهم وعن التردد إليهم واليأس مما في أيديهم) وهو كما قال، فإذا كان القلب لا يرجوهم ولا يخافهم، لم يتردد إليهم لطلب شيء منهم، وهذا يشبه بما يكون مأموراً به من المشي إليهم لأمرهم بما أمر الله به، ونهيهم عما نهاهم عنه كذهاب الرسل، واتباع الرسل إلى من يبلغون رسالات الله، فإن التوكل إنما يصح مع القيام بما أمر به العبد ليكون عابداً لله متوكلاً عليه، وإلا فمن توكل عليه ولم يفعل ما أمر به فقد يكون ما أضاعه من الأمر أولى به مما قام به من التوكل، أو مثله، أو دونه، كما أن من قام بأمر ولم يتوكل عليه، ولم يستعن به فلم يقم بالواجب، بل قد يكون ما تركه من التوكل والاستعانة أولى به مما فعله من الأمر أو مثله أو دونه، قال الشيخ[١]: (وعلامة فنائك عنك وعن هواك: ترك التكسب والتعلق بالسبب في جلب النفع والضرر، فلا تتحرك فيك بك، ولا تعتمد عليك لك، ولا تنصر نفسك، ولا تذب عنك، لكن تكل ذلك كله إلى من تولاه أولاً فيتولاه آخراً، كما كان ذلك موكولاً إليه في حال كونك مغيباً في الرحم، وكونك رضيعاً طفلاً في مهدك) قلت[٢]: وذلك لأن نفسك تهوى وجود ما تحبه وينفعها، ودفع ما تبغضه ويضرها، فإذا فني عن ذاك بالأمر فعل ما يحبه الله وترك ما يبغضه الله، فاعتاض بفعل محبوب الله عن محبوبه، وبترك ما يبغضه الله عما يبغضه، وحينئذ فالنفس لابد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة، فيكون في ذلك متوكلاً على الله، والشيخ[١] رحمه الله ذكر هنا التوكل دون الطاعة لأن النفس لابد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة، فإن لم تكن متوكلة على الله في ذلك، واثقة به، لم يمكن أن تنصرف عن ذلك فتمتثل الأمر مطلقاً، بل لابد أن تعصي الأمر في جلب المنفعة ودفع المضرة، فلا تصح العبادة لله وطاعة أمره بدون التوكل عليه، كما أن التوكل عليه لا يصح بدون عبادته وطاعته، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن

(١) أي عبد القادر الجيلاني.
(٢) أي ابن تيمية.

يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣] وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝﴾ [المزمل: ٨-٩] والمقصود أن امتثال الأمر على الإطلاق لا يصح بدون التوكل والاستعانة، ومن كان واثقاً بالله أن يجلب له ما ينفعه ويدفع عنه ما يضره أمكن أن يدع هواه ويطيع أمره، وإلا فنفسه لا تدعه أن يترك ما يقول إنه محتاج فيه إلى غيره.

قال الشيخ رضي الله عنه[1]: (وعلامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراداً قط، فلا يكن لك غرض، ولا تقف لك حاجة ولا مرام؛ لأنك لا تريد مع إرادة الله سواها، بل يجري فعل الله فيك فتكون أنت إرادة الله تعالى وفعله، ساكن الجوارح، مطمئن الجنان، مشروح الصدر، منور الوجه، عامر البطن، غنياً عن الأشياء بخالقها، تقلبك يد القدرة ويدعوك لسان الأزل، ويعلمك رب الملوك[2]، ويكسوك نوراً منه والحلل، وينزلك منازل من سلف من أولي العلم الأول، فتكون منكسراً أبداً فلا تثبت فيك شهوة ولا إرادة كالإناء المتثلم الذي لا يثبت فيه مائع ولا كدر، فتفنى عن أخلاق البشرية، فلن يقبل باطنك ساكناً غير إرادة الله، فحينئذ يضاف إليك التكوين وخرق العادات فيرى ذلك منك في ظاهر العقل والحكم وهو فعل الله تبارك وتعالى حقاً في العلم، فتدخل حينئذ في زمرة المنكسرة قلوبهم، الذين كسرت إرادتهم البشرية، وأزيلت شهواتهم الطبيعية، واستوثقت لهم إرادات ربانية وشهوات إضافية كما قال النبي ﷺ: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة» فأضيف ذلك إليه بعد أن خرج منه، وزال عنه تحقيقاً لما أشرت إليه وتقدم، قال الله تعالى: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي» وساق كلامه وفيه «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل» الحديث، قلت[3]: هذا المقام هو آخر ما يشير إليه الشيخ عبد القادر ـ رضي الله عنه ـ وحقيقته أنه لا يريد كون شيء إلا أن يكون مأموراً بإرادته، فقوله: علامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراداً قط، أي لا تريد مراداً لم تؤمر بإرادته، فأما ما أمرك الله ورسوله بإرادتك إياه، فإرادته إما واجب وإما مستحب، وترك إرادة هذا إما

(١) أي عبد القادر.
(٢) في نسخ أخرى: رب الملل.
(٣) أي ابن تيمية.

معصية وإما نقص، وهذا الموضوع يلتبس على كثير من السالكين فيظنون أن الطريقة الكاملة أن لا يكون للعبد إرادة أصلاً، وأن قول أبي يزيد (أريد أن لا أريد) ـ لما قيل له ماذا تريد؟ نقص وتناقص؛ لأنه قد أراد، ويحملون كلام المشايخ الذين يمدحون بترك الإرادة على ترك الإرادة مطلقاً، وهذا غلط منهم على الشيوخ المستقيمين، وإن كان من الشيوخ من يأمره بترك الإرادة مطلقاً، فإن هذا غلط ممن قاله، فإن ذلك ليس بمقدور ولا مأمور، فإن الحر لابد له من إرادة فلا يمكن حياً أن لا تكون له إرادة، فإن الإرادة التي يحبها الله ورسوله ويأمر بها أمر إيجاب أو أمر استحباب لا يدعها إلا كافر أو فاسق أو عاص إن كانت واجبة، وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركاً لما هو خير له، والله تعالى قد وصف الأنبياء والصديقين بهذه الإرادة فقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: ١٩-٢٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٩] وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩] وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣]. وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾﴾ [الزمر: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولا عبادة إلا بإرادة الله، ولما أمر به، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢] أي أخلص قصده لله، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وإخلاص الدين له هو إرادته وحده بالعبادة، وقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وكل محب فهو مريد، وقال الخليل عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] ثم قال ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] ومثل ذلك كثير في القرآن، يأمر الله بإرادته وإرادة ما يأمر به وينهى عن إرادة غيره وإرادة ما نهى عنه وقد قال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة

ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» فهما إرادتان إرادة يحبها الله ويرضاها، وإرادة لا يحبها الله ولا يرضاها، بل إما نهى عنها، وإما لم يأمر بها ولا ينهى عنها[١].

والمقالة التي شرحها ابن تيمية في فتاويه هي المقالة السادسة من كتاب فتوح الغيب، وهي مقالة الفناء عن الخلق.

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني في هذه المقالة: (افن عن الخلق بإذن الله تعالى وعن هواك بأمر الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] وعن إرادتك بفعل الله تعالى، وحينئذ تصلح أن تكون وعاء لعلم الله تعالى[٢]، فعلامة فنائك عن خلق الله تعالى انقطاعك عنهم وعن التردد إليهم واليأس مما في أيديهم[٣]، وعلامة فنائك عن هواك ترك التكسب والتعلق بالسبب في جلب النفع والضرر، فلا تتحرك فيك[٤]، ولا تعتمد عليك ولا لك[٥]، ولا تذب عنك ولا تنفر نفسك[٦]، تكل ذلك كله إلى الله تعالى لأنه تولاه أولاً فيتولاه آخراً[٧]، كما كان ذلك موكولاً إليه في حال كونك مغيباً في الرحم، وكونك رضيعاً طفلاً في مهدك، وعلامة فنائك عن إرادتك بفعل الله[٨] أنك لا تريد مراداً قط، ولا يكون لك غرض ولا يبقى لك حاجة ولا مرام، لأنك لا تريد مع إرادة الله سواها، بل يجري فعل الله فيك، فتكون أنت عند إرادة الله وفعله ساكن الجوارح مطمئن الجنان منشرح الصدر، منور الوجه، عامر البطن، غنياً عن الأشياء بخالقها، تقلبك يد القدرة ويدعوك لسان الأزل ويعلمك رب الملك[٩]،

---

(١) الفتاوى ١٠: ٤٩٠ـ ٤٩٦.

(٢) انظر المقالة السادسة عن الفناء في كتاب فتوح الغيب فقد جاء النص كما ثبتناه، واختلفت ألفاظه في فتاوى ابن تيمية، قال ابن تيمية: (قال الشيخ عبد القادر، قدس الله روحه افن عن الخلق بحكم الله، وعن هواك بأمره، وعن إرادتك بفعله، فحينئذ يصلح أن تكون وعاء لعلم الله)

(٣) في الفتاوى (فعلامة فنائك عن خلق الله انقطاعك عنهم وعن التردد إليهم، واليأس مما في أيديهم).

(٤) في الفتاوى (فلا تتحرك فيك بك).

(٥) في الفتاوى (ولا تعتمد عليك لك).

(٦) في الفتاوى (ولا تنصر نفسك ولا تذب عنك).

(٧) في الفتاوى (لكن تكل ذلك كله إلى من تولاه أولاً فيتولاه آخراً).

(٨) في الفتاوى (وعلامة فناء إرادتك بفعل الله).

(٩) في الفتاوى (رب الملوك).

ويكسوك أنواراً منه والحلل، وينزلك من أولي العلم الأول، فتكون منكسراً أبداً، فلا يثبت فيك إرادة ولا شهوة كالإناء المنثلم الذي لا يثبت فيه مائع وكدر، فتنقى عن أخلاق البشرية، فلن يقبل باطنك شيئاً غير إرادة الله عز وجل، فحينئذ يضاف إليك التكوين وخرق العادات فيرى ذلك منك في ظاهر الفعل والحكم، وهو فعل الله وإرادته حقاً في العالم، فتدخل حينئذ في زمرة المنكسرة قلوبهم الذين كسرت إرادتهم البشرية وأزيلت شهواتهم الطبيعية فاستؤنفت لهم إرادة ربانية[1] كما قال النبي ﷺ «حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» فأضيف ذلك بعد أن خرج منه زوال عنه تحقيقاً بما أشرنا وتقدم في الحديث القدسي «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي» فإن الله تعالى لا يكون عندك حتى تنكر جملة هواك وإرادتك، فإذا انكسرت ولم يثبت فيك شيء، ولم يصلح فيك شيء، أنشأك الله فجعل فيك إرادة، فتريد بتلك الإرادة فإذا صرت في تلك الإرادة المنشأة فيك كسرها الرب تعالى بوجودك فيها، فتكون منكسر القلب أبداً، فهو لا يزال يجدد فيك إرادة ثم يزيلها عند وجودك فيها هكذا إلى أن يبلغ الكتاب أجله، فيحصل اللقاء فهذا هو معنى «عند المنكسرة قلوبهم من أجلي» ومعنى قولنا عند وجودك فيها هو ركونك وطمأنينتك إليها، قال الله تعالى في حديثه القدسي[2] الذي يرويه ﷺ: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش

---

(١) في الفتاوى (واستوثقت لهم إرادات ربانية وشهوات أصنافية) وأعتقد أن الصحيح (واستوثقت لهم إرادات ربانية).

(٢) هذا الحديث من الأحاديث القدسية التي يستدل بها ابن تيمية دائماً في فتاويه في حديثه عن الفناء عن عبادة السوى والاتحاد الوصفي، ولفظ الحديث في الفتاوى هكذا ـ في معظم الكتاب ـ «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولابد له منه»، وحديث «لا يزال عبدي المؤمن. . . .» إلخ.

في المغني عن حمل الأسفار ١/ ٧٧، متفق عليه من حديث أبي هريرة كنت سمعه وبصره، وفي سنن ابن ماجه ج٢ ص١٢٥٥ باب فضل العمل ج٣٨٢١ بلفظ «من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً. . .»، وفي نيل الأوطار ٢/ ٦٢، رواه البخاري عن أبي هريرة، وانفرد البخاري بزيادة عن باقي الكتب الستة، ورواه ابن حبان في صحيحه، وأبو داوود خارج السنن فيما رواه عن ابن الأعرابي، ورواه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الزهد وابن عدي في الكامل، وآخرون.

بها، ورجله التي يمشي بها» وفي لفظ آخر «فبي يسمع وبي يبطش وبي يعقل»(١) وهذا إنما يكون في حالة الفناء لا غير، فإذا فنيت عنك وعن الخلق؛ والخلق إنما هو خير وشر، وكذلك أنت خير وشر، فلم ترج خيرهم ولا تخاف شرهم بقي الله وحده كما كان، ففي قدر الله خير وشر، فيؤمنك من شره ويغرقك في بحار خيره، فتكون وعاء كل خير ومنبعاً لكل نعمة وسرور وحبور وضياء، أمن وسكون، فالفناء والمنى والمبتغى والمنتهى حد ومرد ينتهي إلى مسيرة الأولياء، وهو الاستقامة التي طلبها من تقدم من الأولياء والأبدال أن يفنوا عن إرادتهم وتبدل بإرادة الحق عز وجل، فيريدون بإرادة الحق أبداً إلى الوفاة، فلهذا سموا أبدالاً رضي الله عنهم فذنوب هؤلاء السادة أن يشركوا إرادة الحق بإرادتهم على وجه السهو والنسيان وغلبة الحال والدهشة، فيدركهم الله تعالى برحمته بالتذكرة واليقظة، فيرجعوا عن ذلك ويستغفروا ربهم، إذ لا معصوم عن الإرادة إلا الملائكة، عصموا عن الإرادة، والأنبياء عصموا عن الهوى، وبقية الخلق من الأولياء بعضهم يحفظون عن الهوى، والأبدال عن الإرادة، ولا يعصمون منهما على معنى يجوز في حقهم الميل إليهما في الأحيان، ثم يتداركهم الله عز وجل باليقظة برحمته»(٢)، وكان الشيخ عبد القادر الجيلاني يقول: اخرج عن نفسك وتنح عنها، وانعزل عن ملكك، وسلم الكل مولاك، وكن بوابه على باب قلبك، فأدخل ما يأمرك بإدخاله، وأخرج ما يأمرك بإخراجه، ولا تدخل الهوى، قلبك فتهلك»(٣).

والنفس التي يوصي الجيلاني تلاميذه بالخروج عنها هي النفس الأمارة التي تأمر باللذات والشهوات الحسية، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية، والتي هي منبع الأخلاق الذميمة والأفعال السيئة ومأوى الشر، والخروج عنها قد يكون أولاً إلى النفس اللوامة التي تنورت بنور القلب تنوراً ما، والتي تابت إلى الله وأخذت تلوم نفسها، وتستغفر راجعة إلى باب الرحيم، حتى يتم لها التخلق بالأخلاق الحميدة، والتوجه إلى جهة القلب بالكلية، وحتى يتم تسليم الكل لله ويحصل الفناء عن عبادة السوى، ويكون الحب لله والبغض في الله والرجاء لله، والتوكل على الله(٤).

---

(١) اكتفى شيخ الإسلام ابن تيمية بشرح الجزء الأول من هذه المقالة، حتى الحديث القدسي.

(٢) نهاية المقالة السادسة في الفناء ـ انتظر فتوح الغيب ط٢ دار الأرباب، ١٢٩٩٢م ص١٣ـ ١٦.

(٣) الشعراني: الطبقات الكبرى ١: ١١١، ١١٢.

(٤) انظر: اصطلاحات الصوفية ط دار المعارف مصر ١٤٠٤هـ، للكاشاني، ص١١٠، ١١١ لمعرفة: النفس اللوامة، والنفس الأمارة والنفس المطمئنة.

الفناء وكيفيته عند الجيلاني[١]:

قال رضي الله عنه وأرضاه[١]: نضرب لك مثلاً في الفناء[٢]، فنقول ألا ترى أن الملك يولي رجلاً من العوام ولاية على بلدة من البلاد، ويخلع له ويعقد له ألوية ورايات، ويعطيه الكؤوس والطبل والجند فيكون على ذلك برهة من الزمان، حتى إذا اطمأن واعتقد بقاءه وثباته، وعجب به، ونسي حالته الأولى ونقصانه وذله وفقره وخموله، ودخلته النخوة والكبرياء جاءه العزل من الملك في أشر ما كان من أمره، ثم طالبه الملك بجرائم صنعها وتعدى أمره ونهيه فيها، فحبسه في أضيق الحبوس وأشدها، وطال حبسه ودام ضره وذله وفقره، وذابت نخوته وكبرياؤه، وانكسرت نفسه وخمدت نار هواه، وكل ذلك في عين الملك، ثم تعطف الملك عليه فنظره بعين الرأفة والرحمة، فأمر بإخراجه من الحبس والإحسان إليه، والخلعة عليه ورد الولاية إليه ومثلها معها وجعلها له موهبة، فدامت له وبقيت مصفاة مكفاة مهنئة، وكذلك المؤمن إذا قربه الله واجتباه فتح قبالة عين قلبه باب الرحمة والمنة والإنعام، فيرى بقلبه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من مطالعة الغيوب من ملكوت السموات والأرض، وتقريب وكلام لذيذ لطيف ووعد جميل، ووفاء به، وإجابة دعاء وكلمات حكمة وتصديق وعد فإنها ترمى إلى قلبه قذفاً من مكان بعيد، فتظهر على لسانه ومع ذلك يسبغ عليه نعمة ظاهرة على جسده وجوارحه، في المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح الحلال والمباح وحفظ الحدود والعبادات الظاهرة، فيديم الله

---

(١) في المقالة الحادية والأربعين مثل في الفناء وكيفيته
انظر ـ فتوح الغيب ص٧٠ـ ٧٢.

(٢) جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن المصطلحين الصوفيين (فناء) و(بقاء) يشيران إلى مرحلتين يمر بهما الصوفي في طريق المعرفة وهذان القسمان متقابلان من ناحية، متكاملان من ناحية أخرى، وهناك حدان جعلا للفناء (أ) فناء وعي الصوفي بجميع الأشياء بما فيها نفسه، بل فناء وعيه بهذا الفناء، ويبقى وعيه الخاص بالله.

(ب) سقوط الصفات المذمومة وظهور الصفات المحمودة ومن ثم فإن (البقاء) في ضوء هذين الحدين للفناء هو

أ ـ البقاء لله بفناء العبد عن نفسه وصفاته.

ب ـ العودة إلى الوعي الصوفي بتعدد دنيا الخلق.

(دائرة المعارف الإسلامية، المجلد السابع، ص٤٤٧، ٤٤٨).

عز وجل لعبده المؤمن المجذوب برهة من الزمان، حتى اطمأن عليه أبواب البلايا والمحن في النفس والمال والأهل والولد والقلب، فينقطع عن جميع ما كان أنعم الله عليه من قبل، فيبقى متحيزاً حسيراً منكسراً مقطوعاً به، إن نظر إلى ظاهره رأى ما يسوؤه، وإن نظر إلى قلبه وباطنه رأى ما يحزنه، وإن سأل الله تعالى كشف ما به من الضر لم ير إجابته، وإن طلب وعداً جميلاً لم يجده سريعاً، وإن وعد بشيء لم يعثر على الوفاء به، وإن رأى رؤيا لم يظفر بتعبيرها وتصديقها، وإن رام الرجوع إلى الخلق لم يجد إلى ذلك سبيلاً، وإن ظهرت له ذلك رخصة فعمل بها تسارعت العقوبات نحوه، وتسلطت أيدي الخلق على جسمه وألسنتهم على عرضه، وإن طلب إقالة مما قد أدخل فيه من الحالة الأولى قبل الاجتباء لم يقل، وإن طلب الرضا أو الطيبة والنعيم بما به من البلاء لم يعط، فحينئذ تأخذ النفس في الذوبان، والهوى في الزوال، والإرادة والأماني في الرحيل، والأكوان في التلاشي، فيدام له ذلك، بل يزداد تشديداً وعسراً وتأكيداً، حتى إذا فني العبد من الأخلاق الإنسانية والصفات البشرية وبقي روحاً فقط يسمع نداء في باطنه ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾ [صٓ: ٤٢] كما قيل لسيدنا أيوب عليه السلام، فيمطر الله عز وجل في قلبه بحار رحمته ورأفته ولطفه ومنته، ويحييه بروحه ويطيبه بمعرفته ودقائق علومه، ويفتح عليه أبواب رحمته ونعمته ودلاله، وأطلق إليه الأيدي بالبذل والعطاء والخدمة في سائر الأحوال والألسن بالحمد والثناء، والذكر الطيب في جميع المحال، والأرجل بالترحال، وذلل له وسخر له الملوك والأرباب، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، تربية ظاهرة بخلقه ونعمه، ويستأثر تربية باطنة بلطفه وكرمه، وأدام له ذلك إلى اللقاء، ثم يدخله فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما قال جل وعلا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السَّجدَة: ١٧][1].

وقال رضي الله عنه وأرضاه[2]: (إذا فني العبد عن الخلق والهوى والنفس والإرادة والأماني دنيا وأخرى، ولم يرد إلا الله عز وجل، وخرج الكل عن قلبه وصل إلى الحق، واصطفاه واجتباه، وأحبه وحببه إلى خلقه، وجعله يحبه ويحب قربه، ويتنعم

---

(١) نهاية مقالة الفناء وكيفيته، فتوح الغيب، ٧٠ـ ٧٣.

(٢) هذه هي المقالة السادسة والخمسون، وهي في فناء العبد عن الخلق والهوى والنفس والإرادة والأماني، انظر كتاب فتوح الغيب ط. دار الألباب ص٨٩، ٩٠.

بفضله ويتقلب في نعمه وفتح عليه أبواب رحمته، ووعده أن لا يغلقها عنه أبداً، فيختار العبد حينئذ الله، ويدبر بتدبيره، ويشاء بمشيئته، ويرضى برضاه ويمتثل أمره دون غيره، ولا يرى لغيره عز وجل وجوداً ولا فعلاً، فحينئذ يجوز أن يعده الله بوعد ثم لا يظهر للعبد وفاء بذلك، ولا يغير ما قد توهمه من ذلك لأن الغيرية قد زالت بزوال الهوى والإرادة، فصار في فعل الله عز وجل وإرادته فيصير الوعد حينئذ في حقه مع الله عز وجل كرجل عزم على فعل شيء في نفسه ونواه ثم صرفه إلى غيره كالناسخ والمنسوخ فيما أوحى الله عز وجل إلى نبينا محمد ﷺ قوله عز وجل: ﴿۞مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦﴾ [البَقَرَة: ١٠٦] لما كان النبي ﷺ منزوع الهوى والإرادة سوى المواضع التي ذكرها الله عز وجل في القرآن من الأسر يوم بدر: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨] كذا قالوا، وغيره وهو مراد الحق عز وجل لم يترك على حالة واحدة بل نقله إلى القدر إليه فصرفه في القدر وقلبه منها، نبهه بقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة: ١٠٦] يعني أنك في بحر القدر تقلبك أمواجه تارة كذا وتارة كذا فمنتهى أمر الولي ابتداء أمر النبي ما بعد الولاية والبدلية إلا النبوة والله أعلم)[١].

بداية الفناء ونهايته:

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه وأرضاه: (البداية هي الخروج من المعهود إلى المشروع ثم المقدور[٢]، ثم الرجوع إلى المعهود، ويشترط حفظ الحدود، فتخرج من معهودك من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح والمسكون

---

(١) عبد القادر الجيلاني: فتوح الغيب ص٨٩، ٩٠.

(٢) الفناء عند الجيلاني لا يحدث نتيجة للسماع والرقص كما هو الحال بالنسبة لبعض الجهال. فالجيلاني لم يكن من الذين يميلون إلى الرقص والسماع أو اتخاذ الغناء والرقص عبادة، قال ابن تيمية (... لا يجوز السجود لغير الله، واتخاذ الضرب بالدف والغناء والرقص عبادة من البدع التي لم يفعلها سلف الأمة ولا أكابر شيوخها كالفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، وكذلك أكابر الشيوخ المتأخرين مثل الشيخ عبد القادر والشيخ عدي والشيخ أبي مدين والشيخ أبي البيان وغير هؤلاء، فإنهم لم يحضروا السماع البدعي، بل كانوا يحضرون السماع الشرعي، سماع الأنبياء واتباعهم كسماع القرآن الكريم....،) الفتاوى ١١: ٦٠٤.

والطبع والعادة إلى أمر الشرع ونهيه فتتبع كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فتفنى عن هواك ونفسك ورعونتها في ظاهرك وباطنك، فلا يكون في باطنك غير توحيدك له وفي ظاهرك غير طاعة الله وعبادته مما أمر ونهى، فيكون هذا دأبك وشعارك ودثارك في حركتك وسكونك، في ليلك ونهارك وسفرك وحضرك وشدتك ورخائك، وصحتك وسقمك، وأحوالك كلها، ثم تحمل إلى وادي القدر فينصرف فيك القدر، فتفنى عن جدك واجتهادك وحولك وقوتك، فتنساق إليك الأقسام التي جف بها القلم وسبق بها العلم، فتلبس بها وتعطى منها الحفظ والسلامة، فتحفظ فيها الحدود، ويحصل فيها الموافقة وإباحة المحرم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩] وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فتصحب الحفظ والحمية، وإنما هي أقسامك معدة لك، فحبسها عنك في حال سيرك وطريقك وسلوكك فيافي الطبع ومفاوز الهوى المعهود، لأنها أثقال أحمال ما زيحت عنك؛ لئلا يثقلك فتضعفك إلى حين الوصول إلى عتبة الفناء، وهو الوصول إلى قرب الحق عز وجل والمعرفة به، والاختصاص بالأسرار والعلوم الدينية، والدخول في بحار الأنوار، حيث لا تضر ظلمة الطبائع الأنوار فالطبع باق إلى أن تفارق الروح الجسد لاستيفاء الأقسام إذ لو زال الطبع من الآدمي لالتحق بالملائكة وبطلت الحكمة، فبقي الطبع يستوفي الأقسام والحظوظ، فيكون ذلك وظائفياً لا أصلياً كما قال النبي ﷺ: «حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة»[1] فلما فنى النبي ﷺ عن الدنيا وما فيها ردت إليه أقسامه المحبوسة عنه في حال سيره إلى ربه عز وجل، فاستوفاها موافقة لربه تعالى والرضا بفعله، ممتثلاً لأمره، فقدست أسماؤه وعمت رحمته، شمل فضله لأوليائه وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام فهكذا الولي في هذا الباب ترد إليه أقسامه وحظوظه مع حفظ الحدود، فهو الرجوع من النهاية إلى البداية والله أعلم)[2].

(١) رواه الطبراني في الأوسط والصغير عن أنس رفعه ورواه النسائي عن أنس، ورواه الحاكم بدون (وجعلت) وقال صحيح على شرط مسلم.
(٢) المقالة الستون (في البداية والنهاية) ص٩٥، ٩٦ كتاب فتوح الغيب ط دار الألباب.

الخروج من باب الأفناء إلى الفناء:

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه وأرضاه في تفصيل أحوال المريد وبيان الخروج من باب الأفناء إلى الفناء: (أتريد الراحة والسرور والدعة والحبور، والأمن والسكون والنعيم والدلال، وأنت بعد في كير السبك والتذويب وتمويت النفس ومجانية الهوى وإزالة المرادات والأعواض دنيا وأخرى، وقد بقيت فيك بقية من ذلك ظاهرة لائحة؟ على رسلك يا مستعجل مهلاً مهلاً يا مترقب الباب مسدود إلى ذلك، وقد بقيت عليك منه وفيك ذرة ومنه (المكاتب عبد ما بقي عليه درهم) أنت مصدود عن ذلك ما بقي عليك من الدنيا مقدار مص نواة، والدنيا هواك ومرادك ورؤيتك بشيء من الأشياء أو طلبك بشيء من الأشياء وتشوق نفسك إلى شيء من الأعواض دنيا وأخرى؛ فما دام فيك شيء من ذلك فأنت في باب الأفناء، فاسكن حتى يحصل الفناء على التمام والكمال، فتخرج من الكير وتكمل صياغتك وتجلى وتكسى وتطيب وتبخر، ثم ترفع إلى الملك الأكبر فتخاطب بـ ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف: ٥٤].

فتؤانس وتلاطف، وتطعم من الفضل ومنه تسقى وتقرب وتدنى وتطلع على الأسرار وهي عنك لا تخفى، فتغنى بما تعطى من ذلك عن جميع الأشياء، ألا ترى إلى قراضة الذهب متفرقة مبتذلة متداولة غادية رائحة في أيدي العطارين والبقالين والقصابين والدباغين والنقاطين والكناسين والكفافين أصحاب الصنائع النفيسة والرذيلة الدنية الخبيثة، ثم تجمع فتجعل في كير الصائغ فتذوب هناك بإشعال النار عليها، ثم تخرج منه فتطرق وترقق وتطلع وتصاغ فتجعل حلياً، ثم تجلى وتطيب فتترك في خير المواضع والأمكنة، من وراء الإغلاق في الخزائن والصناديق والأحقاف، وتحلى بها العروس وتزين وتكرم، وقد تكون العروس للملك الأعظم فتنقل القراضة من هذه الأشياء إلى عرب الملك ومجلسه بعد السبك والدق، هكذا أنت يا مؤمن إذا صبرت على مجاري الأقدار فيك، ورضيت بالقضاء في جميع الأحوال قربت إلى مولاك عز وجل في الدنيا، فتنعم بالمعرفة والعلوم والأسرار، وتسكن في الآخرة دار السلام مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين في جوار الله وداره وقربه عز وجل، فاصبر ولا تستعجل، وارض بالقضاء ولا تتهم فسينالك برد عفو الله ولطفه وكرمه بمنة الله)[1].

(١) فتوح الغيب، ط. دار الألباب ١٩٩٢م ص٥١، ٥٢ـ المقالة الثامنة والعشرون ـ في تفصيل أحوال المريد.

الفناء بالله تعالى:

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه فتوح الغيب: (اطلبوا من الله عز وجل الرضا أو الفناء[1]؛ لأنه هو الراحة الكبرى والجنة العالية المنفردة في الدنيا، وهو باب الله الأكبر، وعلة محبة الله لعبده المؤمن، فمن أحبه الله لم يعذبه في الدنيا والآخرة، فيه اللحوق بالله عز وجل والوصول إليه، ولا تشتغلوا بطلب الحظوظ وأقسام لم تقسم أو قسمت، فإن كانت لم تقسم فالاشتغال بطلبها حمق ورعونة وجهالة وهو أشد العقوبات، كما قيل: من أشد العقوبات طلب ما لا يقسم، وإن كانت مقسومة فالاشتغال بها شره وحرص وشرك من باب العبودية والمحبة الحقيقية، لأن الاشتغال بغير الله عز وجل شرك، وطالب الحظ ليس بصادق في محبته وولايته، فمن احتاج مع الله غيره فهو كذاب، وطالب العوض على عمله غير مخلص، وإنما المخلص من عبد الله ليعطي الربوبية حقها، وتعبده للمالكية والحقيقة، لأن الحق عز وجل يملكه ويستحق عليه العمل والطاعة له بحركاته وسكناته وسائر أكسابه، والعبد وما في يده ملك لمولاه؛ كيف وقد بينا في غير موضع أن العبادات بأسرها نعمة من الله وفضل منه على عبده، إذ وفقه لها وأقدره عليها، فالاشتغال بالشكر لربه خير وأولى من طلبه من الأعواض أو الجزاء عليها، ثم كيف تشتغل بطلب الحظوظ وقد ترى خلقاً كثيراً كلما كثرت الحظوظ عندهم وتواترت وتتابعت اللذات والنعم والأقسام إليهم زاد سخطهم على ربهم وتضجرهم وكفرهم بالنعمة، وكثرت همومهم وغمومهم وفقرهم إلى أقسام لم تقسم غير ما عندهم، وحقرت وصغرت وقبحت أقسامهم عندهم، وعظمت وكبرت وحسنت أقسام غيرهم في قلوبهم وأعينهم فشرعوا في طلبها، فذهبت أعمارهم وانحلت قواهم وكبرت سنهم وشتت أحوالهم وتعبت أجسادهم وعرقت جباههم وسودت صحائفهم بكثرة آثامهم وارتكاب عظائم الذنوب في طلبها وترك أوامر ربهم،

(١) يعتبر العلماء أبا سعيد الخراز أول من تكلم عن الفناء واستخدم هذا المصطلح في كتابه (السر) الذي أشار إليه العطار في تذكرة الأولياء جـ٢ ص٤٠ ومن أقوال أبي سعيد المشهورة قوله: إذا أناب العبد إلى الله وتعلق بالله، وسكن في قرب الله، نسي نفسه، ونسي ما سوى الله، فإذا قيل له: من أين أنت؟ وماذا تريد؟ لا يكون له جواب أفضل من أن يقول: الله ويقول: حقيقة القرب طهارة القلب من كل الأشياء وسكون القلب في الله، ويقول أبو سعيد: أول التوحيد فناء كل شيء في قلب المرء والعود إلى الله بالكلية.
انظر تاريخ التصوف في الإسلام لقاسم غني ص٥٣٩ وتذكرة الأولياء للعطار جـ٢ ص٤٠.

فلم يناولها وخرجوا من الدنيا مفاليس لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، لا شكروا ربهم فيما قسم لهم من أقسامهم فاستعانوا على طاعته، وما نالوا بها على طاعته، وما نالوا ما طلبوا من أقسام غيرهم، بل ضيعوا دنياهم وآخرتهم، فهم أشر الخليقة وأجهلهم وأحمقهم وأخسهم عقولاً وبصيرة؛ فلو أنهم رضوا بالقضاء وقنعوا بالعطاء وأحسنوا طاعة المولى لأتتهم أقسامهم من الدنيا من غير تعب ولا عناء، ثم نقلوا إلى جوار العلي الأعلى، فوجدوا عنده كل مراد ومنى، جعلنا الله وإياكم ممن رضي بالقضاء، وجعل سؤاله ذلك والفناء وحفظ الحال والتوفيق بما يحبه ويرضى[1].

الفناء عن الأكوان:

قال رضي الله عنه وأرضاه: (لا تكشف البرقع والقناع عن وجهك حتى تخرج من الخلق وتوليهم ظهر قلبك في جميع الأحوال ويزول هواك، ثم تزول إرادتك ومناك، فتفنى عن الأكوان دنيا أخرى، فتصير كإناء منثلم لا يبقى فيك غير إرادة ربك عز وجل فتمتلئ به عز وجل وبحكمه، إذ خرج الزور دخل النور، فلا يكون لغير ربك في قلبك مكان ولا مدخل وجعلت بواب قلبك، وأعطيت سيف التوحيد والعظمة والجبروت، فكل من رأيته دنا في ساحة صدرك إلى باب قلبك ندرت رأسه من كاهله فلا يكون لنفسك وهواك وإرادتك ومناك في دنياك وأخراك عندك رأس امتثال ولا كلمة مسموعة، لا رأي متبع إلا اتباع أمر الرب عز وجل، والوقوف معه والرضا بقضائه وقدره، بل الفناء في قضائه وقدره، فتكون عبد الرب عز وجل وأمره لا عبد الخلق وآرائهم.

فإذا استمر الأمر فيك كذلك، ضربت حول قلبك سرادقات الغيرة وخنادق العظمة وسلطان الجبروت، وحف بجنود الحقيقة والتوحيد، ويقام دون ذلك حراس من الحق عز وجل، كيلا يخلص الخلق إلى تطلب القلب من الشيطان والنفس والهوى، والإرادات والأماني الباطلة والدعاوى الكاذبة الناشئة من الطباع والنفوس الآمرة بالسوء والضلالات الناشئة من الهوى فحينئذ إن كان القدر مجيء الخلق وتواترهم إليك وتتابعهم وتطابقهم عليك، ليصيبوا من الأنوار اللائحة والعلامات المنيرة والحكم

---

(١) المقالة الثالثة والخمسون في الأمر بطلب الرضى من الله تعالى، والفناء به تعالى، ص٨٤، ٨٥ كتاب فتوح الغيب، ط٢ دار الألباب ١٩٩٥م.

البالغة، ويروا من الكرامات الظاهرة وخوارق العادات المستمرة، ويزدادوا بذلك من القربات والطاعات والمجاهدات والمكابدات في عبادة ربهم عز وجل، حفظت عنهم أجمعين، وعن ميل النفس إلى هواها، وعجبها ومباهاتها، وتعاظمها بالتكبر بهم وبقبولهم لك وإقبال وجوههم إليك، وكذلك إن قدر مجيء زوجة حسناء جميلة بكفايتها وسائر مؤنتها حفظت من شرها وحمل أثقالها وأتباعها وأهلها، وصارت عندك موهبة مكفاة مهناة منقاة مصفاة من الغش والخبث والحقد والغضب والخيانة في الغيب، فتكون لك مسخرة، وهي وأهلها محمولة عنك مؤنتها، مدفوعة عنك أذيتها وإن قدر منها ولد كان صالحاً ذرية طيبة قرة عين.

قال الله تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وقال تعالى: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] وقال تعالى: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦] فتكون هذه الدعوات التي في هذه الآيات معمولاً بها مستجابة في حقك إن دعوت بها أو لم تدع، إذ هي في محلها وأهلها لهذه المنزلة، وأقيم في هذا المقام وقدر له من الفضل والقرب هذا المقدار، وكذلك إذا قدر مجيء شيء من الدنيا وإقبالها لا يضر إذ ذلك، فما هو قسمك منها فلابد من تناوله وتصفيته لك بفعل الله عز وجل، وورود الأمر بتناوله وأنت ممتثل للأمر مثاب على تناوله، كما تثاب على فعل صلوات الفرض وصيام الفرض، وتؤمر فيما ليس بقسمك منها بصرفه إلى أربابه من الأصحاب والجيران والإخوان المستحقين الفقراء منهم وأصحاب الأقسام على ما يقتضي الحال، فالأحوال تكشفها وتميزها، ليس الخبر كالمعاينة، فحينئذ تكون من أمرك على بيضاء نقي لا غبار عليها ولا تلبيس ولا تخليط ولا شك وارتياب، فالصبر الصبر، الرضا، الرضا، حفظ الحال حفظ الحال، الخمول الخمول، الخمود الخمود، السكوت السكوت، الصموت الصموت، الحذر الحذر، النجا النجا، الوحا الوحا، الله الله ثم الله، الإطراف الإطراف، الإغماض الإغماض، الحياء الحياء، إلى أن يبلغ الكتاب أجله، فيؤخذ بيدك فتقدم، وينزع عنك ما عليك ثم تغوص في بحار الفضائل والمنن والرحمة، ثم تخرج منها فتخلع عليك خلع الأنوار والأسرار والعلوم والغرائب المدنية، ثم تقرب وتحدث فيه بإعلام وإلهام وتكلم وتعطى وتغنى وتشجع وترفع وتخاطب ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] فحينئذ اعتبر حالة يوسف الصديق عليه السلام حين خوطب بهذا الخطاب على لسان ملك مصر

وعظيمها وفرعونها، كان لسان الملك قائلاً معبراً بهذا الخطاب والمخاطب هو الله عز وجل على لسان المعرفة، سلم إليه المالك الظاهر وهو ملك مصر، وملك النفس وملك المعرفة والعلم والقربة والخصوصية وعلو المنزلة عنده عز وجل قال تعالى في ملك الملك: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: ٢١] أي في أرض مصر ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦] قال تعالى في ملك النفس ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] وقال تعالى في ملك المعرفة والعلم: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧] فإذا خوطبت بهذا الخطاب يا أيها الصديق الأكبر، أعطيت الحظ الأوفر من العلم الأعظم، ومنحت وهنيت بالتوفيق والمنن والقدرة والولاية العامة، والأمر النافذ على النفس وغيرها من الأشياء والتكوين بإذن إله الأشياء في الدنيا قبل الآخرة، وأما في الأخرى في دار السلام والجنة العليا، فالنظر إلى وجه المولى الكريم زيادة ومنة، وهو المنى الذي لا غاية له ولا منتهى، والله الموفق لحقائق ذلك، إنه رؤوف رحيم(١).

الفناء عن الخلق:

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه: كن مع الله عز وجل كأن لا خلق، ومع الخلق كأن لا نفس، فإذا كنت مع الله عز وجل بلا خلق وجدت، وعن الكل فنيت، وإذا كنت مع الخلق بلا نفس عدلت وبقيت ومن التبعات سلمت، واترك الكل على باب خلوتك، وادخل وحدك ترى مؤنسك في خلوتك بعين سرك، وتشاهد ما وراء العيان، وتزول النفس، ويأتي مكانها أمر الله وقربه فإذن(٢) جهلك علم، وبعدك قرب، وصمتك ذكر، ووحشتك أنس، يا هذا: ما ثم إلا خلق وخالق، فإن اخترت الخالق فقل لهم: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾ [الشعراء: ٧٧].

ثم قال: من ذاق عرف، فقيل له: من غلبت عليه مرارة صفرته كيف يجد حلاوة الذوق؟ فقال: يتعمل في الشهوات من قبله بقصد وتكلف.

يا هذا: المؤمن إذا عمل صالحاً انقلبت نفسه قلباً، وأدرك مدركات قلب، ثم

(١) فتوح الغيب ص٤٥ـ ٤٨.
(٢) لعل الصحيح: فإذا.

انقلب قلبه سراً ثم انقلب الفناء فصار وجوداً وبقاء، ثم قال: الأحباب يسعهم كان باب.

يا هذا: الفناء إعدام الخلائق، وانقلاب طبعك عن طبع الملائكة ثم الفناء عن طبع الملائكة، ثم لحوقك بالمنهاج الأول، وحينئذ يسقيك ربك ما يسقيك، ويزرع فيك ما يزرع، إن أردت هذا فعليك بالإسلام ثم الاستسلام، ثم العلم بالله، ثم المعرفة، ثم الوجود، وإذا كان وجودك له كان كلك له، الزهد عمل ساعة والورع عمل ساعتين والمعرفة عمل الأبد(١).

الفناء عن الطبع(٢):

قال رضي الله عنه وأرضاه: ترك الحظوظ ثلاث مرات الأولى يكون العبد ماراً في عشواه متخبطاً فيه منصرفاً لطبعه في جميع أحواله من غير تعبد لربه ولازم في الشرع يرده ولا حد من الحدود ينتهي إليه، يعني يرحمه، فيبعث الله إليه واعظاً من خلقه من عباده الصالحين فينبهه ويثنيه بواعظ من نفسه، فيتضافر الواعظان على طبعه نفسه وطبعه، فتعمل الموعظة عملها، فيتبين عندها عيب ما هي فيه من ركوب مطية الطبع والمخالفة، فتميل إلى الشرع في جميع تصرفاتها، فيصير العبد مسلماً قائماً مع الشرع فانياً عن الطبع، فيترك حرام الدنيا وشبهاتها ومنن الخلق، فيأخذ مباح الحق عز وجل وحلال الشرع في مأكله ومشربه وملبسه ومنكحه ومسكنه وجميع ما لابد منه، ليحفظ البنية ويتقوى على طاعة الرب عز وجل، ويستوفي قسمه المقسوم له الذي لا يتجاوزه، ولا سبيل إلى الخروج من الدنيا قبل تناوله والتلبس به واستيفائه، فيسير على مطية المباح والحلال بالشرع في جميع أحواله، إلى أن تنتهي به هذه المطية إلى عتبة الولاية والدخول في زمرة المحققين والخواص أهل العزيمة مريدي الحق، فيأكل بالأمر فحينئذ يسمع نداء من قبل الحق عز وجل من باطنه اترك نفسك وتعال، اترك الحظوظ والخلق إن أردت الخالق واخلع نعليك، دنياك وآخرتك، وتجرد عن الأكوان والموجودات، وما سيوجد والأماني بأمرها، وتعرى عن الجميع، وافن عن الكل،

(١) المقالة السابعة والسبعون (في الوقوف مع الله والفناء عن الخلق)، كتاب فتوح الغيب، ط دار الألباب ١٩٩٢م، ص١١٦، ١١٧.
(٢) الفناء عن الطبع، هو الفناء المطلوب لأن فيه القيام بالشرع.

وتطيب بالتوحيد، واترك الشرك، واصدق الإرادة، ثم ادخل، وطء البساط بالأدب مطرقاً، لا تنظر يميناً إلى الآخرة وشمالاً إلى الدنيا ولا إلى الخلق ولا إلى الحظوظ، فإذا دخل في هذا المقام وتحقق الوصول جاءت الخلعة من قبل الحق عز وجل وغشيته أنواع المعارف والعلوم وأنواع الفضل فيقال له تلبس بالنعم والفضل ولا تسيء الأدب بالرد وترك التلبس لأن رد نعم الملك افتئاتاً على الملك واستخفافاً بحضرته، وحينئذ يتلبس بالفضل والقسمة بالله من غير أن يكون هو فيه ومن قبل كأن يتلبس بهواه ونفسه فله أربع حالات في تناول الحظوظ والأقسام:

الأولى: بالطبع وهو الحرام.

الثانية: بالشرع وهو المباح والحلال.

الثالثة: بالأمر وهي حالة الولاية وترك الهوى.

الرابعة: بالفضل، وهي حالة زوال الإرادة وحصول البدلية، وكونه مراداً قائماً مع القدر الذي هو فعل الحق وهي حالة العلم والإنصاف بالصلاح فلا يسمى صالحاً على الحقيقة إلا وصل إلى هذا المقام، هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: ١٩٦] فهو العبد الذي كفت يده عن جلب مصالحه ومنافعه وعن رده مضاره ومفاسده، كالرضيع مع الظئر والميت الغسيل مع الغاسل، فتتولى يد القدرة وتربيته من غير أن يكون له اختيار وتدبير، فان عن جميع ذلك لا حالاً ولا مقاماً ولا إرادة، بل القيام مع القدرة، تارة يبسط وتارة يقبض وتارة يغنى وتارة يفقر، ولا يختار ولا يتمنى زوال ذلك وتغييره، بل الرضى الدائم والموافقة الأبدية فهو آخر ما تنتهي إليه أحوال الأولياء تقدست أرواحهم[١].

نظم الجيلاني في الفناء:

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني عن الفناء في قصيدته العينية:

وقد فتكت روحي بقارعة الهوى وأفنيت عن نحوي بما أنا فارع

(١) المقالة الخامسة والخمسون في ترك الحظوظ فتوح الغيب، ط. دار الألباب ص٨٧، ٨٨، وشرح فتوح الغيب ١٥٥، ١٥٦ وفيه أخطاء كثيرة في هذا المقال، ولم يشرح ابن تيمية في شرحه لكلمات من فتوح الغيب هذا المقال.

تلذ لي الآلام إذ أنت مسقمي ... وإن تمنحني فهي عندي صنائع
فقام الهوى عندي مقامي فكنته ... وغبيت عن كوني فعشقي جامع(١)

وقال في أبيات أخرى في قصيدته العينية:

أقوم أصلي أي أقوم على الوفا ... بأنك فرد واحد الحسن جامع
وأقرأ من قرآن حسنك آية ... فذلك قرآني إذا أنا راكع
فأسجد كي أفنى عن الفنا ... وأسجد أخرى والمتيم والع
وقلبي هذا أبقاه حسنك عنده ... تحياته منكم وإليكم تسارع
صيامي هو الإمساك عن رؤية السوى ... وفطري أني نحو وجهك راكع(٢)

ومن النظم المنسوب إلى الجيلاني في باب الفناء أيضاً الأبيات التالية:

رفع الحجاب عن بدور الكمال ... مرحباً مرحباً بأهل الجمال
ملكوني بحبهم ورضوا بي ... عبد رق فسدت بين الموالي
فرجوني بصرف راح هواهم ... فتربيت في حجور الدلال
عاملوني بلطفهم في غرامي ... فحلا في بصائر الناس حالي
إن أرادوا الصدود يفنى وجودي ... رحموني وأنعموا بالوصال
وإن ضللت عنهم هدوني ... هكذا هكذا تكون الموالي
سادتي سادتي بحقي عليكم ... إنني عندكم عزيز وغالي
ما بقى لي حبيب قلب سواكم ... مات وهمي بكم وبان خيالي
بحياتي عليكم يا سقاتي ... ووقوا الكأس إن حبي ملا لي
وأديروا الكؤوس بين الندامى ... فجميع الأنام سكري بحالي(٣)

---

(١) الجيلاني: فتوح الغيب ط. دار الألباب ص١٣٣.
(٢) الجيلاني: فتوح الغيب ط. دار الألباب ص ١٣٧.
(٣) الجيلاني: فتوح الغيب ص٢١٠، ٢١١.

لزوم الأمر والنهي في حالة الفناء:

يرى الشيخ عبد القادر أن الإنسان تمر به أحوال منها حال الحقيقة والتي هي حال الولاية، وحالة حق الحق، وهي حالة المحق، وحالة الفناء وهي حالة الأبدال المنكسري القلوب لأجل الحق الموحدين العارفين أرباب العلوم، وعلى الإنسان في جميع هذه الأحوال لزوم الأمر والنهي واتباع الشرع.

قال الشيخ عبد القادر: (وإن كنت في حال الحقيقة وهي حال الولاية فخالف هواك واتبع الأمر في الجملة، واتباع الأمر على قسمين: (أحدهما): أن تأخذ من الدنيا القوت الذي هو حق النفس وتترك الحظ وتؤدي الغرض، وتشتغل بترك الذنوب ما ظهر منها وما بطن، والقسم الثاني: ما كان بأمر باطن وهو أمر الحق تبارك وتعالى يأمر عبده وينهاه، وإنما يتحقق هذا الأمر في المباح الذي ليس حكماً في الشرع، على معنى أنه ليس من قبيل النهي ولا من قبيل الأمر الواجب بل هو مهل ترك العبد يتصرف فيه باختياره فسمي مباحاً فلا يحدث العبد فيه شيئاً من عنده بل ينتظر الأمر فيه، فإذا امتثل فيصير جميع حركاته وسكناته بالله تعالى، ما في الشرع حكمة فبالشرع، وما ليس له حكم في الشرع فبالأمر الباطن، فحينئذ يصير محققاً من أهل الحقيقة وما ليس فيه أمر باطن فهو مجرد الفعل حال التسليم، وإن كنت في حالة حق الحق وهي حالة المحق، والفناء حالة الأبدال المنكسري القلوب لأجل الحق الموحدين العارفين أرباب العلوم والفعل السادة الأمراء السخي الخفراء للحق خلفاء الرحمن وأجلائه وأعيانه وأحبابه عليهم السلام، فاتباع الأمر فيها بمخالفتك إياك بالتبري من الحول والقوة، وأن لا تكون لك إرادة وهمة في شيء البتة دنيا وأخرى، عبد الملك لا عبد الملك، وعبد الأمر لا عبد الهوى كالطفل مع الظئر، والمبيت الغسيل مع الغاسل، والمريض المغلوب على حسه مع الطبيب فيما سوى الأمر والنهي) وقال الجيلاني أيضاً: (اتبع الشرع في جميع ما ينزل بك إن كنت في حال التقوى التي هي القدم الأولى، واتبع الأمر في حالة الولاية ووجود الهوى ولا تتجاوزه وهي القدم الثانية، وارض بالفعل ووافق وافن في حالة البدلية والعينية والصديقية وهي المنتهى، تنح عن الطريق القدر، خل عن سبيله، رد نفسك وهواك، كف لسانك عن الشكوى، فإذا فعلت ذلك إن كان خيراً زادك المولى طيبة ولذة وسروراً، وإن كان شراً حفظك في طاعته فيه، وأزال عنك الملامة وأقعدك فيه حتى تتجاوز ويريحك عند انقضاء أجله كما

ينقضي الليل فيسفر عن النهار، والبرد في الشتاء فيسفر عن الصيف، ذلك النموذج عندك فاعتبر به، ثم ذنوب وآثام وأجرام وتلويث بأنواع المعاصي والخطايا، ولا يصلح لمجالسة الكريم إلا طاهر عن أنجاس الذنوب والزلات، ولا يقبل على شدته إلا طيب من دون الدعوى والهواشات كما لا يصلح لمجالسة الملوك إلا الطاهر من الأنجاس وأنواع النتن والأوساخ فالبلايا مكفرات، قال النبي ﷺ: «حمى يوم كفارة سنة»)(١).

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في بيانه كلام الشيخ عبد القادر بعد أن أورده في فتاويه أن الشيخ رضي الله عنه قد بين أن لزوم الأمر والنهي لابد منه في كل مقام وذكر الأحوال الثلاث التي تكلم عنها الجيلاني في حديثه عن لزوم الأمر والنهي في حالة الفناء وغيرها من الأحوال(٢).

البقاء(٣):

سئل الشيخ عبد القادر الجيلاني عن البقاء؟ فقال: البقاء لا يكون إلا مع اللقاء، واللقاء يكون كلمح البصر أو هو أقرب، ومن علامة أهل اللقاء أن لا يصحبهم في وضعهم به شيء فان لأنهما ضدان، وكان يقول: متى ذكرته فأنت محب، ومتى سمعت ذكره لك فإنك محبوب، والخلق حجابك عن نفسك، ونفسك حجابك عن ربك، وما دمت ترى الخلق لا ترى نفسك، وما دمت ترى نفسك لا ترى ربك(٤).

وقال الشيخ عبد القادر: (كن معه الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس، ومن لم يكن كذلك لم يزل في تخبيط ولم يزل أمره فرطاً)، ويشرح ابن القيم قول الشيخ عبد

(١) ابن تيمية: الفتاوى ١٠: ٥٢٣، ٥٢٤.
(٢) ابن تيمية: الفتاوى ١٠: ٥٢٣، ٥٢٤.
(٣) حال البقاء هو فناء الكاملين، الفناء عن عبادة السوى وقد اتفق ابن تيمية مع الجيلاني في أن حال البقاء أفضل من حال الفناء القاصر، والبقاء هو شهود الحقائق بإشهاد الحق كما قال الله تعالى فيما يروي عنه رسوله ﷺ: «لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش».
وفي رواية «وبي ينطق وبي يعقل»، فإذا سمع بالحق ورأى به سمع الأمر على ما هو عليه وشهد الحق على ما هو عليه.
انظر: ابن تيمية مجلد علم السلوك ص٣٤١.
(٤) انظر: التصوف في الإسلام للدكتور عمر فروخ ص٧٩.

القادر السابق فيقول (فمخالطة العبد للناس تكون تعاوناً على البر والتقوى علماً وعملاً، وأما بينه وبين الله فهو إيثار طاعته وتجنب معصيته، فللعبد واجب بينه وبين الرب، وواجب بينه وبين الخلق، لا يتم إلا بعزل نفسه من الوسط، والقيام بذلك لمحض النصيحة والإحسان، ولا يتم الواجب بينه وبين الخلق إلا بعزل الخلق من البين، والقيام له بالله إخلاصاً ومحبة وعبودية[(١)].

وقال الجيلاني: يا هذا: المؤمن إذا عمل صالحاً انقلبت نفسه قلباً وأدرك مدركات قلب، ثم انقلب قلبه سراً، ثم انقلب الفناء وجوداً وبقاء)[(٢)].

---

(١) ابن قيم الجوزية: الرسالة التبوكية، ط٣ المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٩٦هـ ص١٣.

(٢) الجيلاني: فتوح الغيب ص١١٧.

خاتمة

أحمد الله حمداً كثيراً على ما من به علي من إتمام هذا البحث الذي تبين لنا من خلاله أن الشيخ الجيلاني من الشيوخ المستقيمين، الذين عرفوا بالتقوى والورع والزهد والعمل الصالح والعلم والإيمان، والذين هم مشايخ أهل الكتاب والسنة، وأنه من أعظم مشايخ زمانه ـ كما ذكر ابن تيمية ـ أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق والقدر ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية، وقد حذر الجيلاني من ملاحظة القدر المحض بدون اتباع الأمر والنهي، وقد أشار إلى هذا التحذير ابن تيمية في فتاويه، وأشار الجيلاني في حديثه عن الحقيقة القدرية المحضة والحقيقة الشرعية أن لله الخلق والأمر، فمن عرف الأمر كان معه، وإن لم يكن يعرف العبد الأمر كان مع القدر.

ولم يكن الشيخ عبد القادر من أولئك الذين يكتفون بالحقائق الكونية، ويتركون الحقائق الدينية، بل لم يكن من أولئك الذين يكتفون بالحقائق الدينية في بعض الأمور دون بعض، أو يعملون بها في بعض الأحوال ويتركونها في أحوال أخرى، لعلمه أن من ترك الحقائق الدينية اتباعاً للكونية قد أصبح من الكافرين، وأن الذين يكتفون بالحقائق الدينية في مسائل معينة نقص إيمانهم بحسب ما نقصوا من الحقائق الدينية، والحقائق الدينية داخلة في عبادة الله، والحقائق الكونية يشترك فيها المسلم والكافر وقد بينت في الحديث عن التوحيد أن الشيخ عبد القادر كغيره من المشايخ المعتمدين عند المسلمين يرى أن أول ما أوجبه الله على لسان رسوله ﷺ هو الإقرار بالشهادتين، وأن الإقرار بهما يتضمن معرفة الله سبحانه وتعالى وهذا هو مذهب السلف.

وقد أثنى شيوخ السلف على الشيخ عبد القادر لاتفاقه مع السلف في فهم المسائل الإسلامية والتي تعرضنا لبعضها، بل عرف الجيلاني بأنه من أوائل الذين استطاعوا التمييز بين الكرامة والأحوال الشيطانية كما ذكرنا ذلك في الفصل الخاص بكراماته والذي نقلت فيه الكرامات التي ذكرت عنه من كتاب جامع كرامات الأولياء وكتاب أبي الحسن الشطنوفي وتعليق الدكتور القحطاني عليها وبياني لكل ذلك معتمداً على فتاوى ابن تيمية.

وفي المبحث الخاص بالإرادة والمريد والمراد نقلت جزءاً مما كتبه الجيلاني في كتابه آداب المريدين من الفقراء الصادقين سالكي طريقة الصوفية من كتاب الغنية المحقق، وقد حققت هذا الجزء تحقيقاً يختلف عن ذلك التحقيق.

وفي المبحث الثالث من الفصل الأخير تكلمت عن الكشف والمشاهدة والخواطر والإلهام عند الجيلاني وذكرت أقواله في ذلك وحديثه عن أنواع الخواطر، وبينت أن الشيخ عبد القادر يرى أنه يجب أن يعتمد المسلم على الكتاب والسنة وإذا حدث للولي إلهام أو خاطر فيجب عرضه على الكتاب والسنة فإن خالفهما لا يعمل به وإذا وافقهما حمد الله على ذلك.

وفي المبحث الرابع من الفصل الأخير تحدثت عن الفناء عند الجيلاني وبينت أن فناء الجيلاني هو الفناء عن عبادة السوى، وهو الفناء الكامل، المحمدي، النبوي، الديني، الشرعي، الذي يشهد فيه العبد فعل المأمورات مع كثرتها، وترك الشبهات مع كثرتها، لله وحده لا شريك له، وهو فناء الكاملين، وهو الفناء المحمود، وهو المقصود، وهو حال البقاء وهو توحيد الألوهية. قال ابن تيمية: (وأما النوع الثالث وهو الفناء عن عبادة السوى فهو حال النبيين واتباعهم، وهو أن يعنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ويحبه عن حب ما سواه وبخشيته عن خشية ما سواه عن التوكل على ما سواه).

والذي يجب على طالب الحق والعلم أن يستعين لفهم المسائل الإسلامية بكلام الأئمة الأعلام أمثال الجنيد بن محمد والفضيل بن عياض وعبد القادر الذين هم من أجل وأعظم المشايخ، وأسأل الله في ختام هذا البحث أن يعفو عن زللي وأن يغفر خطئي، ورحم الله الشيخ الجيلاني، ورفع درجته في الخالدين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

شوقي بشير عبد المجيد

العين أغسطس ٢٠٠٠م

فهرس المصادر والمراجع

١ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (٤٥٠ـ ٥٠٥هـ).

٢ـ الأربعين في شيوخ الصوفية، للماليني، تحقيق.

لأستاذ الدكتور عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٣ـ الاستقامة، لابن تيمية، تحقيق الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم، ط١، ١٩٨٠، نشر وتوزيع مؤسسة قرطبة.

٤ـ الإسراء والمعراج، لمحمد متولي الشعراوي، ط٢، ١٩٧٤م دار الشروق.

٥ـ اصطلاحات الصوفية، للكاشاني، تحقيق الدكتور عبد الخالق محمود، ط. دار المعارف، مصر، ١٤٠٤هـ.

٦ـ أصول الملامتية وغلطات الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي، تحقيق الأستاذ الدكتور عبد الفتاح القاوي.

٧ـ الإلهام عند المسلمين بعامة والإباضية بخاصة، بحث للدكتور شوقي بشير عبد المجيد، مجلة دراسات دعوية، عدد يناير ١٩٩٩م، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، (العدد الأول).

٨ـ إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة الحسني، ط. المكتبة الثقافية، بيروت.

٩ـ البداية والنهاية، لابن كثير، ط. مطبعة السعادة مصر ١٣٥١هـ وط٢، بيروت ١٤١١هـ.

١٠ـ أبو بكر الشبلي، حياته وآثاره، للدكتور شوقي بشير، ط١، الخرطوم ١٩٩٩م.

١١ـ تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ط دار الكتاب العربي، بيروت، بلا تاريخ.

١٢ـ التحذير من البدع، للشيخ عبد العزيز بن باز، ط. الرياض مكتبة المعارف ١٤٠٢هـ.

١٣ـ تاريخ التصوف الإسلامي، للدكتور عبد الرحمن بدوي.

١٤ـ تاريخ التصوف الإسلامي، للدكتور قاسم غني، ترجمة عن الفارسية صادق نشأت، راجعه أحمد ناجي والدكتور محمد مصطفى حلمي، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠م.

١٥ـ التصوف الإسلامي، لفرج يوسف أحمد، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن ١٩٩٨م.

١٦ـ التصوف في تراث ابن تيمية، للطبلاوي، ط مصر ١٩٨٤م.

١٧ـ التعرف لمذهب أهل التصوف، للكلاباذي، ط. دار الإيمان ١٤٠٧هـ.

١٨ـ تلبيس إبليس أو نقد العلم والعلماء، لعبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق خير الدين علي، ط دار الوعي العربي، بيروت، بدون تاريخ.

١٩ـ التنسك الإسلامي، للدكتور محمد غلاب، الكتاب الثامن والستون، المجلس الأعلى للشؤون الدينية بمصر.

٢٠ـ الجانب العاطفي في الإسلام، لمحمد الغزالي ط. دار الدعوة، الإسكندرية ١٩٩٨م.

٢١ـ الحركة الصوفية في الإسلام، للدكتور محمد محمد علي أبو ريان.

٢٢ـ الحكيم الترمذي واتجاهاته الذوقية، ط١٩٨٩م دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، لمؤلفه وجيه أحمد عبد الله.

٢٣ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني، ط٣، ١٤٠٠هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٤ـ دائرة المعارف الإسلامية، ط. دار الشعب.

٢٥ـ دراسات في التصوف الإسلامي، للدكتور محمد جلال أبو الفتوح شرف، ط. دار الفكر الجامعي إسكندرية، ١٩٨٣م.

٢٦ـ الرسالة القشيرية، للقشيري.

٢٧ـ روح المعاني، للألوسي، ط. دار الفكر ١٣٩٨هـ.

٢٨ـ ساعة مع العارفين، لسعيد الأعظمي الندوي، ط١ دار الاعتصام ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٢٩ـ سلطان العارفين، أبو يزيد البسطامي، للدكتور عبد الحليم محمود، ط. دار المعارف، مصر، بلا تاريخ.

٣٠ـ سلوة الأحزان بما روي عن ذوي العرفان لابن الجوزي، ط. منشأة المعارف، الإسكندرية بلا تاريخ.

٣١ـ سير أعلام النبلاء، للذهبي، ط٢ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٢هـ.

٣٢ـ شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ط. المكتب التجاري، بيروت، بلا تاريخ.

٣٣ـ شطحات الصوفية، للدكتور عبد الرحمن بدوي.

٣٤ـ الشيخ عبد القادر وآراؤه الاعتقادية، للدكتور القحطاني ـ سعيد بن مسفر بن مفرح ـ الرياض ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٣٥ـ صفة الصفوة، لابن الجوزي.

٣٦ـ طبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي، تحقيق نور الدين شريبة ط٣ مطبعة المدني، مصر ١٤٠٦هـ.

٣٧ـ الطبقات الكبرى للشعراني وبهامشه كتاب الأنوار القدسية في بيان آداب الصوفية بلا تاريخ.

٣٨ـ العقيدة الطحاوية، لعلي بن علي بن محمد ابن أبي العز، ط مكتبة البيان ١٩٨١م، تحقيق شعيب الأرنؤوط.

٣٩ـ الغنية لطالبي طريق الحق في الأخلاق والتصوف، والآداب الإسلامية، للشيخ عبد القادر الجيلاني، ط. مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٦م.

٤٠ـ الفتاوى، لابن تيمية، ط. الرياض ١٣٨١هـ.

٤١ـ الفرق بين الفرق، لعبد القاهر بن طاهر البغدادي، تحقيق محمد محيي الدين،

نشر مكتبة محمد علي صبيح، بلا تاريخ.

٤٢ـ الفناء تعريفه وأقوال العلماء فيه، بحث للدكتور شوقي بشير عبد المجيد، مجلة دراسات دعوية جامعة إفريقيا العالمية، يوليو ١٩٩٩م.

٤٣ـ في التصوف، للشيخ محمد المبارك عبد الله، ط. وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، السودان، ١٣٨٧هـ.

٤٤ـ كشف المحجوب، للهجويري، تحقيق الدكتورة إسعاد قنديل.

٤٥ـ اللمع، لأبي نصر السراج الطوسي، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة مصر ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

٤٦ـ لمحات من التصوف وتاريخه، للسائح علي حسين، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ١٩٩٤م.

٤٧ـ مدخل إلى التصوف الإسلامي، لأبي الوفاء الغنيمي التفتزاني، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٩م.

٤٨ـ معاجم المصطلح الصوفي في ضوء البحث المعجمي الحديث، للدكتور مصطفى إبراهيم علي، ط١٩٨٩.

٤٩ـ المعراج والرمز الصوفي، ط١ دار الباحث بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ.

٥٠ـ معرفة الأسرار، للحكيم الترمذي، تحقيق محمد إبراهيم الجيوشي، دار النهضة العربية، سورية ١٩٧٧م.

٥١ـ موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية، للدكتور أحمد محمد بناني، ط جامعة أم القرى ١٩٩٩م.

٥٢ـ مدارج السالكين، لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، الناشر دار الرشاد الحديثة.

٥٣ـ نظرات في التصوف، للشيخ الحفيان ط. الخرطوم.

٥٤ـ نظرية الاتصال عند الصوفية، لسارة بنت عبد المحسن بن عبد الله بن جلود، ط.

جدة ١٩٩١م.

٥٥ـ نقد ابن تيمية للتصوف، للدكتور شوقي بشير عبد المجيد، ط١ دار الفكر، الخرطوم، ١٩٨٧م.

٥٦ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس ط. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧م.

٥٧ـ اليوم الهجرة من النفس السفلى إلى النفس العليا، للإخوان الجمهوريين، ط. الخرطوم ١٤٠٦هـ.

فهرس الموضوعات






الأستاذ الدكتور
شوقي بشير عبد المجيد

- عميد كلية الدراسات العليا بجامعة امدرمان الاسلامية ٢٠٠٥م - ٢٠٠٧م
- بكلاريوس أصول الدين والفكر الأسلامي بتقدير جيد جداً.
- مرتبة الشرف جامعة امدرمان الاسلامية ١٩٧٥م
- ماجستير فى الاداب بتقدير ممتاز جامعة الاسكندرية ١٩٨١م
- دكتوراة في الشريعة فرع العقيدة جامعة ام القري مكة المكرمة بتقدير جيد جداً
- أستاذ /بروفيسور جامعة أم درمان الاسلامية ١٩٩٨م

له العديد من الكتب المنشورة والبحوث المحكمة.

من كتبه:

- الشيخ عبد القادر الجيلاني . حياته وآثاره.
- الشيخ الجنيد بن محمد . حياته وآثاره.
- الشيخ الشبلي. حياته وآثاره.
- منهج الجمهوريين في تحريف القران الكريم .
- أبويزيد البسطامي . شطحاته وآراء العلماء فيها.
- الفناء عند المسلمين
- شرح شيخ الاسلام أبن تيمية من كتاب فتوح الغيب للشيخ الجيلاني - تحقيق ودراسة.



مؤسسة رواح للفنون والتصميم ٠١٢٠٨٨٣١١٤